ماري عجمي

حياتها وأدبها ونشاطها

د. عبد الكريم اليافي

كما يهل النجم من وراء الغمام في الليل الداجي مشرقا لامعا كذلك ولدت ماري عجمي بدمشق في الرابع عشر من أيار عام ١٨٨٨ أي في أواخر الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد حين طما الاستبداد واشتد الضغط الاجتماعي وأفضت صروف الحياة الى انتشار الأمية والفقر في الولايات التابعة لتلك الدولة المريضة ٠

وقد شعر الناس في جميع أرجائها الواسعة بالحاجة الى التغيير والاصلاح وبالحاجة الى أنوار العلم والثقافة لعلها تنير السبيل الى النهوض والرقي والقضاء على مواطن الضعف والفساد في أنحاء البلاد ٠ وأدرك الغربيون أحوال تلك الدولة المتداعية فزادوا في ارسال البعثات التبشيرية ٠ جاء في كتاب « يقظة العرب » لجورج أنطونيوس : « ان التعليم الغربي انتشر في بلاد الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع مما كان في العهود السابقة ، وأدى ذلك الى قيام شبكة من المدارس والكليات امتدت الى جميع أنحاء البلاد ٠ ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما كانت تنشئه فرنسة وأمريكة وبريطانية بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والايطالية والألمانية ، وأضافت جهودها الى جهود الدول التي سبقتها ٠ » (ص ١٦٤) وكانت كل بعثة تبشيرية تنزل وتتوطد في الوسط الذي يلائمها ، « فاختلطت مساوىء المنافسة الدولية وشرورها ـ كما يقول أنطونيوس ـ بحسنات التعليم ونعمه ٠ » ويذكر كتاب « الادارة العثمانية في ولاية سورية » أن عدد

المدارس الأجنبية قد بلغ أربعاً وخمسين مدرسة في ذلك العهد (ص ٢٦٩) أكثرها ابتدائية ورشدية ·

وما ان بلغت ماري الخامسة من عمرها حتى دخلت المدرسة الروسية ثم المدرسة الارلندية وأنهت دراستها في هذه المدرسة وهي ابنة خمسة عشر عاماً · وكل الملامح يدل على نبوغها · لقد تفتح فكرها على البيان العربي فطفقت تكتب في الانشاء القطع النثرية والشعرية وهي في الثانية عشرة · وكانت رفيقاتها يعهدن اليها في انشاء ما يُكَلَّفْنَ إنشاءه · وقد نشرت أول مقالة لها باسمها في جريدة المحبة الصادرة في بيروت ١٨ أيار ١٩٠١ دون أن تتجاوز الثالثة عشرة · ولا شك أنها في هذه السن تحتاج الى بعض المشورة فكان أخوها الدكتور اسكندر مستشارها. وموضوع المقالة التي نشرتها «الموسيقى» · وفي تلك السنة فازت ماري بالجائزة الأولى في مسابقة جمعية درس الكتاب المقدس الارلندية · ولما نالت شهادتها المدرسية في ١٥ تموز ١٩٠٣ اختارت لخطابها عنوان « الشابة الفضلى » · وفي هذا الخطاب شعرت بقوة بيانها وحسن إلقائها · فكان البيان والخطابة وحب العلم والتقدم الأركان الأساسية التي تستند اليها في حياتها الاجتماعية الناجحة المقبلة الواسعة ·

أسرتها حموية الأصل نزح جدها اليان الحموي الى دمشق وتفرع نسله فيها ثلاث أسر عبد النور وصروف وعجمي انتشرت في لبنان والقدس ومصر وسورية وظهرت في هذه الأسر شخصيات فكرية وروحية واجتماعية بارزة ·

أما الفرع العجمي فمنسوب الى جد والد ماري وهو يوسف المتاجر بالسجاد والحلي من بلاد العجم أي بلاد فارس أو ايران كما ندعوها اليوم · وايران ما زالت مشهورة بالسجاد والماس والحجارة الكريمة كالفيروز والزبرجد والعقيق واللعل وعين النمر وغيرها · وكان هذا الجد يلبس لباس الأعاجم فلقب كذلك وهو من أصل عربي · والد ماري ماهر في الحساب العقلي وانشاء الرسائل دون تعلم · وهو يحب العلم والأدب والمطالعة · اشترك وهو أمي بمجلتي المقتطف والهلال وبجرائد المنار والمحبة ولسان الحال يقرؤها له أولاده الذين كان حريصاً على تعليمهم فلا يكاد يفوته شيء من تلك الصحف وهاتين المجلتين · تزوج مرتين

فرزق عشرين ولداً اثني عشر من زوجته الأولى وثمانية من زوجته الثانية • عاش من أولاده خمسة صبيان وعشر بنات • أما ماري فهي بكر زوجته الثانية • ولما وُلِدت كان قد تجاوز الستين ربيعاً •

والدتها زاهية اشتغلت في صباها بجلي الماس حباً للعمل ومساعدة لشقيقيها الصائغين • تزوجت وهي أمية • وبعد أن ولدت أولادها الثمانية تعلمت القراءة وغدت قادرة على مطالعة الانجيل •

من شقيقات ماري الآنستان ألن وأديل تخصصت الأولى بفن الموسيقى وامتازت بالعزف على البيانو وقد علمت هذا الفن في بيتها وفي المدارس وكانت كلتاهما تحسن الكتابة والانشاء • ولهذا لم تكن ماري غريبة عن حب الموسيقى وعن كتابة مقالتها الأولى في هذا الفن • بل كانت أيضاً زيادة على موهبتها في الكتابة والخطابة تحسن العزف على العود •

بلغت ماري سن السابعة عشرة وهي سن الصبا والأحلام ولكن الحب الانساني والعطف على المرضى والضعفاء يعمران قلبها فدفعاها الى الكلية الأمريكية ببيروت عام ١٩٠٥ لتدرس فن التمريض ثم لتمارسه ثلاثة أشهر لعلها تخفف شيئاً من آلام المرضى وتساعد في علاجهم وشفائهم ولكن لم تصدف في ابان ذلك عن حب الأدب والشعر • بل كانت كما يُروى عنها تقدم درجات حرارة المحمومين مصحوبة بالأشعار . وقد لاحظت رفيقاتها ميولها الأدبية الأصيلة فحرضوها على التخصص بالكتابة والانشاء والبيان والخطابة • وكأنها شعرت بقوة هذه الفنون وبأنها بها أقوى على تمريض المجتمع السوري اذ ذاك وعلى العمل في شفائه من بعض أسقامه ، ولكل مجتمع أسقام ، فرجعت الى دمشق وعينت معلمة في المدرسة الروسية سنة ١٩٠٦ وقضت سنتين وأخذت تراسل كبريات الصحف كالمقتبس الدمشقية والمهذب الزحلية والاخاء الحموية والحقوق اللبنانية ولسان الاتحاد والحسناء البيروتيتين ، كما كانت تكاتب بعض الأدباء المشهورين وعلى الخصوص فيلكس فارس • ثم سافرت عام ١٩٠٩ الى الاسكندرية وعينت ناظرة في مدرسة الأقباط بالاسكندرية عاماً واحداً ثم رجعت الى الشام موطنها الأول حيث أرادت أن تبذل نشاطها الفكري وحيث رأت أن عليها أن تشارك في تعليم

الكبار زيادة على الأطفال الصغار ولاسيما النساء فتيات كن أو زوجات وأن توسع نطاق تثقيفها وتعليمها ونهوضها بالمجتمع. فعمدت في شهر كانون الأول سنة ١٩١٠ وهي في الثانية والعشرين من عمرها أي في هذه السن الجميلة سن العطاء وسن العرائس الى انشاء مجلة نسوية علمية أدبية فكاهية دعتها « العروس » • وقد شجعها على ذلك المؤرخ الصحفي قسطنطين يني وأول ما صدرت المجلة عن مطبعة جريدة حمص في حمص ثم نقلت طباعتها الى دمشق وطفقت تحمل أعباءها التحريرية والمادية بنفسها •

وجعلت شعارها « ان الاكرام قد أعطي للنساء ليزيّن الأرض بأزهار السماء » ومعنى ذلك بتعبير بسيط أن النجوم أزهار السماء والنساء نجوم الأرض •

كان قد مضى على خلع السلطان عبد الحميد وتنصيب خلفه السلطان محمد رشاد زهاء سنة وسبعة شهور • وبدلا من أن يأمل العرب انفراجاً في هذا التغيير حكمت جمعية الاتحاد والترقي خمس سنوات باسم السلطان على أساس سيادة العنصر التركي الطوراني ونهجت سياسة التتريك • ولقد كان انشاء مجلة « العروس » وغيرها من المجلات العربية في ذلك الوقت الهاماً أو وعياً لدعم اللغة العربية والقومية العربية واشاعة الثقافة العالمية والعربية معاً •

لنتأمل من قريب هذه المجلة الفتية • انها باسمة كالعروس جميلة كالعروس حافلة بالأحلام العذاب كالعروس واهبة نفسها للشعب كما تهب العروس نفسها لبيتها ولأولادها • وقصد هذه المجلة على وجه الخصوص أن تبلغ الى نفس المرأة لتعلو بها وترقى أسمى الدرجات • وهي تزفها في مستهل العدد الأول بهذه الجمل على أنها سوف تحمل في أعدادها على استحياء خوالج قلب صاحبتها وأحلامها بتقدم المجتمع السوري •

« اليكِ العروسَ سيدتي • فرحبي بها غيرَ مأسورة ليذهب عنها شيء من حيائها فتُسِرَّ اليك بمكنونات قلبها وشعائر موقفها •

عروسة لا عريس لها سوى الشعب الجاثي على أقدام حريته يطلب بركة

الوطنية تحت سماء المعلم والعلم مسجلاعقد قرانه عليهما بمداد الفكر والقلب مكللاً رأسيهما ببراعم الآمال والازدهار» ٠

ثم توجه ماري كلمتها « الى الذين يؤمنون أن في نفس المرأة قوة تميت جراثيم الفساد وأن في يدها سلاحاً يمزق غياهب الاستبداد وأن في فمها عزاء يخفف وطأة الشقاء البشري ــ الى الذين أعتقد فيهم الغيرة والحمية ــ الى الذين يمدون أيديهم لانقاذ بنات جنسهم من مهاوي هذا الوسط المشوه بانتشار الأوهام أقدم مجلتي لا كضريبة تثقل بها عواتقهم بل كتقدمة الى من يليق بهم الاكرام وتناط بهم الآمال ٠ »

ثم توضح المباحث التي تعالجها المجلة فتسلكها في ثلاثة أقسام : « أولها باب الأدب والتاريخ ٠ وثانيها لاقتطاف ما غزرت مواده وعمت فوائده من الشؤون البيتية وكيفية تمريض الأطفال والعناية بهم ٠ وثالثها للفكاهات من نوادر ومناظرات وروايات أدبية تهذيبية ٠ »

ثم تخصص الاتجاه فتقول : « علموا نساءكم فيخففن أتعابكم ويربين أولادكم تربية تصيّرهم رجالاً ونساء ٠ »

وكأن المؤلفة تضع نفسها مكان المجلة فتُلْبِسُها رداء العروس الأبيض النقيّ وتُنهي تقدمتها قائلة :

« كلل أيها الزهر الجميل جبهة أنت عنوان طهارتها واخلاصها ٠

وأنت أيها الرداء الأبيض النقي فلتكن دائماً سمة فخر ومجد لصيانة كرامة حياتها ٠ »

ولا شك أن المجلة بهذا الرداء الذي يشف عن الاخلاص والطهارة ستغدو سمة فخر ومجد لصاحبتها بالاضافة الى سمات المجد والفخر الأخرى التي ستَتَّسِمُ بها الأديبة ٠

لننعم النظر قليلا في أقسام المجلة الثلاثة ٠ أولها باب الأدب والتاريخ وهو مفتوح يتنافس فيه الأدباء بثقافاتهم وقرائحهم ويعرض الباحثون في أرجائه الدانية والقاصية ، العربية والأجنبية ، ما فيه فوائد وحكم ومواعظ

وسيكون للمشهورات من النساء في التاريخ ملكات أو فنانات أو أديبات الحظ الأوفر من الترجمات • لا بد من الأمثلة • في مستهل العدد الثاني ترجمة موجزة حزينة للأديبة اللادي جان غراي التي نصبت ملكة على انكلترة وهي في السادسة عشرة من عمرها عام ١٥٥٣ وأطيح برأسها عام ١٥٥٤ وهي في السابعة عشرة • كأن هذه الترجمة تأسية لكل من بلغت المراتب العالية ثم غدر بها الزمان •

وفي صدر العدد الثالث عرض لأسماء بعض الملكات الموسيقيات أمثال ماري أنطوانيت وماري تيريز وماري دي ميديسيس ومار أوف سكوتش وكاترين أوف ڤالوا وهنريتا ماريا ونبذ عن حياة كل منهن •

وفي أول العدد الرابع تنويه بالرسامة الفرنسية روزا بونير التي اشتهرت برسمها الفني للحيوانات • وهلم جرا ••

أما القسم الثاني وهو شؤون بيتية وكيفية تمريض الأطفال والعناية بهم ففي العدد الأول تحت عنوان « المستشفى في البيت ، والأقدار والوقاية » • تشير ماري الى مقالة ظهرت في جريدة الاخاء بعنوان « علموها علموها » وتنقل حادثة من ألوف الحوادث على حد تعبيرها وهي موت طفل سببه جهل والدته وعملُها بآراء جاراتها الفضوليات • ثم تقول :« وكم وكم من الأطفال يذهبون ضحايا التدجيل والبخل والجهل ، وليس عذر الوالدات فيها سوى عدل أحكام القضاء التي لا مردّ لها كأن الأقدار تساعد على ابادة البشر أو كأن ارادة الله تعالى تعمل لابادة خلقه بدون ذنب منهم ولا سبب • »ثم تقول : « الله ميز الانسان عن الحيوان وأعطاه الحرية فيما يعمله فاذا أضرّ بنفسه فهل تلام العناية بذلك ؟! »

أرى أن هذه الجمل تشف عن حزن مكظوم يَتَفَلَّتُ من خلال التهكم على منطق البشر الذين يرمون كل خطأ أو مصيبة على القدر حتى كأن ارادة الله تعالى على حد قولها تعمل لابادة خلقه بدون ذنب منهم ولا سبب •

نحن نقدر هذا الحزن المكظوم ونرده الى شعور ماري الرقيق واحساسها المرهف • فلقد توفي خمسة أولاد من العشرين ولداً الذين ولِدوا لأسرتها ، أي ان

نسبة وفيات الأولاد قد بلغت خمساً وعشرين في المائة لدى هذه الأسرة المتوسطة الحال • وفي أغلب الظن أن وفيات الأطفال هذه قد وقعت في سن مبكرة بين الولادة والسن الخامسة كما هو معروف وسطياً في علم السكان • وربما شهدت ماري الصبية الرقيقة وهي بكر اخوتها من الزوجة الثانية بعض اخوتها يموتون من قلة معرفة الأهل تمريضهم ومن الانصياع لأقوال الجارات الفضوليات في وصف العلاج •

ويتأكد عندنا هذا الحدس حين نقرأ المقالة الأولى من العدد الثامن بعنوان « محبة الأم » • جاء فيها : « المحبة سلاح ذو حدين يشع الموت من جانبيه كليهما » وكان تلك الصورة صورة الأخ الصغير لم تفارق مخيلتها وهو مريض في فراشه يكافح الردى وأمها تسهر عليه حانية متولهة • فهي تبوح برسم هذه الصورة في خطابها لأمها : « عودي الى فراشك ولا تتسرعي بقتل نفسك بسهرك هذا الطويل • ان العناية تسهر عليه ليلا كما تراقبينه أنت نهاراً فهلمي الى غرفتك لتتمكني من اراحة جسدك المتعب • انك تسرفين بقواك وتبذرينها دون جدوى كأنه لم يَلِدْ مثلُكِ ولداً •

هكذا أجبرت الأم على ترك طفلها وأنا لا أعلم من سر هذه المحبة شيئاً ، هذه المحبة التي بينما هي ترجو الحياة مرة تنظر الى الموت عشر مرات •

بعد قليل عدت فوجدت أن بهاء ذلك الملاك قد ازداد رونقاً وجمالاً واصفراراً، فوقفت أتأمله وقد تحركت بي عواطف الأم فشعرت بلذة فائقة وقلت ما أسعدك أيتها الأم ، اندفعت الى تقبيله وامساك يده مقلدة أمه فاذا بها كالثلج فتقهقرت الى الوراء وصرخت من أعماق قلبي ما أشقى حياة الوالدات !

بلحظة واحدة انقلبت اللذة الى مرارة شديدة غشّت كل سعادة وكل سرور وحوّلت كتلة الحب الحارة الى قطعة باردة جامدة يتلاعب بها اعصار الموت • »

ربما كانت تلك الصورة المأساوية التي حفظتها ماري وهي في صباها النضر هي التي دفعت بها أول الأمر الى اختيار مهنة التمريض في الكلية الأمريكية ببيروت لعلها تشارك في علاج المدنفين صغاراً وكباراً • ولا ننس أنها في العدد الأول من مجلتها أوصت كل ربة منزل ألا يَخْلُوَ بيتها من ترمومتر تستطيع معه أن تعرف درجة حرارة أجساد أولادها في كل مساء • فهي قد حملت معها حين أنشأت مجلتها

صور مهنة التمريض التي مارستها شهوراً • وهكذا نجد في كل عدد من أعداد المجلة بحوثاً طبية وبيتية مفيدة للأسرة • وعندنا أنها لم تترك مهنة التمريض بل خرجت الى ساحة أوسع من ساحة المستشفى وهي ساحة المجتمع كما أشرنا الى ذلك آنفاً •

وأما القسم الثالث من المجلة فهو كماسلف مخصص للفكاهة والنادرة والحكمة والموعظة • ولا شك أن القارىء بحاجة الى نصيب من اللهو والباطل يستعين به على تعب الحياة وجدها وما فيها من هموم وشجون • وتسعفنا ماري الصبية ببعض النكت والنوادر • في العدد الأول النكتة التالية :

« كان بعض الكهنة يلقي نصائحه على مسامع عروسين • فقال لهما :

يجب ألا تخرجا عن حدود طاعة أحدكما للآخر • ان من واجبات الزوج أن يدفع عن امرأته كل طارىء تصاب منه بسوء • ومن واجبات الزوجة أن تحب زوجها وتكرمه وتطيعه وتتبعه الى حيث يذهب •

هنا قاطعته العروس الفتاة قائلة بلسان متلعثم : هل لك يا أبي أن تمحو المادة الأخيرة من أحكامك • قال لها : دعيني أتم كلامي • قالت ولكن زوجي بوسطجي يا سيدي فهل لك أن تقتصر على الوصايا الأولى • »

وفي العدد السابع من المجلد الأول « طلبت سيدة المنزل عند انتهاء السهرة الى أحد المغنين البارعين أن يغني شيئاً أيضاً •

قال : بكل سرور يا سيدتي • انما أخشى أن أزعج الجيران وقد تأخرت الساعة جداً •

قالت : ان لهم كلباً ما زال يزعجنا كل ليلة فقد حق لنا أن نزعجهم نحن مرة • • • »

لمعت ماري كاتبة عربية أصيلة تملأ مجلتها بمقالاتها ومقتطفاتها وبالشؤون البيتية من تمريض ووصفات في طبخ الطعام وعناية بالملابس وازالة البقع عنها وغيرها ، وبالنوادر والحكم المسلية المفيدة وكانت أحياناً توقع مقالاتها باسم « ليلى » • ولكنها في الوقت نفسه برزت خطيبة بليغة تتهاداها الجمعيات والأندية لتلقي على منابرها خطباً بديعة أودعتها بعدئذ مجلتها فحفظتها بين

دفتيها • فنحن في العدد تلو العدد نجد عنواناً لخطبة من خطبها واسم النادي أو الجمعية التي ألقتها في ردهتها وعلى منبرها • ولم تقتصر هذه الخطيبة البليغة والأديبة اللامعة على ميدان البيان لخدمة الانسان أياً كان بل كانت جمة النشاط كثيرة المراسلات مع أدباء عصرها وأديباته ومع الصحف والمجلات اذ ذاك• بل أضافت الى هذه المآثر خدمات اجتماعية جلى •كانت قضية ما يدعى بتحرير المرأة في عهدها أدق القضايا المطروحة على بساط الاصلاح الاجتماعي • ولقد خصصت مجلتها « العروس » كما سلف لمعالجة هذه القضية ورفع مستوى المرأة الاجتماعي كما كان أغلب خطبها يدور في هذا الموضوع وفي مكارم الأخلاق والفضيلة وحب التقدم ، كذلك كان شأنها كبيراً في بث التعليم والثقافة منذ صباها •

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى توقفت المجلة ولكن نشاط ماري لم يتوقف . لقد حكم الأتراك على الشبيبة العربية الواعية التي تطالب بحقوق العرب بالسجن والاعدام • فوقعت مجزرتان متتاليتان في عام ١٩١٥ ثم في عام١٩١٦ وذلك في وطيس تلك الحرب • وكانت ماري في السابعة والعشرين من عمرها فكانت تتحدى الحكام والسجان وتزور أولئك الوطنيين في زنزاناتهم في سورية وفي لبنان وتعلي شأن بطولاتهم وهي أغلى البطولات اذ ضحوا بدمائهم لتتحرر بلادهم وليقدموا لأبنائهم وأبناء بلادهم أغلى المواريث في التضحية وأبلغ الأمثلة في العطاء ، وكانت تسعى بالتياع المفجوع وتبذل وسع جهدها للدفاع عنهم أمام قلوب قدت من الصخر الأصم وعقول ران عليها الصدأ وضيق الأفق والتعصب لطورانية ضحلة مغلقة •

ولما وضعت الحرب أوزارها وأعلن الأمير فيصل تاسيس حكومة عربية في بلاد الشام في الخامس من تشرين الأول عام ١٩١٨ بدأت أشعة الآمال تداعب النفوس وكأنما خلقت البلاد اذ ذاك خلقاً جديداً مفاجئاً فجعلت الجماهير يشيدون بنعمة الاستقلال ويتغنون بالمآثر العربية وتاريخ الأمجاد ويتحمسون للغة الأجداد وأخذ الاصلاح يمس لغة الدواوين لتعريبها بايجاد المصطلحات العربية المناسبة وأنشىء المجمع العلمي في الثامن من حزيران عام ١٩١٩ وانصرف المعلمون في المدارس الابتدائية والثانوية الى ترجمة الكتب المدرسية الى العربية وتأليف الجديد منها ، وولدت نواة الجامعة السورية من المعهدين : المعهد الطبي الذي

افتتح في الشهر الأول من عام ١٩١٩ ومعهد الحقوق الذي افتتح في الشهر التاسع من العام ذاته · وكان الشرط في تسمية الأساتذة فيهما أن يحسنوا الى جانب اختصاصهم التدريس باللغة العربية اذ هي اللغة الرسمية للدولة ، وغدا النشاط والحماسة بالغين في برهة لم تتجاوز العامين أي في مدة ذلك الاستقلال قبل أن يخون الحلفاء عهودهم وينكثوا بوعودهم فتبرم معاهدة سايكس بيكو ومعاهدة سان ريمو وتقع معركة ميسلون في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠ .

وقد زودني الأستاذ ماجد الغزي بأن ماري عجمي كانت من مؤسسات جمعية يقظة المرأة الشامية مع نازك العابد وفطمة مردم وسلوى غزي في زمن الملك فيصل وقد منحهن الملك مدرسة لاحتضان بنات الشهداء وتربيتهن وهي المدرسة التي غدت تجهيزاً للبنات في طريق الصالحية وكان البنات يغنين نشيداً مؤثراً منه :

بنت الشهيد العربي لا تحزني لا تندبي

أبوك ان مات الأبي فانت بنت العرب

كانت تلك المدة الوجيزة في تباشير الاستقلال بمنزلة الحلم وكانت كافية لتذوق السوريين حلاوة الاستقلال وليزداد تمسكهم به وليناهضوا الانتداب الفرنسي مناهضة لا تعرف الفتور ولا الكلل حتى عام ١٩٤٥ ·

كانت ماري في طلائع المناضلات والمناضلين وقد عمدت الى استئناف مجلة العروس حتى نشوب الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ · وقد أرادت أن تضاعف نشاطها الأدبي والأجتماعي فأسست عام ١٩٢٠ النادي الأدبي النسائي هذا الذي ألقي حديثي باسمه تمجيداً للذكرى المئوية التي تمر على ميلاد مؤسسته · وغايته بعث النهضة الاجتماعية النسوية فيكون هذا النادي دعماً لمجلة العروس وميداناً لتعاون السيدات السوريات المثقفات في انشاء حركة نسوية قومية وانسانية تعمل على ترقية المرأة وجعلها تشارك في المشاريع الوطنية والانسانية وذلك أن المرأة اذا نهضت فهي تنهض بالرجل وتدفعه الى معالي الأمور وتغدو وسيلة لرقيه ورقي أبنائهما ورقي المجتمع كله ·

اذا رجعنا الى العدد الحادي عشر من المجلد الأول من مجلة العروس الصادر في تشرين الأول عام ١٩١١ نجد في صدره مقالا بعنوان « اقتراح جميل ومفيد » وتحته شعار وهو « اذا نهضت المرأة السورية مجتمعة للاصلاح فجنة الفردوس هي سورية والمرأة بلبلها الغرد » . والمقال كله حث على تأليف ناد أو جمعية « مبدؤها العلم والترقي والاتحاد وغايتها تعليم المرأة وتهذيبها وتأسيس وانشاء مدارس وطنية راقية لتعليم ما نحتاجه نحن » على حد التعبير الوارد في المقال . ثم نقرأ : « ويشترط على العضوات ـ وسيكن من علية النساء المهذبات ـ أن يلبسن لباساً بسيطاً ويؤثرن مساعدة المشاريع الوطنية على الأعمال الأجنبية .» ثم نقرأ أيضاً : « والجمعية بالطبع تعمل على تقريب القلوب وحسن التفاهم ومواساة الحزانى وتضميد الجروح وترقية المرأة حساً ومعنى ، جسماً وروحاً ، أدباً وعلماً ، فضلا وغيرة ... » الى آخر المقال . ويعجب المقال ماري فتعلق عليه تعليقاً جميلا ونظن أنها هي التي كتبت العنوان . ويكاد يخالجها اليأس فتقول : « لا حياة لمن تنادي » ولكنها لا تلبث أن ينبعث الأمل في قلبها فتكتب : « على أن نجمة الأمل الذاهبة وراء البحر للاختفاء ستسطع بغتة . وهنا الفتاة الشرقية تمشي كالسلحفاة . فالى الأمام . ان أول درجات المجد المواظبة متى استيقظ الذكاء من رقدته والوطنية من قبرها . سلام على ذلك المثوى الذي سودته أنامل عميان المتعصبين وقائدي العميان . »

وعندي أن فكرة اقامة جمعية أو ناد ساورتها منذ ذلك الحين . ولما نضجت الفكرة ولاءمتها الصروف بعد تسع سنين عمدت ماري الى انشاء هذا النادي المجيد . وكان من مقاصده عند التأسيس ايجاد مكتبة للمطالعة خاصة بالسيدات وتعليم الطالبات المحتاجات وتقديم اللباس لهن وتشجيع المصنوعات الوطنية والحث على شرائها وتحسين صنعها وتوثيق التعاون بين السيدات الدمشقيات دون تدخل في الشؤون الدينية والسياسية ووضع برامج لعقد الاجتماعات والقاء المحاضرات واقامة حفلات سنوية في عيد الأم وحفلات لمكافحة الصهيونية وحفلات أخرى خيرية وحفلات تكريم لمن يستحق التكريم من الرجال والنساء .

لقد أرادت فرنسة غب استيلائها على دمشق أن تجند أقلام الكتاب والصحفيين لخدمتها وتوطيد حكمها فدعت الى اجتماع خطب فيه مدير ادارة المطبوعات

الفرنسية فطفق يعلم الحضور كيف يكتبون ووزع عليهم كميات من الورق بلا ثمن ووعدهم بالمساعدة • وكـان ممن دعـوا الكاتبة اللامعة ماري عجمي فأبت أن تلبي الدعوة وغابت عن الاجتماع • ثم جعـل أحد معارفها يتردد عليها كل مساء ليقنعها اذا هتَفَت لفرنسة بفصول تنشئها وأحاديث تنشرهـا بين النـاس وتعدد فيهـا الاصلاحات التي ينوي الانتداب الأجنبي ادخالها فازت بأجر شهري ضخم من الذهب الوهاج • قالت مـاري للعملاء : لتدخـل فرنسة الاصلاحات الحقيقية أولا ثم أترنم بها مجاناً ولا حاجة بي للمال تشترون بـه اخـلاصي الوطني • هكـذا قـالت وهي خريجـة البعثـة الارلنديـة والروسية • وهكذا انقطعت العلاقة بينها وبين أجراء الفرنسيين الأجـانب وخدامهـم اذ ذاك ، وعكفت طول عهدهـا تدعـو للاستقلال وتنادي به ولا تتـرك مناسبة وطنيـة أوأدبية الا خطبت فيهـا وكـانت هزارهـا المفوّه الذي يصدح بالتراتيـل القوميـة والأدبية العذبة نثراً وشـعراً ، كانت في عداد أعضاء الرابطة الأدبية حين أنشئت بدمشق عام ١٩٢١ • وكانت ماري فيهـا سيدة الميدان وواسطة العقد • ثم تولت تدريس اللغة العربية والأدب العـربي في مدرسـة الفرنسيسكان بدمشـق أربـع سنوات •

لنتأمل جوانب من بيانها ونشاطها ، نشرت في صباها الغض ترجمـة لروايـة « المجدلية الحسناء » عن الانكليزية سنة ١٩١٣ صدرت عن مطبعة قسطنطين يني في حمص • وكانت تجيـد الانكليزيـة • ألقت في حفلة تكريم لخليل مطران بدمشق قطعة فنية بعنوان « الشاعر » استهلتهـا بهذا المقطع البديع :

يا بن الليل وما كل شاعر بابن الليل

ان للأدب دولة أنت سلطانهـا

وللفن جسـم" الشعرُ روحـه

يظل الجمـال طيّ الابهـام حتى تذيعه

ويبقى الحزن ملءَ النفوس حتـى تجلوه

وتؤبّن الشاعر الرقيق ولي الدين يكن الذي توفي عام ١٩٢١ بخطبة بليغـة عنوانها « نفس الشاعر » تقابل فيها بين الأدباء والشعراء من جهـة والأغنيـاء

والملوك من جهة ثانية لتعلن تفاهة الغنى البائد تلقاء الأدب الخالد · وهي تذكر أنها نظرت عرضاً الى رسم شكسبير وهو في بلاط الملكة اليصابات فسألت نفسها اذ ذاك من الملك في ذلك الرسم ومن العبيد والاماء !

ويتوفى أمير الشعراء أحمد شوقي في عام ١٩٣٢ فتنشىء موشحاً جميلا حزيناً كأنه « رُكْبيم » ترثيه به تستهله بهذه الأبيات وكأنها لا تصدق بخبر وفاته

هزوا الغصون لعله نائم سكران في عش الهوى حالم

فالخلد فوق رياضه حائم

ثم تناديه :

قم واسقنا من خمرة الحب واعزف على قيثارة الصب
هذي بقاياها على الترب طُرِحَتْ بلا روح ولا قلب
والهفة الفصحى على القطب وعلى هدير الجدول العذب
أمعلل الأحباب بالقرب ان الحبيب من النوى واجم

وفي عام ١٩٣٣ توفي في سويسرة الأمير فيصل ملك سورية ثم ملك العراق فنقلته الى مثواه الأخير طائرة مرت في سماء الشام وكأنها كانت ترقب وقت مرورها فنظمت قصيدة بعنوان « النعش المجنح » تناجي فيها تلك الطائرة :

هاجه الشوق للعراق فطيري وانشري راية المليك الكبير
آية أنت فهو فيك مسجّى وجناحاه بين عصف ونور
صَعِّدي في الفضاء في الصحو في السحب وميلي على دروب البدور
وأثيري الرياح من كل هوجاء نُواحاً يشقّ صلد الصخور
ثم نادي البروق والرعد حتى يستثير الفضاءَ حرُّ الزفير

الى آخر هذه المرثية المؤثرة ···حيث تنهيها بهذا المقطع الحزين الذي يشف عن نقمتها على الحدود المصطنعة التي أقامها الحلفاء بين بلاد واحدة وعن عشقها للعروبة وعن حثها للمغلوبين على الثورة لأنه لا حياة طيبة للمغلوب :

ســر على الريح يا حبيب القلوب وتخـطـ ّ الحـدود رغـم الرقيب
قد ضممت الحمى فما من ســدود تفصـل الصب عن تــراب الحبيب
باحث أنت في حمــى النجـم تعلي راية العُرْب في الفضـاء الرحيب
أم تحب الضيــاء هـا هــو نسـر فـــوق نعشٍ مجنـح مخضــوب
ان صوتاً مـن الضـريح ينـادي هــل تطيب الحيـاة للمغــلوب

في جميع ما كتبته وعملته ماري نجدمشاعر عذبة وأحاسيس رقيقة وعاطفة قوية تعتلج بالاخلاص لبلادها ولعروبتهاوللانسانية جمعـاء · نجد دائماً حباً في النهوض والارتفاع والعلاء والنقاء ·

كثيراً ما نجدها تغني للربيع وللحياة:

ما لهـذي الربا تضَوَّعُ عطـراً أذكَرْنَ الأحبـاب شــوقاً فطبنــا
ما لتلـك الكــروم متكئــاتٍ أتراهــن قــد ســكرن فنمنــا
مُتـَّع كلهـا الحيــاة فـروض وخُمــار وجــوقــة تتغنـى
قـل لمـن باكر الرياض صباحـاً قـد حبـاك الربيـــع ما تتمنى

وتغني ماري للدوح الباسق الشامخ · وكما ينتصب الدوح في العـلاء كـذلك نجد في صدر ماري تلك الهزة نحو العزةوالعلاء · الدوح وماري كلاهما في سهاد ووجد للنماء والارتفاع والقوة والازدهاء ·

حــدثيـني فاننــا شــركـــاء أسعديني يا دوح حــان اللقـاء
نحـن صنـوان في ســهاد ووجـد وبـنا هِـزَّةُ العـلا والوفـــاء
عشش الطـير في غصــونـك حتى قــد غـدا في صدى الحفيف غناء
وفؤادي مثـل الغصــون فشــدو ومِـراح وعِـــزّة وانتشــاء
عصفت فيــه عاصفــات الأمـاني خـافقـاً مـلء جانبيــه ســخاء

وهي تهتف في بغداد وفي مصـر وفيلبنان وفي الشام بشعر يشف دائماً عن رقة العواطف وحب الحياة الفاضلة الكريمـةوتعشق المثل العليا والنهوض نحو المعالي. تشدو في لبنان · أواه ليتها تعلم ماذا جرىالآن في لبنان الأشم :

عدنا فمرحى يا زمان الصبا　　نستقبل الأنوار فوق الأكم
هل يا ترى في الناس من مبلغ　　أنا ملأنا العين مما انسجم
يا حبذا لبنان ربع الندى　　منتجع العافين مجلى الشمم
يهزأ بالأوداء ما طأطأت　　وأين للأوداء مجد القمم

تستعمل ماري لفظ الأوداء جمعاً للوادي وهو الجمع اللغوي الصحيح الذي تتداوله معجمات اللغة وتربأ بنفسها عن استعمال لفظ الوديان جمع الوادي لأن هذا الجمع لم يرد في أمهات كتب اللغة القديمة ما عدا تاج العروس يلحقه مؤلفه ببقية الجموع وفي هذا تحرٍّ للأفضل والأصح • ولكننا نحن ننتبه بصرف النظر عن اللغة الى أن ماري تجد لبنان يهزأ بالوديان المنخفضة المطأطئة وكأنما نُشير لبنان هزءها هي بالانخفاض والطأطأة وتقابل بين تلك الوديان والقمم العالية ذات المجد بعلائها وشموخها • ان أحكامنا والصور الكلامية والشعرية التي نستعملها تحكم لنا أو علينا ، انها تشف عن ميولنا العميقة • وماري في جميع ما كتبته تتجه نحو الأكم والربا ، نحو القمم والشمم ، نحو النهوض والعلاء • بل لها قطعة نثرية بعنوان « احتلال القمم » تقول فيها :

« ما تزال القمم العالية خالية الا من القليل • أما الأماكن المزدحمة بالناس فهي السفوح المنخفضة التي تشتد فيها الضوضاء وتعلو فيها شكوى الشاكين • وهم أحق بالشكوى من أنفسهم لا من سواهم ، لأنهم بينما يكونون لاهين في شكواهم يغتنم الناظر الى العلاء الفرصة فيتسلق احدى الذرا الرفيعة • » ثم تقول : «أعظم ما تحتاج اليه في الصعود الى القمم شيئان: هما قلب طروب ويد راغبة في العمل .» وفي رأينا أن أخص سجايا ماري من وراء نشاطها وشعرها ونثرها هاتان الصفتان وهما تفاؤل قلبها ورغبتها الصادقة الدائبة في العمل •

ولها قطعة أخرى بعنوان « عيشة الجبال» تقول فيها : « لو خُيِّرت لاخترت أن أعيش دوماً في الجبال • » ونترجم نحن هذه الرغبة بالعيش في الجو النقي والعلاء الروحي :

ماري معلق قلبها بالقمم والجبال · خيالها يحلق دائماً في الأعالي ، في الشمم والعلاء · تذهب الى منطقة الأرز فوق مصيف بشري في لبنان فتجد خيالها هذا متمثلاً في دوح الأرز الشاهق · وكانت أعمدة سوقه الجبارة المنتصبة تتجاوز السحاب الصيفي المنعقد اذ ذاك فتخط ماري صفحة بليغة في مناجاة هذا المنظر الرائع · ونحن نرغب في عرض بعض سطورها لبيان هذا النوع من الخيال الشامخ الذي يأبى الا أن يرتفع في الآفاق:

« يا أرز لبنان وملك النبات المهيب

ما أعظم أن يسمو فوق الغمام عرشك الوطيد

وأن يدوم لك الملك ولم يبق لملك سؤدد

ترنو اليك فواغي الوادي حانية خاشعة

وتبتسم لك فرائد قاديشا عن لآلىء بيضاء تزري بحُبُك الفراقد

تجري شلالاته صافية الزلال بين رياض هي كدرجات سلالم الهياكل

مدبجة الألوان ، مرتلة اجلالاً لسنائك ، هاتفة على تعاقب الفصول بحمدك.

يا أقدم كل حي ، وأنضر الطاعنين في السن · »

نلاحظ في كلامها لفظ الفواغي جمع فاغية وهي نَوْر كل ما له رائحة طيبة من النبات · وفواغي الوادي صغيرة وهي أيضاً نابتة في الوادي أي في المنخفضات فهي تبدو حانية خاشعة أمام جلال الأرز الذي هو على بسوقه وشموخه يتملك هام الجبل ·

ثم انها تستعمل لفظاً نادر الاستعمال ولكنه هنا مهم لأنه يدل على العلو وهو الحبك حين تقول حبك الفراقد أي طرائق النجوم في السماء ولا شك أنها قد أفادت هذا اللفظ الذي بقي في ذاكرتها من الآية الكريمة في سورة الذاريات : « والسماء ذات الحبك » · وتريد بعبارتها أن تصف الصواعد والنوازل في مغارة قاديشا بأنها لآلىء بيض تمتد حتى كأنها طرائق للنجوم ولفظ الفراقد جاءت به ليتناسب مع الفرائد ثم تقول :

« يا رمز الشمم والثبات وتمثال التعاضد والمضاء ···

خطت على أفنائك يد العلى سطوراً تتلوها آيات الخلود
فقهقهة فيك النسيم لا يحبس أنفاسه لحظة سخراً من المتضائلين
وزهت النضرة في اخضرارك الدائم تهكماً على الشاحبين »

وهي لا تنسى في هذه النجوى أن تنوه بالعاطفة القومية عند أبناء المهجر لتدعم صلتهم ببلادهم الأصيلة ٠ وتناشد الأمم الناشئة بالثبات والتغلب على المصاعب :

« دعني أُذكِّرْ بك أبناء لك في المهجر ما برحوا أُسْداً
وما برحت هممهم متصلة بعروقك
دعني أهتفْ حيا الله الأرز عماد الأرائك والأمجاد
دعني أناشد كل أمة هاوية أن تجعل الأرز قِبْلتها
وأحدث من يشاء الخلود بالمصاعب التي لقيتها وظفرت عليها »

ثم تحلم وهي الشاعرة وتتمنى فتقول :

« حبذا لو كنت طيراً اذن لرقصت أيها الأرز على كل فنن من أفنانك ٠ »

ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقرأ ما بين السطور قراءة لا شعورية فنستكشف أن مغارة قاديشا الأرضية بصواعدها ونوازلها البيضاء النجمية تحكي الجو النفسي لدى الانسان. وكما أن في السماء نجوماً تسري في أفلاكها وتبدو مع ذلك ساكنة كذلك في نفس الانسان جو فلكي تجري فيه الارادة ٠ وبهذا الاعتبار تزري طرائق الارادة في النفس بطرائق النجوم الخارجية ٠

هذا وقد وجدنا ميلاً أصيلا لدى ماري نحو تحري الألفاظ اللغوية الدقيقة والأساليب العربية الصحيحة الراقية ٠ وكانت هي تعلم اللغة والأدب العربيين في المدارس ٠ وقد سافرت سنة ١٩٤٠ الى بغداد حيث عينت أستاذة للأدب العربي ٠ وكان الأدباء في زمنها يتنافسون في هذا السبيل سبيل تحري الأساليب العربية البليغة على خلاف ما هو الأدب عليه اليوم ٠ ثم ان الأخطاء العربية التي نجدها في مجلة العروس هي قائمة في العمال الذين يخدمون العروس لا في ملامح العروس الجميلة ٠

بل نجدها في موضع آخر مشدوهـة بالأرز ، تتمنّى لو كانت هي أرزة فـوق الجبال دائمة الخضرة :

يا ليتني الأرزة فوق الربـا الشمّاء لا تصفر وقت الخريف !

على أنهـا كانت تحب دمشـق بالغ الحب وتؤثرهـا بالغ الايثـار ٠ وهي في ايثارها لها تخصها بقصيدة أو موشح بديع كأنه نجوى المحب للمحبوب ٠ وكأنما كتبته وهي بعيدة من جلق مشتاقـة لرياضها وغوطتها وشتى محاسنها :

دمشـق اذا غبت عن ناظـري فرسـمك في حسنـه الزاهـر
مقيم على الدهـر في خاطـري
اذا فتّـح الـورد في روضتـك وغنّى الهـزار على دوحتـك
يهب نسـيم الصَّبـا هاتفـاً أما والـذي طـاب من تربتـك
سَمِعْتُ شتاتَ الأغـاني فما اهتـززت اهتزازي لأنشودتك
ولا عَبِقَتْ نفحـةٌ في الفضا ألـذّ وأطيب مـن نفحتـك

وكأن الشعر لا يكفي وان تطاولت به هذه القصيدة في بث ماري حبها لدمشق وتعلّقَها بها اذ تجد فيها رمزاً للعروبـة وتستشف منها حفزاً على التقدم واهابـة بالعمل والنهوض وضماً لحاضر كريم الى ماض مجيد ٠ فهي تناجي بالنثر البليـغ الرائع هذه العاصمة التي تتحدى الخطوب والزمان :

سـلاماً يـا جـدة مدن العالم وسـرحـة الـوادي الريـان !
تجلسين هادئة على ضفاف بردى بين مُنْبَسِط من المروج والجبال
صاغية الى نشيد الجداول الهادرة وتغريد البلابل الشادية
راوية أحـاديث الفخـار مرددة مصارع الأبطال ٠٠٠
ما في استطاعة الأجيال أن تمحـومن روائك حرفـاً ٠
ولا في قـدرة المحـن والأرزاء أنتطمس من جمالك سطراً ٠
حواضـر وبلدان تَعْمرُ ثم تمحي كما تمحي السطور ٠
وأنت ثابتة على مرّ الدهور ٠

هذا وقد فازت صاحبة مجلة العروس بجائزتين من الاذاعة البريطانية في المباراة الشعرية لسنتي ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ٠

ان الذي يطالع حياة ماري عجمي يشعر كأنه ازاء دوحة باسقة أو تلقاء أرزة فوق ذروة من الجبال الشاهقة ٠ وان الذي يقرأ ما كتبت وينظر فيما عملت وأنشأت وغرست يخيّل اليه أنه أمام نهر زاخر بالقوة والعزيمة والصفاء والحب له هدير يملأ المسامع ورونق يبهر البصر ٠ هذا النهر ينبع من قلب ماري الكبير ٠ انه ينبجس من قلب عال، كل العلوّ وهو يقصد على خلاف جميع الأنهار نحو العلاء ، نحو القمم بكل ما في معنى العلاء من حب وتضحية وسموّ ومجد ٠

لقد قال الشاعر الفرنسي أراغون :المرأة مستقبل الانسانية ، ونحن حين نقرأ ماري ونطلع على صفحات حياتها نقول : المرأة العربية مستقبل المجتمع العربي ٠

تلك الأرزة العالية الانسانية لا بدلها ما دامت انسانية من أن تصفر في زمن الخريف على خلاف أمانيها ٠ وكأنما شعرت أنها قدمت لمجتمعها أكثر من وسع طاقتها ٠ قدمت مثلاً رائعاً لكل فتاة وسيدة تعملان في ميدان الأدب وتجريان في حلبة النضال الثقافي والاجتماعي ٠ ولما دهم فصل الشتاء شتاء العمر انزوت في في بيتها وآثرت العزلة المطمئنة ثم أخلت الحلبة والميدان للفارسات الأديبات المثقفات من بنات قومها وللفوارس الأدباء المثقفين من بني قومها لعلهم جميعاً يجرون على منهاجها ويطبعون على غرارها ويقصون أثرها . وانتقلت الى رحمة ربها في الخامس والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٥ عن عمر حافل بالجد والنشاط والعمل ويكاد يوفي على السابعة والسبعين ٠

وربما كان من المفيد في رأينا وباجمال القول إنشاء جائزة باسم ماري عجمي تمنحها هيئة أدبية راقية أهلية أو رسمية كل فتاة بلغت في الأدب العربي والنضال القومي والاجتماعي مبلغاً ممتازاً ٠ وحبذا أيضاً لو وضعت وزارة الثقافة والارشاد القومي حجراً رخامياً على جدار البيت الذي كانت تقطنه إن تصعّب جعله متحفاً ٠

أولا يجدر بنا في الختام أن نهتف لماري بشعر يكرّم ذكرى ميلادها المئوية

اذ غنت لنا طول حياتها أناشيد قومية ووطنية شاجية ، وغرست لنا أغراساً بهية زاهية ، وقدمت لنا أعمالاً نيرة باقية :

كالنجم لاحت من وراء غمام ... مزدانة بالحب والالهام
وسرت على أرض الشآم كدُرّةٍ ... تنهلّ بالآمال والأحلام
وتالقت طول المسيرة قدوةً ... في الخير والايمان والاقدام
ومشت على نهج المسيح وحبّه ... تحنو على الأرواح والأجسام
عجمية عربية بكلامها ... وبيانها تنأى عن الاعجام
يأسو الجراحَ حنانها وبنانها ... ببيانها يجتاح كل ظلام
شعراً ونثراً مثلما شاء الهوى ... كالدر منظوماً ودون نظام
كالأرز ناهضة الجبين عليّة ... في جذعها سرّ الاباء السامي
نور القريحة والفؤاد تخللا ... غبش الدجى وحوالك الأعوام
أيان كانت أغدقت من قلبها ... حباً هو الداعي لكل وئام
ريحانة عَبِق الزمان بنشرها ... ونشاطها وعطائها المتنامي

* * *

في الغوطة الغناء ذكرك ماثل ... ومدارس الأبناء والأيتام
ومنابر الخطباء قد أنطقْتِها ... بالبر والاخلاص والانعام
وكذلك التمريض قد صيرته ... فنّاً يخفف صولة الآلام
قدمت أفضل ما يقدمه امرؤٌ ... للأهل من برٍّ ومن اكرام
النهر يغدق ماءه متدفقاً ... لسعادة الشطآن والآجام
والغيث يهطل مسبغاً آلاءه ... في الروض والبيداء والآكام
والنجم يهدي نوره بصفائه ... وسط الدياجي حيرة الأقدام

واذا الصباح بدا فرقراق الندى … سراً ينبّه غافيَ الأكمام
ماري تحدث عن طباعٍ كريمةٍ … بئس المماري في طباع كرام
مثل الحمام لطائفة ان ساجلت … واللبوة الشماء حين تحامي
كانت هزاراً كم ترنّم شاكيا … ما كان يغشانا من الأوهام

* * *

أواه من سقم التخلف عندنا … ان التخلف أفدح الأسقام
العصر فتّح أعين النوّام … والويل للمتخلف المتعامي
كم زينت هام « العروس » بفكرها … وبأرفع الآراء والأقلام
كم صفقت أيدٍ لفصل خطابها … تلقيه يوم تسابق وزحام
وسعت الى سجن الأباة تزورهم … وتكفكف العبرات وهي دوامي
ضحّوا فداء بلادهم بدمائهم … ودم الشهيد منارة الأقوام
ان أعوز الدم فالحجارة قد تفي … تكفي الاشارة عن كثير كلام
واذا البلاد توحدت وتعاونت … بلغت من العلياء كل مرام

* * *

ذكرى العظيم لدى القلوب مقيمة … تزداد اجلالاً على الأيام
مائة من الأعوام قد مرت على … ميلادها فعليه ألف سلام
كالنجم لاحت من وراء غمام … وبمثلها تنزْهى بلاد الشام

* * *

المفاعلة عند النحاة

صلاح الدين الزعبلاوي

المفاعلة مصدر من مصادر (فاعل) ،تقول فاعل يفاعل مفاعلة كقاتل يقاتل مقاتلة ، وهو المصدر القياسي بالاجماع ، ولفاعل مصادر أخرى هي :

الفعال بكسر أوله ، وهو كثير في الاستعمال ، تقول يقاتل قتالا ، ولا يطرد . وهو يندر فيما أوله الياء ، تقول ياسر يياسر مياسرة ولا تقول يساراً ، وقد سمع هذا في (ياوم) ، تقول : ياوم يياوم مياومة ويواماً . وجاء في الهمع للامام السيوطي (٢/١٦٧) : « ولفاعل فعال بكسر الفاء وتخفيف العين ، ومفاعلة كقاتل قتالا ومقاتلة . ويلزم مفاعلة فيما فاؤه ياء كياسر مياسرة ، وندر فيه فيعال كياوم يواماً » وفي شرح الشافية للرضي : « ولا يجيء فعال فيما فاؤه ياء للاستثقال فلا يقال يسار في ياسر » .

والفيعال بالياء مصدر فاعل ، وهو قليل في الاستعمار، فقد ذهب سيبويه الى أن الأصل في (فعال) بالكسر والتخفيف هو (الفيعال) بالياء ، اذ قال : أنهم حذفوا الياء التي جاء بها أهل اليمن ، وعللوا تقديم (الفعال) بالكسر والتخفيف ، على (الفيعال) بالياء ، بكثرة استعماله . وذهب آخرون أن الأصل هو (الفعال) بالكسر والتخفيف لأن حروف الفعل ، أي الفعل الماضي ، ثابتة فيه ، وأن (الفيعال) بالياء هو الفرع لأن الياء قد حصلت باشباع كسرة الفاء ، وهو المختار عند الزمخشري صاحب الكشاف ، وأن الفيعال بالياء لغة اليمن وحدهم والفعال بلا ياء لغة سواهم . على أن الفعال والفيعال لا يطردان على كل حال . قال ابن سيده في المخصص (١٤ـ١٨٥/١٨٦) : « واللازم عند سيبويه في مصدر فاعلت المفاعلة ، وقد يدعون الفيعال والفعال في مصدره ، ولا يدعون مفاعلة . وقالوا جالسته مجالسة وقاعدته مقاعدة ولم يسمع جلاساً ولا جيلاساً ، ولا قيعاداً ولا قعاداً » .

والمصدر الرابع لفاعل بعد المفاعلة والفعال هو الفِعّال بكسر الفاء وتشديد العين، وموزون ذلك من (قاتل) قاتلة مقاتلة وقتالا وقيتالا بالياء وقتالا بتشديد التاء • وجاء من ذلك (المراء) بكسر الميم وتشديد الراء تقول ماريته مماراة ومراء بالتخفيف وميراء بالياء كما جاء مراء بالتشديد ذكر هذا في شرح البناء للكفوي حكاية عن التفتازاني في تأسيسه. على أنه شاذ في المفاعلة • وجاء (كذاب) بكسر أوله وتشديد ثانيه في التنزيل فلم يحمل على المكاذبة بسبب شذوذه فيها • قال تعالى:(وكذبوا بآياتنا كِذّابا ـ النبأ/٢٨) فقال الجوهري في الصحاح « وقوله تعالى كذابا أحد مصادر فعّل بالتشديد » • وقال الامام البيضاوي : وكذبوا بآياتنا كذابا : تكذيباً •وفعّال بكسر أوله وتشديد ثانيه بمعنى تفعيل مطّرد ، شائع في كلام الفصحاء » • وجاء في التنزيل (لايسمعون فيها لغواً ولا كِذابا ـ النبأ / ٣٥) فقال الراغب في مفرداته « ولاكذابا ، الكذاب بتشديد الذال التكذيب » •

وجاء في شرح الشافية للرضي : « وجاء كذّاب هذا وان لم يكن مطرداً كالتفعيل ، لكنه هو القياس ، كما مر في شرح الكافية •قال سيبويه : أصل تفعيل فعّال جعلوا التاء في أوله عوضاً من الحرف الزائد ، وجعلوا الياء بمنزلة ألف الافعال ، فغيروا أخره كما غيروا أوله •• ولم يجيء فِعال بكسر أوله وتشديد ثانيه في غير المصدر الا مبدلا من أول مضعفه ياء نحو قيراط ودينار وديوان • وأما المصدر فانه لم يبدل فيه ليكون كالفعل • وفعّال بكسر أوله وتشديد ثانيه في مصدر فعّل بالتشديد ، وفيعال بالياء وفِعال بالكسر والتخفيف في فاعل ، وتفعال في تفعل بالتشديد ، وان كانت قياساً لكنها صارت مسموعة لا يقاس على ما جاء منها ـ ٥٨ ـ ٥٩ » •

ويستنبط مما تقدم أن (المفاعلة) هو المصدر القياسي لفاعَل • واذا عرفنا أن مصدر غير الثلاثي مشتق من الماضي باتفاق البصريين والكوفيين ، فالمشتق من الشيء بالاشتقاق الصغير يشتق اما بزيادة الحركة أو الحرف ، فمصدر (فاعل) مشتق من ماضيه بزيادة الميم في الأول ، لتقارب الميم والفاء مخرجاً ، كما يقول النحاة ، وبزيادة التاء في الآخر لشيوعها في كثير من المصادر كعدة واستقامة •

ولكن ما الذي تعنيه المفاعلة ؟

الذي تعنيه (المفاعلة) غالبا ، كما قرره النحاة ، هو (المشاركة) ، ولكن ما الذي تعنيه هذه المشاركة ؟ أقول ذكر الامام الرضي في شرح الشافية أمثلة مختلفة للمفاعلة التي تعني المشاركة منها أن تكون المفاعلة للمشاركة فعلا وهو يريد بالمشاركة هنا أن يقع التشارك بين اثنين ، بحيث يوقع أحدهما بالآخر فعلا فيقابله هذا بمثل هذا الفعل ، كقولك (ضارب زيد عمراً) أو شاتمه أو قاتله •وقد اشترط لذلك أن يكون (المفاعل) بفتح العين ، أي الذي شورك في الضرب وهو (عمرو) هو المفعول في أصل الفعل الثلاثي من قولك (ضرب زيد عمراً) فيكون الفعل قد اكتفى بعد تحوله الى صيغة (فاعلَ) بأن أفاد المشاركة على الوجه المذكور ، ولم يتجاوز في تعديه المفعول الواحد الذي كان يتعدى اليه •

ومثل ضاربت فلاناً شافهته وفاوهته وخاطبته وواجهته وفاوضته وباثثته وذاكرته وثافنته وقاولته ...

وزاد الامام محمد الكفوي في كتابه (شرح البنـاء) في شرح المثال ، فقال ان قولك (ضارب زيـد عمراً) قد دل صريحاً علـى صدور الضرب من زيد على وجه (الغالبية) ووقوعه على عمرو . كما دل ضمناً على صدوره من عمرو على وجه (المغلوبية) ووقوعه على زيد ، فيكون كل منهما فاعلاومفعولا .لكن الغالب يكون فاعلا والمفعول مفعولالفظاً، وبالعكس معنى . وهكـذا ذهب الكفوي الىاعتداد (زيد) فاعلا لفظاً (أي لفظاً ومعنى) واعتداد عمرو مفعولا لفظاً (أي لفظاًومعنى)، والى جعل (زيد) مفعولا معنى أو ضمناً ، و (عمرو) فاعلا معنى أو ضمناً .

ويأتي الرضي بمثال آخر هو (جاذبتفلاناً الثوب) ، وأصله (جذبت الثوبَ) ، فيقول انه ليس من قبيل المشاركة في(المضاربة) . ذلك أن (المضارِب) بفتح الراء ، وهو (عمرو) هو المفعول في الفعل الثلاثي من قولك (ضرب زيد عمراً) ، وهكـذا ظـل للمضاربـة مفعول واحـد ، أما (المجاذَب)بفتح الذال فليس هو المفعول في الفعلالثلاثي من قولك (جذبت الثوبَ) فقد ضمت المشاركة ها هنا الى المفعول الأصلي وهو(الثوب) مفعولا آخر هو (فلان) فأصبح للمجاذبةمفعولان . وقد حصل التشارك في الجذب هناولكن بين المتكلم وفلان ، فهما قد تنافسا في جذبالثوب .

ونظير ذلك (نازعت فلاناً الحديث) أي جاذبتـه اياه . اذ ليست المشاركة فيـه كالمشاركة في المضاربة ، ذلك أن (المنازَع) هنا بفتح الزاي، وهو (فلان) ليس هو المفعول في الفعل الثلاثي من قولك (نزعت الحديث)،وهو (الحديث) . فقـد جرى التشـارك في النزع هنا بين المتكلم وفلان أيضاً فهما قدتنافسا في نزع الحديث .

ويتبين مما تقدم أنه اذا كانت المشاركةفي المضاربة قد أفادت ايقاع أصل الفعل من المتضاربين أحدهما على الآخر ، فان المشاركةفي المجاذبـة والمنازعـة قد أفادت منافسـة المتجاذبين والمتنازعين في ايقاع الفعـل على مفعول آخر هو الثوب أو الحديث . والأصول الثلاثيـة لأفعال المشاركة هنا متعدية وهي ضرب وجذب ونزع .

وثمة أفعال للمشاركة اشتقت من ثلاثيلازم ، كقولك (ساير) ذلك أنه من (سار)، تقول (سايرته في البرية) ، والمسايرة هنـامشاركة قد وقع الفعل فيها من اثنين ، لكنـه لم يقع من أحدهما علـى الآخر . فالمسايـربكسر الياء لم يوقع أصل الفعل على المساير بفتح الياء ، كما لم يوقع جاذب أصل فعلـهعلى المجاذَب بفتح الذال .

ومثال آخر جاء به الرضي هو (كارمتفلاناً) أو (شاعرت فلاناً) ، وفعلهما مـن الثلاثي المجرد لازم . وقـد اشبهت المشاركة هنا مشاركة المضاربة لأن (المفاعل) فيهمـا بكسر العين قد أوقع أصل الفعل على (المفاعَل) بفتح العين كالمضارب ، بكسر الراء .

الذي أوقع فعل الضرب على المضارب بفتح الراء ، خلافاً لما ذكر في (المجاذب والمساير) بكسر الياء فانهما لم يوقعا أصل الفعل على (المجاذب والمساير) بفتح الياء ٠

وليس كل ما جاء على (فاعَل) هو من أفعال المشاركة ٠ فقد بقي من أمثلة الرضي في (المفاعلة) مثال ، هو من أقوال عليّ (رض) ، قال الرضي : « وقد يكون ما زاد من المفعول في باب المفاعلة هو المعامَل بفتح الميم ، بأصل الفعل ، لا على وجه المشاركة ، كما في قول علي ، رضي الله عنه ، كاشفتك الغطاءات ، وقولك عاودته وراجعته ٠٠ » ٠ فقد اتفق في (المكاشفة) ، على ما يقول الرضي ، أن يكون ما زاد من المفعول في باب المفاعلة هو (المعامَل) بفتح الميم في أصل الفعل ، وأن تكون المفاعلة على غير وجه مشاركة ٠ فانت تقول (كاشفتك العظات) كما ورد النص في نهج البلاغة (٢٤١/٢) ، وتقديره (كاشفتك بالعظات) ، وأصله في الفعل الثلاثي ، (كشفت لك العظات) ٠ فالذي زاد من المفعول بتحويل (كشف) الى (كاشف) هو (ضمير المخاطب) أي الكاف ، ولا مشاركة للمخاطب في الكشف ، خلافاً لقولك (جاذبتك الثوبَ) فالمفعول المزيد في المفاعلة ، (وهو ضمير المخاطب) مشارك في الجذب ٠ وهكذا (عاودتك في كذا) و (راجعتك في كذا) فان المخاطب ليس مشاركاً في العود أو الرجوع ٠ ولا يخفى أن (عاودتك وراجعتك) من أفعال الموالاة والمداومة ، ففي المصباح (يعاودها أي يرجع اليها مرة بعد مرة) ، وقال (راجعته : عاودته) ٠ فمكاشفتك فلاناً بكذا موالاة الكشف له ومعاودة فلان ومراجعته موالاة العود والرجوع اليه حيناً بعد حين ٠ قال ابن أبي حديد في شرح قول الامام علي (ولقد كاشفتك العظات وآذنتك على سواء) : « والعظات جمع عظة ، وهو منصوب على نزع الخافض » أي أن تقديره (كاشفتك بالعظات) ، وأردف : « وروي العظات بالرفع ، على أنه فاعل ، أي كاشفتك العظات وآذنتك أي أعلمتك ، وعلى سواء : أي على عدل وانصاف » ٠ فمكاشفتك فلاناً موالاة الكشف له ٠

ما جاء من المفاعلة لغير المشاركة :

ومما جاء به الرضي من المفاعلة في غير معنى المشاركة قولك (ضاعفته) بمعنى (ضعَّفته) بالتشديد أي كثَّرت أضعافه ، وسافرت بمعنى سفرت أي خرجت الى السفر ٠ قال الرضي : « ولا بد في سافرت من المبالغة » ، وعندي أن في (المسافرة) معنى الموالاة كالمعاودة والمراجعة ، أي أن (سافر) بمعنى سفر عن المكان مسافة بعد مسافة ٠ وذهب الراغب في مفرداته مذهباً آخر فقال : « وسافر خُصَّ بالمفاعلة اعتباراً بأن الانسان قد سفر عن المكان ، والمكان سفر عنه » ذلك أن (سفر) بمعنى خرج للارتحال أي بعُد ٠ والمختار أن تكون (المدافعة) أيضاً موالاة في الدفع ٠

وللمفاعلة في غير معنى المشاركة منحى آخر هو الصيرورة كعافاك الله اذا صيَّرك ذا عافية ٠ قال الرضي : « وقد يجيء بمعنى جعل الشيء ذا أصله كأفعل وفعَّل بالتشديد نحو راعنا سمعك أي اجعله ذا رعاية لنا كأرعنا ، وصاعر خدّه جعله ذا صعر ، وعافاك

الله أي جعلك ذاعافية ، وعاقبت فلاناً أيجملته ذا عقوبة ، وأكثر ما تجيء هـذه الأبواب الثلاثة متعدية » • ويمكن أن تحمل (المباركة) على باب الصيرورة ، فبارك الله لك في هذا أي جعله مباركاً •

ولا بد في كل مفاعلة اذا كانت بمعنى أصلها الثلاثي من أن تحمل معنى زائداً على الأصل ، لزيادة لفظها كجاوز بمعنى جاز •فجاز الطريق لزم جوزه أي وسطـه ، كما في المفردات ، قال الجوهري « جاز الموضعسلكهوسار فيه » ، أما جاوز الطريق فمعناه تجاوز جوزه أي وسطه ، كما ذهب اليه الراغب •

وبقي أن نذكر للمفاعلة ، في غير المشاركة ، معنى شائعاً في الاستعمال لم يشر اليه الرضي ، وقد ألح عليه بعض الأئمة ، فقـدجاء في كتاب (البناء في علم التصريف)لمحمد الكفوي : « وذكر الكشاف في بعض شروحهأنفي هذا الباب معنى آخر كثير الاستعمال ، وهو أن يكون من أحد الطرفين صدور أصل الفعل،ومن الطرف الآخر ما يقابله ، بناء على جعل **ما يقابله قائماً مقامه ، كقولك بايع زيـد** عمراً ، فان الصادر عن أحدهما البيع ، ومن الآخر الشراء » • أي أن معنى قولك (بايعزيد عمراً) صدور أصل الفعل وهو البيع ، من زيد ، وصدور ما يترتب عليه في مقابلةذلك وهو الشراء ، مـن عمرو • ونحو ذلك قولك (ناوله) فقد صدر أصل الفعل وهوالنول بمعنى العطاء من أحدهما ، وصدر ما يترتب عليه في مقابلة ذلك من الآخر وهـوالأخذ والتناول • ومن ذلك (المعاطاة) ففي اللسان (المعاطاة : المناولة) فعاطاه الشيءمعاطاة وعطاء بكسر العين ناوله اياهفتعاطاه أي تناوله •

وقدجاء في التنزيل (قاتلهم الله أنى يؤفكون ـ التوبة/٣١) ولا تصح في مثل هذه المقاتلة مشاركة أو مقابلة • ففي (قاتل)هنا نسبة أصل الفعل الى الفاعل حقيقـة بلا اقتضاء مشاركـة ، كما في تلخيص الأساسلعلي بن عثمان • فقاتلهم الله دعـاء بمعنى أهلكهم ، والأصل في (فاعل) اذا جاءبمعنى(فعلَ) أن تكون نسبة أصل الفعل الىالفاعل بطريق المجاز لاالحقيقة • قال علي بنعثمان:« فثبت التغاير بينهما على ما في بعضشروح الشافية » •

بعض ما جاء على فِعال بالكسر مصدراً لفاعل

فعال بالكسر ليس بالضرورة مصدراً لفاعـَل فقد يكـون اسماً غـير مصدر مفرداً أو جمعـاً ، وقد يكون مصدراً لفعـل أيضاً•ويلتبس الأمر حيناً ، فيما جـاء منه معتـل العين ، أهو مصدر لهذا أم مصدر لذاك • فثمة(لاذ به) مثلا بمعنى لجأ اليه واستتر به واختص ومصدره (اللوذ) بفتح فسكـون • وجاء (لاوذ) على فاعلَ أيضاً •وسمـع (اللواذ واللياذ) بكسر اللام فيهما ، على (فعال) بالكسر ، فأيهما مصدر (لاذ) الثلاثي ، أو مصدر (لاوذ) المزيد ؟ وجاء قام وقاوموسمع من مصادرهما القوام والقيام بكسر القاف ، فأيهما مصدر الثلاثي أو مصدر المزيد ؟

جاء في الصحاح « لاذ به لجأ اليه وعاذبه ، وبابه قال ، وليــاذاً أيضا بالكسر » . فتبين بهذا أن مصدر لاذ هو اللوذ كالقول ،وهو اللياذ أيضاً بكسر أوله . وفي الصحاح : « ولاوذ القوم ملاوذة ولواذاً أي لاذ بعضهم ببعض . ومنــه قوله تعــالى : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ــ النور/ ٣٦ ــ »،وأردف : « ولو كان لاذ لقال لياذاً » ، أي أن اللواذ في الآية مصدر لاوذ ، ولو كان مصدرلاذ لكان اللياذ . فاللياذ مصدر لاذ الثلاثي، واللواذ مصدر لاوذ على فاعل . وأكد ذلك الراغب في مفرداته فقال : « ولو كان من لاذ يلوذ لقيل لياذاً ، الا أن اللواذ هو فعال من لاوذ ، واللياذ من لاذ » . فلماذا قلبت الواو ياء في اللياذ مصدر الثلاثي ولم تقلب في اللواذ مصدر لاوذ ؟

أقول القاعدة أن الواو تقلب ياء اذا وقعت حشواً بين كسرة وألف زائدة ، في المصدر الأجوف الذي أعلّت عين فعله . ومن ذلك لاذ وصام وعاد ، فان عين الفعل فيهــا أعــلّ ، وجاءت الواو في مصادرهــا حشواً بين كسرةوألف ، ولذا قيل لاذ لياذاً وصام صياماً وعاد عياداً . على حــين صحت العين في (لاوذ)ولذا قيل لاوذ لواذاً . وهكذا تقول جــاور جواراً وعاود عواداً . وقد جاء في اعراب القرآن لأبي البقاء عبدالله العكبري : « لواذاً في قوله تعالى : يتسللون منكم لواذاً أويتسللون تسللا ، وانما صحت الواو في لواذاً مع انكسار ما قبلها لأنها تصح في الفعل الذي هو لاوذ ،ولو كان مصدر لاذ لكان لياذاً مثــل صــام صياماً » .

وهكذا (قام) وأصله (قوَم)بفتحتين، كما كان (لاذ) أصله (لَوَذ) بفتحتين ، ما دام قد أُعلّ فمن حق مصدره أن يُعــل فيقال (قام قياماً) وأصل الياء في (قيام) واو . ففي الأفعال لابن القوطية : « قام الى الشيء قوماً وقياماً نهض اليه » . أما (قاوم) فمصدره المقاومة والقوام بالكسر ، اذ لم يعلّ فعله ليعلّ مصــدره . وقوام الشي بالكسر أيضــاً عمــاده الــذي يقوم بــه ، وقــوام الأمر ملاكه . ولم تعلّ الواو هنا وكذلك في سواك وسواء بكسر أولهما لانتفاء المصدرية . وقد جاء في الألفاظ الكتابية لعبدالرحمن بن عيسى الهمذاني (في باب الاعتصام) : « ولاذ به لواذاً ولياذاً . قال ابن خالويه : هــــذا غلط والصواب أن تقول لاذ به لياذاً ولاوذ به لواذاً . ومنه قول القرآن الجليل : يتسللون منكم لواذاً فليحذر . فالأول مثل قام قيامــاً والثاني مثل قاوم قواماً » .

وقد شذ في هــذا الباب (نار) تقول نارت الظبية تنور نواراً بكسر النون أي نفرت. ففي الأفعال لابن القوطية : « نار الشيء نياراً فأنار : أضاء » وقد جاء هذا على القياس ، لكنه قال كذلك : « نار نوراً بالفتح ونواراً بالكسر : نفر » ، فأتى به على غير قياس . ومثل ذلك في الصحاح . قال الجوهري :«نُرت من الشيء أنور نوراً بالفتح ونواراً بالكسر». وجاء في اللسان « النوار المصدر » بنون مفتوحة « والنوار الاسم » بنون مكسورة ، وفيــه تحريف والصواب ما جاء في التاج « والنوار بالكسر المصدر وبالفتح الاسم » كما يدل عليه نصوص المعاجم ، ومنها الأفعال لابن القوطية والصحاح ، وسياق كلامها. كما شذّ شار الدابة

شواراً بالكسر اذا راضها . ففي القاموس :« شار العسل شوراً وشياراً استخرجه مـــن الوقبة » فجاء هذا على القياس . والوقبة النقرة في الصخر والكوة فيها العسل . لكنه جاء : شار الدابة شواراً وشياراً بكسرالشين فيهما اذا راضها ، فجاء هذا على غير قياس. ففي اللسان : « شارها شوراً بالفتح وشواراًبالكسر .. راضها أو ركبها عند العرض على مشتريها » وفي التاج مثـل ذلك . ولا نظن للنار اذا نفر وشار اذا راض ثالثاً .

ونختم هذا الباب بما جاء في الهمع للامام السيوطي (٢/٢٢١) : « تبدل الياء بعد كسرة من واو هي عين مصدر لفعل معل العين موزون بفعال ، نحو قام قياماً وعاد عياداً ، بخلاف عـين غير المصـدر كصوان وسـواك والمصـدر المفتوح أولـه كرواح أو المضموم كقوار أو المكسور الذي لم تعلّ عين فعله كلاوذ لواذاً وعاود عواداً .. » .

ما القول في (آجر) بالمدّ ، هل هو (فاعَل) أو (أفعَلَ) ؟

أقول (آجر) بالمدّ اما (أفعَلَ) واسم الفاعل منه (مؤجر) ومصدره (الايجار) على (افعال) ، واما (فاعلَ) فاسم الفاعل منه (مؤاجر) كمقاتـل والمصـدر (المؤاجرة) كالمقاتلة . وليس منه (اجار)كقتال ، فمصدر المفاعلة مـن (فاعـلَ) قياس ، أما مصدر (الفعال) بالكسر ، فهو سماع .

قال الأستاذ محمد العدناني في معجمه (الأخطاء الشائعة) : « ويخطئون من يقول أجّره الدار فهو مؤجّر بتشديد الجيم ، ويقولون : ان الصواب هو أجَره الدار فهو مؤجر ، لأن المعاجم كلها تقول ان الفعل هو :أجر ايجاراً ، لا أجّر تأجيراً » .

والغريب ان يذكر الأستاذ العدناني في معجمه (أجر) بلا مد على (فعَل)ويجعل اسم الفاعل منه على (مفعل) بضم أولـه وكسر ما قبل آخره ، أي مؤجر ، والمصدر منه على (افعال) أي ايجار .

ولست أدري أي ناقد يقول : « أجره الدار بلا مد فهو مؤجر » فيهدم كل ما قيل في القياس عن صوغ اسم الفاعل من الثلاثي ، بل أي معجم يمكن أن ينص أن (أجر) بلا مدّ ، مصدره (الايجار) فينقض كل مـا أبرمه الأيمة حول مصادر الفعل الثلاثي ؟ الا أن يكون في النص تحريف قد اتفق لمعجم فلا يعقل أن يشمـل كل معجم ، فكيف يصرف الأستاذ قوله : « ان المعاجم كلهـا تقول ان الفعل أجر ايجاراً .. » .

وأغرب مما ذكرنا وأذهب في العجب قول الأستاذ العدناني : « وهناك الفعل آجر بالمد بمعنى أجر ولكن اسم الفاعل منه هو مؤجر أيضاً ، لا مؤاجر حسب القاعدة » ! فانظر الى قوله (أيضاً) فكيف يكون (مؤجر) اسم فاعـل لـ (أجر وآجر) معاً ؟ فالمؤجر اسم فاعل من (آجر) اذا كان على (أفعل)، وليس هو اسم فاعل من (أجر) على (فعل)

بحال من الأحوال ، لأن الفاعل من هذا هو(آجر) ، واذا كان على (فاعلَ) فاسم الفاعل منه (مؤاجر) ، فأي قاعدة هذه قد أوجبت أن يكون الفاعل من (آجر) على (مؤجر) سواء كانت زنته على (فاعلَ) أو (أفعلَ)؟

واذا كان الأستاذ قد قصد أن (آجر) بالمد على (أفعل) دون (فاعل) لأنه كذلك في (آجرت الدار)على ما ذهب اليه الزمخشري ، كما سيأتي ايضاحه ، فلماذا لم يُبين ولم يُفصح ، وأنى للقارىء أن يهتدي الى مايقوم في نفس الأستاذ ، وما يقع فيخلده ؟.

التصحيف في نسخ المعاجم :

بقي أن نقول ان الخطأ الذي حكاه الأستاذ العدناني بقوله (أجره فهو مؤجر) قد يكون أتى به من عثار المصباح : (واختصر الأزهري على أجرته فهو مؤجر) . على أن هذا التصحيف قد تداركه المحقق في نسخة أخرى للمصباح طبعت سنة (١٣٤٢ هـ) ، اذ جاء فيها (واقتصر الأزهري على آجرته فهومؤجر) . ومثل هذا التصحيف قد عرض في التهذيب . قال الأزهري (ج/١١) : « فأجرته أوجره ايجاراً فهو مؤجر »والصواب (آجرته أوجره ايجاراً ..) بالمد ، وهو واضح ، لا يذهب على القارىء المتأمل . والا فكيف يكون (فعَلَ) في عبارة التهذيب، مضارعه (يُفعل) بضم حرف المضارعة كيكرم أو يكون مصدره (الافعال) ؟

واتفق نظير ذلك في القاموس ، في مادة(وجب) . قال الفيروزابادي : « وأوجب لك البيع مواجبة ووِجاباً » وهو تصحيف ، والأصل فيه (واجب) لا (أوجب) لأن (أوجب) مصدره الايجاب ، لا المواجبة والوِجاب . وقد حكى القاموس ما حكاه عن اللحياني ، وعبارة اللحياني في (المحكم)محكمة، وهي: « وقد أوجب البيع واستوجبه، وواجب البيع مواجبة ووجاباً » . وقد أشار الى تصحيف القاموس المحشي فقال : « هذا التصريف لا يُعرف في الدواوين ولاتقتضيه قواعد، فان مصدر أوجب الايجاب، والمواجبة والوجاب مقيسان في واجبه » .

وقد اعتذر صاحب التاج من تصحيف القاموس ، فقال :« ان المصنف ، أي صاحب القاموس ، لم يغفل .. لكنه أجحف بكلام اللحياني ».. وقد عجب من مثل هذا الاعتذار صاحب الجاسوس على القاموس ، فقال : « وهو اعتذار غريب ، فان الاجحاف هو عين الغفلة » . واذا عدنا الى اللسان ألفينا فيه التصحيف نفسه اذ جاء فيه : « وأوجب البيع مواجبة ووجاباً » . وذكر صاحب الجاسوس أن اللسان قد أورده صحيحاً ، فلعل بعض نسخ اللسان قد عريت من هذا التصحيف .

القول في (آجر) متى يكون (أفعل) ومتى يكون (فاعل) ؟

في المعاجم : (أجرت الدار) من الثلاثي فانا آجر بالمد والدار ماجورة والمصدر الأجر. وثمة (آجرت الدار) بالمد من المزيد ، وهو اما من (أفعل) فانا مؤجر بالكسر والدار

مؤجرة بالفتح ، والمصدر الايجار ، واما من(فاعل) فأنا مؤاجر بكسر الجيم والدار مؤاجرة بفتحها ، والمصدر المؤاجرة ·

قال صاحب المصباح : « وأجرت الدار والعبد » فأتى به من (فعَلَ) · وقال : « وآجرت الدار والعبد من أفعل ، لا من فاعل ، ومنهم من يقول آجرت الدار على فاعل فيقول آجرته مؤاجرة » · وقال صاحب الكليات أبو البقاء الكفوي : « واختلف في قولهم آجرت الدار أو الدابة بمعنى أكريتها، هل هو أفعل أو فاعل ، والحق أنه بهذا المعنى مشترك بينهما لأنه جاء فيه لغتان ،احداهما فاعلَ ومضارعه يؤاجر ، والأخرى أفعل ومضارعه يؤجر، وجاء له مصدران :فالمؤاجرة مصدر فاعَلَ والايجار مصدر أفعل »·وأضاف المصباح فقال : « ويتعدى الى مفعولين فيقال آجرت زيداً الدار ، وآجرت الدار زيداً على القلب ، مثل أعطيت زيداً درهما وأعطيت درهماً زيداً ، ويقال آجرت من زيد الدار ، للتوكيد ، كما يقال بعت زيداً الدار وبعت من زيد الدار » ·

والمملوك كالدار والعبد فقد جاء في اللسان : « وأجر المملوك يأجره فهو مأجور ، وآجره بالمد يؤجره ايجاراً ومؤاجرة »· وقال ابن القطاع في كتاب **الأفعال** : (أجره الله أجراً وآجره يؤجره ، والمملوك والأجير أعطيتهما أجرهما كذلك· وآجره يؤاجره ، فصار صورة أفعل وفاعل واحدة ـ ص/٢١ » · ولم تفرق المعاجم بين الأجير والدار عامة فلم تخص أحدهما بأفعل أو فاعل ، وقد أطلق صاحب المتن للأجير الايجار والمؤاجرة جميعاً ·

وذهب جماعة الى التخصيص فخصّوا (الدار) بالافعال أي الايجار وعدوا الفعل الى اثنين ، وخصوا (الأجير) بالمفاعلة أي المؤاجرة وعدّوه الى واحد · قال الزمخشري في الأساس : « وآجرني فلان داره فاستأجرتها وهو مؤجر ولا تقل مؤاجر فانه خطأ قبيح ، وليس هذا فاعل ولكن أفعل ، وانما الذي هو فاعل قولك آجر الأجير مؤاجرة كقولك شاهره وعاومه ، وكما يقال عامله وعاقده » ·

وحكى ذلك صاحب المصباح فقال : « قال الزمخشري وآجرت الدار على أفعلت فأنا مؤجر ولا يقال مؤاجر فهو خطأ ، ويقال آجرته مؤاجرة مثل عاملته معاملة وعاقدته معاقدة، ولأن ما كان من فاعل في معنى المعاملة كالمشاركة والمزارعة انما يتعدى لمفعول واحد، ومؤاجرة الأجير من ذلك ، فآجرت الدار والعبد من أفعل لا من فاعل ··· ويتعدى الى مفعولين فيقال آجرت زيداً الدار وآجرت الدار زيداً·»

وحكى ذلك صاحب الكليات أبو البقاء الكفوي فقال : « والمفهوم من ـ الأساس ـ وغيره اختصاص آجرت الدابة بباب أفعل ،واختصاص آجرت الأجير بباب فاعل · واسم الفاعل من الأول مؤجر بالكسر ، واسم المفعول مؤجر بالفتح · ومن الثاني اسم الفاعل مؤاجر بالكسر واسم المفعول مؤاجر بالفتح » ·

خلاصة الرأي في الايجار والمؤاجرة :

يتبين مما تقدم اختلاف الرأي في ذلك اذ ذهبت جماعة الى جواز استعمال الايجار والمؤاجرة للدار وآخرون الى جواز استعمالهماللأجير • وفرّق بعضهم فخص الايجاربالدار والمؤاجرة بالأجير ، كما فعل الزمخشري وأيدهالرضي في شرح الكافية • وحجة أولئك السماع وحجة هؤلاء أن المفاعلة في الأصل (مشاركة ومقابلة) في ايقاع أصل الفعل ، فهي تقتضي أن يكون كل من طرفيها أهلالايقاع الفعل كالمضاربة ومثلها المعاملة والمعاقدة والمزارعة ، فالمؤاجرة للأجير معاملةومعاقدة ، وليست كذلك للدار ، فالدار اذا أولى بالايجار منها بالمؤاجرة • والرأي في هذاجزل نضيج ، لا سيما وأن ما جاء من المفاعلة بمعنى الافعال قد خص بمعنى زائد ولميذكرللمؤاجرة التي سمعت بمعنى الايجار معنى زائد • فنحن اذا عوّلنا على القياس أخذنابمذهب الزمخشري ومن معه ، واذا عولناعلى السماع أخذنا باستعمال الصيغتين لكلمنهما،ويبقى اتباع القياس أليق بالمعنى •

أجّرت الدار بالتشديد :

أما (أجّرت الدار) بالتشديد فليس فيه نص معتمد ، اذ ورد في (أجّر)بالتشديد « أجّرت الطين اذا جعلته آجراً » • وقدمنع الأستاذ أسعد خليل داغر في تذكرته والأستاذ العدناني في معجمه (الأخطاء الشائعة)استعمال (أجّره الدار) بالتشديد بمعنى أجره أو آجره • قال الأستاذ داغر : « ويقولون أجّرني الدار بالتشديد وهو خطأ صوابه أجرني ايجاراً أي أكراني • فهو مؤجر وأنامستأجر • اما أجّر فلم ترد الا بمعنى صنع الآجر • يقال أجّر الرجل أي طبخ الطين آجراً • » والصواب ما ذهب اليه • وقد أساغ الشيخ ابراهيم اليازجي (أجّره الدار) بالتشديد فقال في رسالته (لغة الجرائد): « ويقولون أجّر المنزل تأجيراً أي اكتراه ،وهو عكس المعنى لأن التأجير يكون من المالك، تقول أجّرته المنزل فاستأجره » • وقد أكدما ذهب اليه في مجلة الضياء (٦١٢/١) على ما حكاه الأب البولسي في كتابه (مغالط الكتاب ومناهج الصواب) اذ عاب في المجلة قول القائل (أجّر الدار) بالتشديد بمعنىاستأجرها ، وقال : « والصواب أجّره الدار أي أكراه اياها فاستأجرها أي اكتراها » •وقد أورد المعجم الكبير الذي ألف باشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة (أجّره) •بالتشديد ، لكنه أشار الى أنه (مولّد) ،كما أشار الشيخ العلايلي في معجمه الى أنه من اللهجات العامية الشائعة •

ما القول في (آمن) بالمد

ويقول الكتاب حيناً (ومنهم من لا يؤامنون بهذا القول) فيأتون بآمن على فاعل ، وليس في العربية آمن كفاعل ، وانما هو عامي، فآمن يؤمن كأفعل يُفعل فهو مُفعل •تقول أمن البلد اذا اطمأن فهو آمن • فاذا عدّيته بالتضعيف فقلت (أمّنته) بتشديد الميم ، ومنه ما جاء في الحديث (أمّنوا السبل) أي اجعلوها آمنة ، والسبُل بضمتين جمع سبيل• وانت تعدّيه بزيادة الهمزة فتقول آمنتهايماناً خلاف أخفته • ومنه قوله تعالى (وآمنهم

من خوف) • وفي اللسان : « آمن فلانالعدو ايماناً فامن يأمن ، والعدو مؤمَن » بفتح ما قبل آخره • وفي اللسان « واستأمنني فلانفأمنته أومنه ايماناً » • وهكذا قولك (آمنت بالله ايماناً » فهو افعل افعالا • وانظر الى ماجاء في المخصص لابن سيده (١٣/٨٣) : « الايمان التصديق وقد آمن وزنه أفعل ولايكون فاعل • قال الفارسي : لا تخلو الألف في آمن من أن تكون زائدة أو منقلبة ، وليس في القسمة أن تكون أصلا • فلا يجوز أن تكون زائدة لأنها لو كانت كذلك لكانت فاعل ،ولوكان فاعل لكان مضارعه يفاعل مثل يقاتل ويضارب في مضارع قاتل وضارب ، فلما كانمضارع آمن يؤمن دلّ ذلك على انها غير زائدة • واذا لم تكن زائدة كانت منقلبة ،واذا كانت منقلبة لم يخلُ انقلابها من أن يكون عن الياء أو الواو أو عن الهمزة ، فلايجوز أن تكون منقلبة عن الواو لأنها في موضع سكون ، واذا كانت في موضع سكون وجب تصحيحها ولم يجز انقلابها • وبمثل هذه الدلالة لا يجوز أن تكون منقلبة عن الياء •فاذا لم يجز انقلابها عن الواو ولا عن الياء ثبت أنها منقلبة عن الهمزة • وانما انقلبتعنها ألفاً لوقوعها ساكنة بعد حرف مفتوح • فكما انها اذا خففت في راس وفاس وياسانقلبت ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها كذلك قلبت في نحو : آمن وآجر وآتي ، وفي الأسماءنحو : آذر وآخر وآدم • الا أن الانقلاب ها هنا لزمها لاجتماع الهمزتين ، والهمزتان اذااجتمعتا في كلمة لزم الثانية فيهما القلب بحسب الحركة التي قبلها اذا كانت ساكنة نحو آمن ، أومن ، ايذَن ، ايتمان » •

يقول أبو علي الفارسي أن الألف التيتلي الهمزة في (آمن) ليست زائدة لأنها لو كانت كذلك لكان (آمن) على فاعل ، ولم يسمع • وهي ليست منقلبة عن واو أو ياء لأن هذين انما ينقلبان الى الألف اذا تحركا والموضع موضع سكون • قال ابن جني في كتاب التصريف : « فاما الواو والياء فمتى تحركتا وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفاً •• نحو قام وباع وأصلهما قوَم وبَيع ، وكذلك طالوخاف وهاب والأصل طول بالضم وخوف بالكسر وهيبَ بالكسر ، فأبدلتا ألفين لما ذكرنا » • فلا يبقى الا أن تكون قد انقلبت عن همزة ، وانما تقلب الهمزة ألفاً اذا سكنت •قال ابن جني : « متى سكنت الهمزة وانفتح ما قبلها فتخفيفها وابدالها جميعاً أنتصيِّرهاألفاً في اللفظ ، فالتخفيف في قولك في رأس راس ، وفي فأس فاس ، وفي اقرأ اقرا وفياهدأ اهدا• والبدل في قولكآدم وآمن والأصل أأدم وأأمنفابدلت الهمزة الثانيةألفاً لاجتماعالهمزتين وسكون الثانية وانفتاح ما قبلها » •

القول في (آنس)

ويقول الكتاب حيناً (هو يؤانس من فلانميلا اليه) أي يشعر منه بميل ، فيأتون بالفعل من صيغة فاعل ، على ما يوهم لفظماضيه ، لأنه بعد الاعلال يصير آنس بالمد • وانما هو أفعل لا فاعل لأن أصله أأنس بهمزتين ، فالصواب في مضارعه يؤنس مثال يكرم• هذا ما أورده الشيخ ابراهيم اليازجي فيرسالته (لغة الجرائد) •

والقول عندي أن ما سمع هو قولهم (أنست بـه أنَسا) بفتحتـين ضد توحشت و (أنست اليه) اذا سكنت اليـه واطمأننت ·ومنه (الأنس) بالضم خلاف الوحشة ·ومنه الأنيس أيضاً · ويأتي متعديه على (آنسه ايناساً) · ففي الصحاح : « والايناس خلاف الايحاش » فدل بهذا على أن (آنسه) بهذا المعنى كأفعله · وقال : « والأنيس المؤانس » فدل بـه على أن (آنسـه) كفاعله بالمعنى نفسه · أما قولك (آنست الشيء بالمد بمعنى أبصرته وعلمته ، كما في الأفعال لابن القوطية، وسمعتـه كما في الصحاح ، فليس فيـه الا الايناس · ذلك أنه مـن أفعله يفعله افعالا ومنه قولـه تعالى : « اني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس ــ طه / ١٠ » وقوله تعالى« فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً ــ النساء/٥ » · قال الامام البيضاوي في تفسير قولـه تعالى: « اني آنست ناراً » وقيل الايناس ابصار مايؤنس به » ، فأتى بالايناس اشارة الى أن المصدر هو الافعال · وجاء في الحديث : « ألم تر الجن وابلاسها ويأسها من بعد ايناسها » قال ابن الأثير في النهاية : « أي أنها يئستمما كانت تعرفه وتدركه من استراق السمع» فأورد الايناس بمعنى المعرفة والعلم ·

القول في آسـى وآخـى

آسى على فاعلَ وأصله أ اسى بهمزة مفتوحة بعدها ألف (فاعلَ) ، ومضارعـه (يؤاسي) بضم أوله على يُفاعل · وكذلك (آخى) فان مضارعـه يؤاخي ، والمصـدر المؤاساة والمؤاخاة · وقد شاع على الألسنـةقولهم (المواساة) بالواو بدلا من الهمزة ، فمنع ذلـك بعضهم · قال صاحب الصحاح« وآسيته بمالي مؤاساة أي جعلته أسوتي فيه، وواسيته لغة ضعيفة فيه » · وقال أيضاً : « وقد آزيته اذا حاذيته ولا تقـل وازيتـه » وجاء في درة الغواص للحريري أبي القاسم :« وأما أياس فهو عند المحققين مصدر أستـه أعطيته والاسم منه الأوس الذي اشتقت منهالمواساة » فأتى بالمواساة بالواو ، وعقبعليه الخفاجي أحمد شهـاب الدين شـارح الدرةفقال : « وقوله اشتقوا منه المواساة فيه أن مادة أوس من الأجوف والمواساة معتلة اللام فهما أصلان مختلفان · وأيضاً المواساةبالواو وان جوّزت على قلة خطأ عند المصنف والصواب المؤاساة بالهمزة » ·

أقول أجاز ابن جني قولك (أواسيه) بالواو في كتابه الخصائص (١/١٨٧) فقال: آسيت الرجل فأنا أواسيه وآخيته فأنا أواخيه» وعلـل ذلك فقـال : « اجتمعت الهمزتان فقلبت الثانية واواً لانضمام ما قبلها ···أصله أ آسِوُك ، بهمزة مضمومة بعدها مد ، وسين مكسورة بعدهـا واو مضمومـة ، لأنـهأفاعلُك مـن الأسوة ، فقلبت الـواو يـاء لوقوعها طرفاً بعد الكسرة ، وكذلك أواخيك وأصله أ آخِوُك بكسر الخاء وضم الواو من الأخوة » وأردف : « وأمـا ·· تغيير الهمزةبقلبها واواً فالقول فيه أنه اجتمعت في كلمة واحـدة همزتان غير عينـين ، الأولى منهمـامضمومة والثانية مفتوحة ، وكلتاهما حشو غير طرف ، فاستثقل ذلك فقلبت الثانية علىحركة ما قبلهـا وهي الضمـة واواً ·· » ·

ومن ثم ترى أن في قولك (المواساة) بالواووجهاً صالحاً ومذهباً متقبلا ، وجرى ذلك في شعر معتمد ، كما جرى في كلام الفصحاء ·ففي شرح الحماسة للمرزوقي (ص/٤٠٤) : « قال محمد بن عبدالله الأزدي :

ولكـن أواسيـه وأنسى ذنوبـه لترجعـه يومـا الى الرواجـع

قوله أواسيه أي أجعله أسوة نفسي فاقاسمه مالي وملكي · يقول : لكـن أتناسى ذنوبه وهفواته وأتغابى جرائمه وزلاتـه ،وأحسن التأتي في أثناء ذلك لمواساتـه » · أقول أورد الشاعر الأزدي (أواسيه) بالواولأنها لغة اليمن ، وقد جروا على ذلك ،وأقره المرزوقي واستحسنـه · وجـاء في المصباح :« ويجوز ابدال الهمزة واواً في لغـة اليمـن فيقال أواسيه » ·

وجاءت (المواساة) بالواو في الحديث·قال ابن الأثير في النهايـة : « وقد تكرر ذكر الأسوة والمواساة في الحديث ، والاسوة بكسر الهمزة وضمها القدوة ، والمواسـاة المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق ، وأصلهاالهمزةفقلبت واواً تخفيفاً » ·

فالمواساة في الأمر تعني المساواة فيه ، وهي ترد من ثَمّ ، في ما يسرّ وما يحـزن على السواء · فقد جاء في لطائف اللطف لأبي منصور النيسابوري الثعالبي قول علي بن الجهـم « ان واسيناكم ساويناكم » وقال دعبل الخزاعي:

انّ أولى البـرايا أن تواسيـه عند المسرّة من واساك في الحَـزَن

القول في تعدية المفاعلة

لا شك أن الأصل فيما جاء من المفاعلة للمشاركة فعلا ، وأصله الثلاثـي لازم ، أن يتعدى الى مفعول واحد كجالسه وكارمه وساهره وماشاه وجاراه وسايره وفاخره ونازله من جلس وكرم وسهر ومشى وجرى وساروفخر ونزل ، وقد ذهب ابن هشـام في مغني اللبيب (٢/ ١١٣) في باب الأمور التي يتعدى بها الفعل القاصر ، الى أن ألف المفاعلة مـن هذه الأمور ، اذ قال : « الأمور التي يتعدى بها الفعل القاصر أحدهـا همزة أفعل نحـو أذهبتم طيباتكم ·· الآيـة : الثاني : ألـف المفاعلة تقول في جلس زيد ومشى وسـار جالست زيداً وماشيته وسايرته ·· » ويغلب هذا أيضاً فيما كان فعله الثلاثي متعدياً الى واحد ، اذ تتعدى المفاعلة فيه الى مفعولواحدأيضاً كضاربه وقاتله وشاركه وصارعه مـن ضربه وقتله وشركه وصرعه ·

وقـد تتعدى المفاعلة الى اثنين ويكـونأصلها الثلاثي متعدياً الى واحد كما يجري في المفاعلة التي يوقع فيها كل من الطرفين أصلالفعل على مفعول ، بدلا مـن أن يوقع كل منهما أصل الفعل على صاحبه · ومن ذلك(نازعتـه الأمر) · ففي نهـج البلاغـة : « وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي ـ ٢/١٠٣ » وفي الأساس (نازعه الكلام) ·

ومنه (ناقشته الحساب) · فمن عائشةرضي الله عنها : « من نوقش الحساب عُذّب» وهو من ناقشه الحساب ، وقد حكاه الزمخشري في الأساس ·

ومنه (قاسمه الأمر) . ففي الصحاح: « قاسمه المال وتقاسماه واقتسماه بينهما ».
ومنه (جاذبه الحديث) . ففي الصحاح : « وجاذبته الشيء اذا نازعته » . وفي الأساس « وجاذبه الثوب وتجاذبوه » .

ومنه (شاطره الربح) ، ففي الصحاح:« وشاطرت فلاناً مالي اذا ناصفته » .

ومنه (نافسه الأمر) . قال الشاعر :

وان قريشاً مهلك من أطاعهـا تنافس دنيا قد أحم انصرامهـا

فقول الشاعر (تنافس دنيا) على معنى (تنافس في دنيا) كما في اللسان . فصح بذلك (نافسه دنيا) كنافسه في دنيا .وجاء (تنافسوه)ففي اللسان : « وتنافسنا ذلك الأمر وتنافسنا فيه » . وفي الحديث :أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كماتنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم » .

على أن من هذه المفاعلة التي تتعدى الى اثنين ما أصله الثلاثي لازم . ومن ذلك (ساقطه الحديث) . ففي الافصاح :«ساقطه الحديث سقاطاً ومساقطة اذا سقط منه اليك ومنك اليه » .

الحذف والايصال في المفاعلة

قصد النحاة بالحذف والايصال حذف الجار وايصال العامل الى المجرور ليباشره ، دون ما حاجة الى صلة من حرف فاذا كان الفعل العامل يباشر مفعولا واحداً ويصل الى متعلقه بجار ثم حذف الجار ، أصبح يباشرمفعولا آخر الى مفعوله الأول . وقد مثلوا لذلك بقوله تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلا الأعراف/١٥٤» فقد قيل أن الأصل فيه (اختار موسى من قومه سبعين رجلا) ثم حذف الجار فانتصب (قومه) وأصبح الفعل متعدياً الى مفعولين ، بعد أن كان متعدياً الى واحد . وقالوا ان ذلك موقوف على السماع اذيقتصر فيه على المسموع ، عند الأكثرين .ومنه قولهم (استغفر الله ذنباً) والأصل فيه (من ذنب)، وقولهم (أمرتك الخيرَ) والأصل فيه (أمرتك بالخير). قال سيبويه في الكتاب: « وليس استغفر الله ذنباً ، وأمرتك الخير ،كثيراً في كلامهم جميعاً ، وانما يتكلم به بعض العرب . وليس كل ما كان متعدياً من الفعل بحرف جر جاز حذفه ، الا ما كان مسموعاً » . وقال ابن يعيش في شرح المفصل (٥١/٨) :« وهذا الحذف وان كان ليس بقياس ، ولكن لا بد من قبوله لأنك انما تنطق به وتحتذي في جميع ذلك ، أمثلتهم ، ولا تقيس عليه » . فهل في أفعال المفاعلة ما يتعدى الى مفعولين بحذف الجار ، وأصله التعدي الى مفعول واحد ؟

أقول مر بنا قولهم (ناقشه الحساب) فانك تقول فيه (ناقشه في الحساب) أيضاً ، ومما بمعنى . ففي الأساس : « وناقشه الحساب وفي الحساب » . فاذا كان الأصل ها هنا تعدية المفاعلة الى مفعول واحد ، وأنها عديت الى اثنين بحذف الجار . فقد صح بذلك أن قولك (ناقشه الحساب) من قبيل الحذف والايصال . ومما يدلك على أن الأصل فيه

التعدية الى واحد اكتفاء بعض المعاجم بالقول« وناقشته مناقشة استقصيت في حسابه » ، دون التصريح بتعديته الى المفعول الثاني ،كما فعل صاحب المصباح • وقد ابتدأ الصحاح بالقول « والمناقشة الاستقصاء في الحساب »ثم أورد الحديث « من نوقش الحساب عُذب»، فدل به على جواز تعديته الى اثنين • ولاننس أن الأصل في المفاعلة التي هي للمشاركة عامة أن تتعدى الى واحد •

كما مر بنا قولهم (نافسه الأمر) و (نافسه فيه) وأن الأصل نافسه فيه ، وهما بمعنى ، فثبت بهذا أنه على الحذف والايصال •

وثمة (نازعه الأمر)و(نازعه فيه)، وليسا هما بمعنى عند التحقيق • فنازعه الأمر على معنى مجاذبة الشيء ، واذا جاذب خالد صاحبه شيئاً فقد حاول كل جذب الشيء اليه ، وكذلك نازعه الأمر • ولا تقتضي المجاذبة هنا أو المنازعة مخاصمة أو عداوة بالضرورة • فانظر الى قول الزمخشري في الأساس «ونازعه الكلام •• والفرس ينازع فارسه العنان ، ونازعني بنانه : صافحني » فليس في أي صورة من هذه الصور مخاصمة أو معاداة • وفي النهاية : « ومنه الحديث : مالي أنازع القرآن أي أجاذب في قراءته كأنهم جهروا بالقراءة خلفه فشغلوه » أي أنه نازعهم قراءة القرآن حين جهروا به فجاذبوه القراءة •

فاذا عرفنا أن (نزع) في الأصل بمعنى (جذب) • قال الزمخشري في الأساس : «نزع من يده : جذبه وانتزعه •• ونزع الدلو من البئر •• ونازعه الثوب : جاذبه » • أقول اذا عرفنا أن (نزع) بمعنى جذب أصلا فقد اتضح بهذا أن (نازعه الكلام) بتعدية المفاعلة الى مفعولين ، هو الأصل كجاذبه اياه • فقد جاء في الأساس « ونازعه الكلام » كما جاء فيه « وتجاذبوا أطراف الكلام » • وفي الصحاح:« وجاذبته الشيء اذا نازعته اياه » فهما بمعنى • وكذلك تنازعوه كتجاذبوه وتبادلوه وتقاسموه • ففي الأساس: « وتنازعوا الكأس تعاطوها » • وجاء في كتاب كليلة ودمنة (في باب عرض الكتاب) : « ويكون مثل أصغر الاخوة الثلاثة الذين خلّف لهم أبوهم المال الكثير ، فتنازعوه بينهم ، فأما الكبيران فانهما أسرعا في ائتلافه وانفاقه في غير وجهه • وأما الصغير فانه عندما نظر الى ما صار اليه أخواه •• أقبل على نفسه يشاورها •• » • فقوله (تنازعوه بينهم) بمعنى تناولوه وتقاسموه •

أما (نازعه فيه) فان له شأن آخر • قال صاحب الأساس : « نازعته في كذا : خاصمته ، منازعة ونزاعاً » فنازعه فيه على معنى خاصمه فيه وقد يتجاوز هذا المعنى الى عاداه • وهذا المعنى مجاز من معنى المجاذبة الذي هو الأصل • فقولك (نازعه الأمر) جاء على الأصل ، فليس هو اذاً على الحذف والايصال • أما (نازعه فيه) فقد جاء على معنى (المخاصمة أو المعاداة)فحمل عليها حين ضُمّن معناها •

وقد عاب النقاد قول الكتاب(واني لأشاركك أحزانك) بحذف الجار وتعدية (المشاركة) الى مفعولين حملا على (المشاطرة) فهل هذا صحيح ؟أقول ان حذف الجار هنا من قبيل الحذف والايصال اذا صح ، لكنه ليس صحيحاً لأن حذف الجار سماع وليس قياساً ، كما تقدم ، فليس

حمل المشاركة على المشاطرة سائغاً أو مستقيماً، فاذا أخذت به كنت آخذاً بفاسد ٠ فقولك : (شاركت في كذا) يعني أنك شريك فيه ،تقول أنا شريكك فيما عراك من هذه النائبة وفيما نالك وفيما ضربك وفيما دهاك ، كماقال الهمذاني في ألفاظه الكتابية ٠ وتقول بمعناه : أشاركك فيما عراك ونابك وفيما ضربك ودهاك ٠ قال الشاعر :

اذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي　　يكون قليلا لم تشاركه في الفضل

وهو من أبيات ديوان الحماسة ٠

ولكن جاء في المقامة الشيرازية لأبي الفضل بديع الزمان الهمذاني : « قد أرضعتك ثدي حرّته ، وشاركتك عنان عصمته » ،فهل يعوّل على هذا في تعدية المشاركة الى مفعولين اذا صح أنه نص معتمد ؟ أقول لايعوّل على هذا ، وقد يكون الهمذاني قد دُفع اليه قصد المزاوجة بين (ثدي حرّته) و (عنان عصمته) واحكام السجع ، وقد أجاز الأئمة للشاعر والساجع ما لم يجيزوه للناثر٠قال ابن جني : « فان صح عندك أن العرب لم ينطق بقياسك أنت ، كنت على ما أجمعوا عليه البتة » وأردف : « وأعددت ماكان قياسك اداك اليه لشاعر مولد أو لساجع أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم ، بذلك وصّى أبو الحسن ـ الخصائص ـ ١/١٣٢ ».وقال الامام ابن بري في كتابه (اللباب في الرد على ابن الخشاب) منتصراً لأبي محمد القاسم الحريري صاحب المقامات : « اعلم أن للسجع ضرورة الشعر وأن له وزناً أيضاً هي ضرورة الوزن في الشعر ، في الزيادة والنقصان والابدال ٠٠ » ٠

ومرّ بنا (قاسمه الأمر) ٠ ففي اللسان: « وقاسمته المال أخذت منه قسمك وأخذ قسمه ٠ وقسيمك الذي يقاسمك أرضاً أو داراً أو مالا بينك وبينه ٠٠ وهذا قسيم هذا شطره » فقد أشار الى أن (القسيم) قد يكون بمعنى المقاسم وأوضحه فقال : « وقسيم فعيل بمعنى مقاسم مفاعل كالسمير والجليس والزميل » وقد يكون بمعنى المقسوم ، كما هو جلي في قوله « وهذا قسيم هذا شطره » فالفعيل هنا بمعنى المفعول ٠ وقد تضمن النص تعدّي (المقاسمة) الى مفعولين ، قال الشاعر :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا　　تعالي اقاسمك الهموم تعالي

وقالت امرأة من بني شيبان :

وقالوا ماجداً منكم فقلنا　　كذاك الرمح يكلف بالكريم
بعين أباغ قاسمنا المنايا　　فكان قسيمها خير القسيم

قال المرزوقي في شرح الحماسة : « كأنه كان للمنايا نصيب فيهم فقاسمتهم على نصيبها ، فوقع اليها خير النصيب ٠ والمعنى اختارت منهم الأمثل فالأمثل وغادرت الفلّ منهم والمسترذل ٠ وقوله : قسيم ، في معنى مقسوم ، وقد يكون القسيم المقاسم ٠٠ » وأردف : « وقاسم يقتضي مفعولا آخر كأنه قال قاسمنا المنايا الناس أو الأصحاب ٠وقوله قسيمها كقولك نصيبها ، وخير القسيم خير الأنصباء ـ ٨٨٢ » ٠

فقد أوضح المرزوقي أن قول الشاعر (قاسمنا المنايا) انما جاء على حذف المفعول الثاني، لأن الأصل (قاسمنا المنايا الناس أو الأصحاب) . أما قول المرزوقي (فقاسمتهم على نصيبها) أي قاسمت المنايا الناس على نصيبها، فلا ينقض ما قلناه من تعدي (المقاسمة) الى مفعولين . فعبر بقوله (قاسمتهم على نصيبها) أن المقاسمة قد جرت بين المنايا والناس على نصيبها، فقد ساق (المقاسمة) على أنهــا معاقدة في القسمة قد جرت على هذا النصيب فأغنى ذلك عن نصب المفعول . وقال الشاعر:

وقاسمنــي دهــري بني بشطــره فلما تقضّى شطره عاد في شطري

فقال المرزوقي: « ومعنى بشطره كان الدهر ادّعى أنه قسيمه في بنيه وأن له منهم الشطر وهو النصف، فقاسمه على ذلك، فلما استوفى حظه أقبل يأخذ من نصيبه الذي كان أقر له به وساهمه عليـه » . فقد رأيت أن المرزوقي قد عاد الى استعمال (قاسمه عليه) وأشار من جانب خفي الى العقد الذي تصوره بين الشاعر ودهره حول اقتسام البنين بقوله: « فلما استوفى حظه أقبل يأخذ من نصيبه الذي كان قد أقر له به، وساهمه عليه » . وتقول (قارع القوم على كذا وتقارعوا واقترعوا) اذا تقاسموا وتقاسموا واقتسموا بالقرعة، أي تعاقدوا فاتفقــوا على تعيــين أسهمهــم وأنصبائهم بالقرعة . وقد تكون المقاسمة وجهاً من وجوه المقارعة والمساهمة .

المفعول أيضاً، اذا كان في الكلام ما يغني عن ذكره . فانظر الى ما جاء في مقدمة كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن القاضي الجرجاني: « وما عقوق الوالد البر، وقطيعة الأخ المشفق، بأشنـع ذكراً، ولا أقبح وسماً من عقوق من ناسبك الى أكـرم آبائك، وشاركك في أفخر أنسابك، وقاسمك في أزين أوصافك، ومتّ اليك بما هو حظك من الترف وذريعتك الى الفخر .. » . فقوله (وقاسمـك في أزين أوصافك) انما يصح على حذف المفعول، كأن يكون تقدير الكلام (وقاسمك نصيبك أو حظك في أزين أوصافك).

أما (ساهمه) فالأصل في معناه (قارعه) . ففي اللسان « استهم الرجلان تقارعا، وساهم القوم فسهمهم سهماً قارعهم فقرعهم، واستهموا اقترعوا وتساهموا تقارعـوا » . واذا كان من معاني المقارعة المضاربة بالسلاح، فان منهـا المغالبة في القرعة، والقرعـة بالضم السهم والنصيب، والقاء القرعة عمل يتعين به سهم الانسان ونصيبه .

وتقول من ذلك أسهمت لنفسي في كذا اذا جعلت لها نصيباً فيه، كما في الأفعال لابن القوطية، فأسهمت في كذا اذا شاركت .

وهكذا انتهت (المساهمة) الى معنى المشاركة . قال زهير بن أبي سلمى:

أيا ثابت ساهمت في الحزم أهلــه فرأيــك محمــود وعهدك دائــم

وقد أنكر بعضهم ذلك ومنهم أحمد العوامري عضو المجمع القاهري ومحمد محمود البزم الشاعر اللغوي الدمشقي ، رحمهما الله. قال الأستاذ البزم في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : « ساهمت بمعنى قارعت ، وهي قريبة بمعناها مردودة بلزومها، وهي متعدية. عدد شهري تموز وآب سنة ٣٦٨/٩٤٤ » . أقول اذا قال الكتّاب (ساهمت في كذا) فليس هو على اللزوم ، وانما هو على حذف المفعول لظهور معناه . وانك لتقول (ساهمت في كذا) كما تقول شاركت في كذا ، والقاعدة أن المحذوف من اللفظ اذا دلت الدلالة عليه كان بمنزلة الملفوظ ، كما يقول ابن جني في الخصائص . ومعنى المشاركة في المساهمة قائم ، على كل حال ، كما رأيت ، وعليه النصوص وكلام الفصحاء . ففي النهاية لابن الأثير (مادة شدد) : « يريد أن القوي من الغزاة يساهم الضعيف فيما يكسبه من الغنيمة» وفيها أيضاً (مادة أسا) : « والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق » .

وجاء في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي : « وقد ساهمتك في جمع ما وقرته في أذني من ألوان الشكوى ، بالجزع والترجع والاستفظاع والتوجع » . وقال ابن منظور في مقدمة معجمه (لسان العرب) : « فاستخرت الله سبحانه وتعالى في جمع هذا الكتاب المبارك الذي لايساهم في سعة فضله ولايشارك » . وفي مقدمة كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن القاضي الجرجاني قوله : « وأهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبَله وقعد به عن الكمال اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته .. » .

تساهم ثوباهــا ففي الدرع رأدة وفي المرط لفّاوان ردفهمـا عبـل

قال المرزوقي في شرح الحماسة (ص /١٣١٧) : « تساهم تقاسم ، ولذلك قيل سُهمة فلان بالضمة من هذا كذا ، أي قسمته ونصيبه.. وانقسم جسم هذه المرأة بين درعها وازارها ، ففي درعها بدن ناعم وخصر دقيق، وفي مرطها فخذان غليظان عليهما ردف ضخم . والرادة الناعمة واللفّاء الكثيرة اللحم » .

أراد الشاعر أن ثوبي المرأة قد تساهما أو تقاسما جسمها . فكان نصيب الدرع منهما بدناً ناعماً وخصراً دقيقاً ، وكان نصيب المرط منهما ، وهو الكساء من صوف أو خزّ ، فخذين مكتنزين ردفهما ضخم سمين . وقد أورد الزمخشري في الأساس هذا البيت فقال: « وتساهموا الشيء تقاسموه » .

وقال ابن جني في الخصائص (٦٨/١) : « وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء و ... التأمل له » . وجاء في اللسان (مادة عدد) : « تساهموه بينهم» .

على أن في قولك (ساهمه في كذا) اذا شاركه و (تساهماه) اذا تقاسماه نظراً ، ذلك أنه اذا كان (فاعلَ) متعدياً الى مفعول واحد نحو (ضاربه) ، جاء (تفاعل) لازماً

بلا مفعول صريح نحو (تضاربا) . واذاكان متعدياً الى مفعولين نحو (جاذبته الثوب) ، جاء (تفاعل) بمفعول واحد ، نحو (تجاذبا الثوبَ) . فكيف أتى (ساهمته في كذا) متعدياً الى مفعول واحد ، وجاء (تساهماه) متعدياً الى مفعول واحد أيضاً ؟ والأصل أن يأتي (تساهماه) بمفعول واحد من (ساهمه الشيء) بمفعولين ، كما جاء تقاسماه من قاسمه الشيء ، ولم يسمع (ساهمه الشيء) ، وانما هو (ساهمه في الشيء) ! وسبب ذلك وعلته عندي أن (المساهمة) ليست أصلاً في معنى المشاركة وانما تدرج معناها اليها ، وكذلك (التساهم) ليس أصلاً في معنى التقاسم وانما تدرّج معناه اليه . ولو كان (التساهم) بمعناه هذا وهو التقاسم أصلاً لكانت (المساهمة) بمعنى المقاسمة ، وليست كذلك ، وانما هي المشاركة ، فتأمّل .

ولكن هل تقول (ساهمته في كذا) بمعنى شاركته فيه (فتساهمنا فيه) اذا اشتركنا فيه أو تشاركنا ؟ .

أقول جاء في (كتاب فضل هاشم على عبد شمس) للجاحظ ، في حديثه عن حلف الفضول : « فكان هذا الحلف في بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم بن مرة . تعاقدوا في دار عبدالله بن جُدعان في شهر حرام قياماً ، يتماسحون بأكفهم صعداً ليكونُنّ مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، ما بلّ بحرٌ صوفه . وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال » . فعدّى التساهم كما يتعدّى التآسي . ففي القاموس « وآساه بماله مواساة أناله منه » أي أشركه فيه . فالتآسي في المعاش الاشتراك فيه ، وكذلك التساهم بالمال . فانظر الى ما جاء في النهاية لابن الأثير : « والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق » . واذا كانت المواساة مشاركة ومساهمة في المعاش ، فالتآسي والتساهم اشتراك فيه .

وقد حضر الرسول ﷺ هذا الحلف وقال فيه : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أُحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت اليه في الاسلام لأجبت » .

★ ★ ★

وبعد فهذا ما اتفق لنا من البحث في باب المفاعلة من أفعال المشاركة ، ان من حيث بنيته اللفظية أم من حيث استعماله في وجوه التعبير المختلفة ، مما يلتبس على الكتاب موضعه . ولم نخلد في ذلك الى سانح خاطر أو نزوة فكر بل عمدنا الى النظر والمقابلة والموازنة التماساً للصواب وتحرير المراد ، وحرصاً على ألا يغمض منه شيء على القراء أو يستتر عنهم ، وتوطئة لانقياد ما تصعب منه وامكان ما امتنع .

ونرجو ألا يكون قد قصر سعينا عن تحري الحق في هذا السبيل ، وان عزّ مطلبه واشتد ادراكه . وحسبنا أننا دللنا على منهاج البحث وأرينا موضوعه ليعرف وجه مطلبه والوقوع عليه فتخف الكلفة في الكشف عن غامضه ، ومن الله العون .

مواطن الخلل والاضطراب في كتاب الأغاني

محمد خير شيخ موسى

يعد كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (٢٨٤ ـ بعد ٣٦٢ هـ) من أهم ما وصل الينا من كتب التراث العربي ، لما اشتملت عليه أجزاؤه العديدة من ألوان الثقافات ، وضروب المعارف والفنون ، فكان بذلك « ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ،وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ، ويقف عندها »(١) كما عبّر ابن خلدون ٠

وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعةجداً ، منذ أن ظهر للناس أواسط القرن الرابع للهجرة ، فتسابق العلماء والأدباء الى قراءتهعلى مؤلفه ، ووصلت شهرته الى الأندلس سريعاً ، « فبعث الحكم المستنصر الى مؤلفه« ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة ٠٠٠ فبعث اليه منه نسخة حسنة منقحة»(٢) كما بعث بنسخة أخرى الى سيف الدولة الحمداني أمير حلب « فانفذ اليه ألف دينار »(٣) ٠

واعتمد عليه معظم المؤلفين بعده ، فكانأهم مصدر من مصادر تاليفهم في الأدب والنقد والتاريخ والغناء والموسيقى والعمران والحضارة العربية بكافة جوانبها وعصورها منذ الجاهلية وحتى عصر مؤلفه ، وما يزال المؤلفون والباحثون في عصرنا يعولون عليه في كثير مما يكتبون حول هذه الجوانب من دراسات وأبحاث ٠

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات مختلفةومتباينة ، لعل أهمها وأوثقها طبعة دار الكتب المصرية التي صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٢٧ م ، وتم منها ستة عشر جزءاً قبل تصفية القسم الأدبي بهذه الدار سنة ١٩٦٣ ، ثم أعيدتصوير هذه الأجزاء في تلك السنة نفسها ،

والحقت بآخرها « أخبار حارثة بن بدر » بعدالعثور عليها ، وهي تابعة للجزء الثامن في أصوله الخطية ·

ومع بداية عام ١٩٧٠ ، كلّفت الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، بعد أن حلّت محل القسم الأدبي بدار الكتب ، عدداً من الأساتذة بتحقيق بقية أجزائه ، فتم ذلك تباعاً بصدور الجزء الرابع والعشرين سنة ١٩٧٤ ، مع وعدلم ينجز بعد ، باصدار فهارس كاملة لهذه الطبعة التي تعرف بطبعة دار الكتب ·

وعلى الرغم مما تتسم به هذه الطبعة من خصائص وميزات ، لاعتمادها على عدد من الأصول والمخطوطات ، وافادتها من أخطاء الطبعات السابقة ، ومن جهود بعض العلماء في تصحيحها وتوثيقها ، واستئناسها ببعض مختصرات الكتاب القديمة وتجريداته ، الا أن الكتاب مع ذلك ما يزال بحاجة الى تضافر جهود كثيرة ومتنوعة ، تعمل على دراسته دراسة دقيقة ومتأنية ، وتنظر في مواطن الخلل والنقص والسقط والاضطراب فيه ، وتعيد تحقيقه تحقيقاً علمياً سليماً ، بالرجوع الى مخطوطاته الكثيرة ، ومختصراته العديدة الموزعة في مكتبات العالم المختلفة ، حتى يعود الى أصله الصحيح والسليم ·

واذا كنا لا نشك أن كتاب الأغاني الذي وصل الينا من طرق مختلفة ، هو الكتاب الذي ألفه أبو الفرج نفسه ، فان ذلك لا ينفي عنه بعض ما هو ظاهر فيه من مواطن النقص ، أو مواضع الخلل التي يمكن أن تكون قد أصابته مع توالي العصور ، وتعدد النسخ والتسطير ، مما سنحاول الكشف عنه ، معتمدين على ما بين أيدينا من طبعاته ، وعلى رأسها طبعة دار

في تصحيح بعض تلك المواضع ، وينير السبيل أمام الدارس أو الباحث أثناء رجوعه الى هذا الكتاب ، أو اعتماده عليه ·

ولعل أهم ما ينبغي الوقوف عنده في ذلك ، مسألة ما يمكن أن يكون قد سقط من هذا الكتاب من أخبار ، وقد أشار ياقوت الحموي وغيره الى موضعين من مواضع هذا السقط فقال : « وجمعت تراجمه ، فوجدته يعد بشيء ولا يفي به ، في غير موضع منه ، كقوله في أخبار أبي العتاهية : وقد طالت أخباره ها هنا ، وسنذكره مع خبر عتبة في موضع آخر ، ولم يفعل ، وقال في موضع آخر : أخبار أبي نواس مع جنان خاصة ، اذ كانت سائر أخباره قد تقدمت ، ولم يتقدم شيء من أشباه لذلك وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء ، أو يكون النسيان قد غلب عليه(٤) » ·

ولم يكن ياقوت دقيقاً في نقل ما ورد في الأغاني نقلا أميناً وحرفياً ، ويبدو أنه قد اعتمد في ذلك على ذاكرته ، فنُسَخ الأغاني التي بين أيدينا تقول : « ذكر نسب أبي العتاهية وأخباره ، سوى ما كان منها مع عتبة ، فانه قد أفرد ، لكثرة الصنعة في تشبيبه بها ، وانها [أخباره] قد اتسعت جداً فلم يصلح ذكرها هنا لئلا تنقطع المائة الصوت المختارة ، وهي تذكر في موضع آخر انشاء الله »(٥) ، ثم قال في آخر أخباره : « ولم أذكر ها هنا مع أخبار أبي العتاهية ، أخباره مع عتبة ، وهي من أعظم أخباره ، وفيها أغان كثيرة ، وقد طالت أخباره ها هنا ، فأفردتها »(٦) ، ولم يقل : وسنذكره مع خبر عتبة في

موضع آخر ، كما ذكر ياقوت ، كما لم يقل أبو الفرج ان أخبار أبي نواس قد تقدمت ، كما قال ياقوت ، وانما ورد في صدرها قول الأصبهاني : « أخبار أبي نواس وجنان خاصة ، اذ كانت سائر أخباره قد أفردت خاصة »(٧) • ولعل مما لا يخفى ما لهذه الفروق من أثر في تفسير أقوال أبي الفرج ، أو الوقوف على حقيقتها •

ولسنا نستبعد أن يكون أبو الفرج قد أفرد هذه الأخبار بكتاب آخر من كتبه ، أو ضمّنها بعض هذه الكتب التي تليق بها ، ككتاب الأخبار والنوادر(٨) ، أو كتاب مجموع الأخبار والآثار(٩) ، أو مجرد الأغاني(١٠) أو غيرها من كتبه التي لم تصل الينا(١١) اذ وجدناه يستخدم كلمة : « ها هنا » بمعنى :كتاب الأغاني وكلمة : « أفردتها » بمعنى : أفردتها بكتاب آخر ، ومن ذلك قوله في الأغاني : « فقال القتّال عدة قصائد ، ولم أذكرها **ها هنا** لطولها ••• وانما نذكر **ها هنا** لمأ ،وسائره مذكور في : جمهرة أنساب العرب »(١٢) ، وقوله في مقدمة الأغاني :« ولم يستوعب كل ما غني به في هذا الكتاب ، ولا أتى بجميعه اذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرداً من الأخبار ، ومحتوياً على جميع الغناء القديم والمتأخر »(١٣) ، وقوله في أخبار علي بن أديم ومحبوبته : « وله معها حديث طويل في كتاب **مفرد** مشهور »(١٤) •

فليس من المستبعد اذن أن تكون أخبار أبي العتاهية مع عتبة « قد **أفردت** خاصة ، بعد أن طالت أخباره **ها هنا** » أي في الأغاني ، لكثرة الصنعة في أشعاره فيها ، أو أنه قد ضمّنها بعض كتبه المقصورة على الأغاني أو الأشعار المغناة ، كمجرد **الأغاني** الذي مر ذكره قبل قليل ، وأشار الى امكانية تضمينه مثل هذه الأشعار أو الأغاني ، وكذلك الشأن بالنسبة **لأخبار** أبي نواس التي ذكر أنها « أفردت خاصة » كما مر ، دون أن يكون لهذه الأخبار ، أو لسابقتها أثر في الأغاني ، اذ هي غير واردة فيه أصلا •

ومما يقوي ذلك ويرجّحه ، أننا لم نقع في الأغاني كله على اشارة الى هذه الأخبار ، أو احالة عليها ، مع ما فيه من اشارات أو احالات كثيرة ، كقوله في أخبار علي بن أمية: « وقد تقدم خبر أخيه محمد في مواضع من هذا الكتاب »(١٥) ، وقوله : « وقد تقدم خبر أبيه»(١٦)، وقوله :«وقد تقدم من خبر لبيد ما فيه الكفاية »(١٧) ، وقوله : « وقد تقدم هذا النسب في أخبار عويف القوافي »(١٨) ، وقوله في بعض أخبار الفرزدق : « وأخباره تأتي بعد هذا في موضع آخر »(١٩) ، وقوله في أخبار مروان بن أبي حفصة : « وقد تقدم خبره ونسبه »(٢٠) وذلك كله مما نقع عليه في أجزاء سابقة أو لاحقة من الأغاني ، بينما لم نجد فيما ذكر من أخبار العتاهي أو النواسي على طولها ، اشارة الى شيء قد تقدّم أو سيأتي ذكره من أخبارهما أو أشعارهما ، وقد وجدناه يشير ، ضمن أخبار بعض الشعراء ، الى بعض أخبار النواسي ، ويعد بذكرها كقوله في أخبار حسين بن الضحاك : « وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمرة ، وأخبارهما في هذا المعنى تذكر في مواضعها »(٢١) ، ثم يذكر هذه الأخبار ، كما يقول في أخبار الوليد بن يزيد :« وللوليد في ذكر الخمرة أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء ••• وأبو نواس خاصة •• ولولا كراهة التطويل لذكرتها ها هنا »(٢٢) ولم يكن في ذلك كله يحيل على أخبار أبي نواس التي لا وجود لها في الأغاني •

على أن المسألة لا تقف عند هذه الحدود ، اذ تبقى هنالك بعض الملاحظات الهامة حولها ، ومنها أننا وجدنا يا قوت الحموي نفسه يقول في أخبار الدهكي : « وقد وقعت الينا اجازة متصلة اليه [الى الدهكي] برواية كتاب الأغاني عن أبي الفرج ، كما وقعت الينا اجازة برواية هذا الكتاب أحسن من هذه »(٢٣) ، والدهكي من تلامذة أبي الفرج ، وقد قرأ عليه الأغاني كاملا ، وأجازه بروايته قراءة عليه(٢٤) ، وذلك يعني أن بين يدي ياقوت نسختين من الأغاني ، مرويتين رواية متصلة وموثقة عن أبي الفرج ، اضافة الى النسخ الأخرى التي أشار الى أنه وقف عليها من هذا الكتاب(٢٥) ، دون أن يكون فيها جميعاً شيء من أخبار العتاهي أو النواسي التي يبحث عنها .

كما صرح ياقوت في معجمه باطلاعه على أقدم مختصر للأغاني ، وهو مختصر الوزير المغربي (ـ ٤١٨ هـ) الذي يعود الى عصر أبي الفرج تقريباً ، ونقل بعض النصوص الواردة في مقدمة هذا المختصر(٢٦) ، ويبدو أنه لم يتضمن شيئاً من هذه الأخبار أيضاً ، اذ لو كان الأمر كذلك لأشار اليه ياقوت ، أو نبه عليه .

وكذلك كان شأن معاصره ابن واصل الحموي (ـ ٦٩٧ هـ) اذ قام بتجريد الأغاني(٢٧) ، واعتمد في ذلك على نسخة موثقة أو أكثر منه ، ووقف على مختصر الوزير المغربي ، ونقل شيئاً من مقدمته أيضاً(٢٨) ، دون أن يكون في تجريده شيء من تلك الأخبار المذكورة ، مما يدل على أنها غير واردة في تلك الأصول كلها .

كما قام ابن منظور المصري (ـ ٧١١ هـ) باختصار الأغاني(٢٩) ، معتمداً على عدة نسخ منه ، فلم يجد فيها تلك الأخبار ، فراح يبحث عنها في جميع النسخ التي وقف عليها في مصر فلم يجدها فيها ، كما لم يجدها في مختصر قديم للأغاني للزبيري المصري(٣٠) (ـ ٥٦٣ هـ) الذي صرح باطلاعه عليه ، ونقل بعض ما ورد في مقدمته من نصوص وأخبار(٣١) ، ولذلك فقد قام بصنع ترجمة مطولة لأبي نواس ، ضمَّنها مختصره ، وقال في صدرها : « هذه الترجمة ترجم عليها أبو الفرج بما صورته : أخبار أبي نواس وجنان خاصة ، اذ كانت سائر أخباره قد **ذكرت** ، ولم أجد لأبي نواس ترجمة **مفردة** في نسخ الأغاني التي وقفت عليها ، وما أدري هل أغفل أبو الفرج ذكره في كتابه ، أم سقطت ترجمته من كتابه »(٣٢) ، ومن الملاحظ أن ابن منظور قد وقع بما وقع به ياقوت من قبل ، فابدل كلمة : أفردت بذكرت ، وقوله : « ولم أجد له ترجمة **مفردة** » يدل على ذلك .

وكذلك فعل الأديب المغربي عبد القادر السلوي (من رجال القرن الثاني عشر) اذ أضاف الى تجريده(٣٣) ترجمة لأبي نواس ، وقال في خاتمتها : « وليست من تراجم الكتاب الأصلية »(٣٤) ثم أتى بعدها على « ذكر أخباره مع جنان خاصة » كما وردت في الأغاني.

وفي ذلك كله ما يؤكد أن أصول هذا الكتاب الخطية التي اطلع عليها هؤلاء المؤلفون على اختلاف عصورهم وأزمانهم وأمصارهم ، لا تتضمن شيئاً من تلك الأخبار ، كما أن ما وصل الينا من هذه الأصول الخطية الكثيرة لا تتضمن شيئاً منها ، مما يدعونا الى حسم

القول في هـذه المسألة ، والحكم الجازم بأن هذه الأخبار لم تسقط من الأغاني ، اذ هي غير واردة فيه أصلا(٣٥) ٠

واذا ما تجاوزنا أخبار هذين الشاعرين ،فاننا نقع في الأغاني على مواضع خلل كثيرة ، ومظان سقط عـديدة ، لم يشر اليها أحد من قبل ، ومن ذلك قوله في الجـزء السادس بعـد صوت : « الشعر لوضاح اليمن ، والغناء لصباح الخياط ، وفي أبيات من هذه القصيدة ألحان عدة ٠٠٠ فأخرت ذكرها ، الى أن تنقضي أخبار وضاح ، ثم أذكرها بعد ذلك ان شاءالله»(٣٦)، ثم أتى على سرد أخبار وضـاح ، ولم يذكـر بعدها تلك الأبيات ، كما لم نجد لأخبار صباح أثراً في الأغاني ، مما يدل على موضـع سقط أو نقص ٠

ونقع في الجزء الثامن على قوله بعد صوت : « الشعر لأبي فرعة الكناني ، والغنـاء لجرادتي عبدالله بن جدعان »(٣٧) ، ثم أتى على سرد أخبـار الجرادتين ، دون أخبار الشـاعر التي لم نجد لها أثراً في الأغاني كله ٠

وفي هذا الجزء نفسه نقع على قوله بعـد صوت : « الشعر للعباس بن الأحنف ، والغناء لسليمان الفزاري » (٣٨) ، ثم سرد أخبار العباس ، ولم يذكر شيئاً من أخبار سليمان ٠

وفي الجزء التاسع وجدناه يذكر الأرمال الثلاثة المختارة(٣٩) ، ويسرد أخبار شاعرين من شعرائها دون الثالث الذي لم نقف له على ذكر في الكتاب كله ٠

ومما يلحق بذلك قوله في الدفـاع عـن ابن المعتـز : « عدلوا عـن ثلبـه بالآداب الى التشنيع عليه بأمـر الديـن ، وهجاء آل أبي طالب ، وهم أول من فعل ذلك ٠٠٠ وأنا أذكر ذلك بعقب أخبـاره ، مصرحـاً به على شـرح ان شاء الله(٤٠) الا أننا لم نعثر على شيء مـن ذلـك بعقب أخبـاره ، أو في أي موضع آخـر مـن الأغـاني ٠

واذا كنا لا نجرؤ على الحـكم بسقوط هذه الأخبار من الكتاب ، فان هنـالك بعض الملاحظات التي تشير الى شيء من ذلك ، منها أننا وجدناه يؤكد أنـه سيذكـر بعض تلـك الأخبار أو الأشعار في موضع محدد ، وأن مـن عادته أن يأتي على سرد أخبـار الشـاعر ثم أخبار المغني بعد ذكر الصوت مباشرة ، ولم يكن لبعض هذه الأخبار ذكر في الأغـاني ، في مواضعها أو في غير مواضعهـا ، كمـا لم تكـن هنالك اشارة الى عدم الـمام أبي الفرج بشيء منها على عادته في مثل هذه الأحوال والمقامات(٤١) ، وفي ذلك كله ما يدعـو الى الاعتقـاد بسقوط هذه الأخبار أو الأشعار ٠

على أننا ــ مع ذلك ــ لم نجد لهذه الأخبار ذكراً في مختصرات الأغاني وتجريداتـه التي وصلت الينا ، وليس لها ذكر في مخطوطاته التي اعتمد عليهـا محققوه على اختلاف طبعاته ، مما يرجح أنها غـير واردة في أصوله الصحيحة والموثقة ، وربما كان أبو الفرج قد أرجأ ذكرها الى حين ، ثم أغفل ذلك ، اذا لم يجد بين يديه مـادة حولهـا ، أو أن النسيان غلب عليه ٠

ومما وقع لبعض الأشعار المروية في هذا الكتاب من سقط أو نقص، أبيات السيد الحميري الميمية التي سقط صدر البيتين الأولين منها، ولم يبق منهما سوى العجز(٤٢).

وربما أدى سقوط بعض الكلمات، أو تحريفها، الى الاعتقاد بسقوط بعض أخبار الكتاب، أو الظن باختلال ترتيبه وتقسيمه، ومن ذلك ما نجده في أخبار مروان بن أبي حفصة، وقد خصَّها بموضعين متباعدين من كتابه، نقرأ في أولهما: « وخبره في ذلك يذكر في هذا الموضع من الكتاب »(٤٣)، دون أن نقع على هذا الخبر في هذا الموضع، وانما في غير هذا الموضع، وضمن أخباره الثانية في غير هذا الجزء أيضاً(٤٤)، وفي ذلك ما يدل على سقوط كلمة : غير من الجملة.

ومما يشبه ذلك ما أصاب بعض أسانيده من سقط، أو نقص أو تحريف أو تصحيف في مواضع كثيرة منها قوله: « وذكر اسماعيل بن الساحر قال: أخبرنا عبد العزيز الجوهري »(٤٥)، وذلك يعني أن اسماعيل الساحر يروي عن الجوهري، وبينهما زمن بعيد، فالأول راوية السيد الحميري(٤٦)، والثاني من شيوخ أبي الفرج(٤٧)!! وفي ذلك ما يدل على أن أصل السند هو: وذكر اسماعيل بن الساحر فيما أخبرنا عبد العزيز الجوهري.

ومن ذلك ما نجده في هذا السند أيضاً: « حدثنا يحيى بن محمد بن ادريس عن أبيه »(٤٨)، بينما نجد السند المذكور قبله على هذه الصورة: « حدثنا يحيى بن علي عن محمد بن ادريس عن أبيه »(٤٩) ويحيى من خاصة شيوخ أبي الفرج(٥٠)، ولم تكن لأبي الفرج رواية مذكورة عن محمد بن ادريس أو يحيى بن محمد بن ادريس كما هو مذكور في السند، مما يدل على السقط، ويؤكد أن يحيى (بن علي) هو الذي يروي عن محمد ابن ادريس.

ومما نجده في هذه الأسانيد من أخطاء قوله: « أخبرني الحسن بن علي العنزي »(٥١)، وهو: الحسن بن عليل، روى عنه أبو الفرج فأكثر(٥٢)، كما روى عن الحسن بن علي الخفاف أيضاً(٥٣)، ولعل الخطأ وقع لذلك.

وفي هذا الكتاب من أخطاء الوراقين والناسخين أشياء كثيرة، لم يقف عليها محققوه، ومن ذلك قولهم: « وهذا البيت في الغناء، وليس في القصيدة، فأضفناه كما يضيف المغنون اذا اختلف الروي والقافية »(٥٤)، وهي: اتفق بدلا من اختلف، فصنيع المغنين هذا انما يكون في حال اتفاق الشعرين في الروي والقافية والوزن أيضاً، كما ذكر أبو الفرج نفسه مرات عديدة(٥٥).

ومن جملة هذه الأخطاء، ما نقع عليه في أخبار ابن هرمة، اذ بعث الى حسن بن الحسن ابن علي بأبيات، يلتمس منه زقاً من نبيذ، وقد تكرر ذكر هذا الخبر في موضعين مختلفين من الأغاني، وأشار أبو الفرج الى ذلك بقوله: « وقد ذكرته في أخبار ابن هرمة »(٥٦)، ومع ذلك فقد تغير اسم حسن الى ابراهيم بينهما.

ولم تخل أصول هذا الكتاب من عبث الوراقين ، مما لا تزال آثاره ظاهرة فيه ، ومن ذلك أخبار بيهس الجرمي ، اذ وردت في جزئين متباعدين من أجزائه(٥٧) ، ولم يرد منها في الجزء الثاني عشر سوى ذكر اسمه ونسبه وخبر مبتور من أخباره ، بينما وردت في الجزء الثاني والعشرين كاملة ، وضمنها اسمه ونسبه وذلك الخبر المبتور في الجزء السابق ، بيد أنه ورد كاملا غير منقوص هنا ، ومن المرجح لدينا أن موضع هذه الأخبار هو موضعها الذي وردت فيه في هذا الجزء الأخير ، اذ كانت لها مناسبة تدعو الى سردها فيه ، بعد أخبار شعراء يهود مباشرة ، اذ نفذ اليها من خلال صوت يغني فيه من شعره ، وقد أُخذ من لحن ابن صاحب الوضوء ، في بعض أشعار يهود فكان في ذلك مناسبة لذكر أخبار بيهس في هذا الموضع ، دون أن تكون هنالك مناسبة لها في الجزء الثاني عشر ، ولا مبرر لوجودها فيه ، مع أنها ناقصة مبتورة هنا ، وكاملة صحيحة هناك ·

ومما يشبه ذلك ما وقع لأخبار بعض الصعاليك من الشعراء ، اذ نقرأ في صدر أخبار أولهم : « وهو أحد صعاليك العرب العدائين ، وهم : السليك والشنفرى وتأبط شراً ، وأخبارهم تذكر على تواليها هنا ان شاء الله في أشعار لهم يغنى فيها ، لتتصل أحاديثهم »(٥٨) دون أن ترد أخبارهم متوالية(٥٩) ، اذ فصلت بينها وبين أخبار السليك أخبار عدد من الشعراء والمغنين ·

أما « أخبار عمرو بن سعيد بن زيد » (٦٠) فلا نقع منها الا على أربعة أسطر ، أتى فيها على ذكر اسمه ونسبه ، ثم أردف ذلك حديثاً طويلاً عن معبد المغني وأخباره ، مما يوهم بسقوط أخبار هذا الشاعر ، بعد أن صدّر لها بذلك العنوان الطويل ، وان كنا نعتقد أنه غير وارد في أصل الكتاب ، وانما هو من صنع بعض الوراقين ، دون أن يكون له من مسوّغ أو مبرر ، اذ كان الحديث يدور في الأصل حول معبد وأصواته المعروفة بالقابها(٦١) ، ومن جملتها صوت من شعر عمرو بن زيد ، فورد ذكره لذلك عارضاً ، فاكتفى أبو الفرج بالتعريف به تعريفاً سريعاً ، ثم أكمل حديثه عن معبد وأصواته ، ولم يقصد الى سرد أخبار عمرو أو غيره في هذا الموضع المخصص بذلك الحديث ·

ولم تتجاوز أخبار المتلمس صفحة واحدة ، أتى فيها على ذكر اسمه ونسبه ، وخبر واحد يتصل بهذا النسب من أخباره ، نقرأ بعده قول الناسخ : « هنا انقطع ما ذكره الأصبهاني رحمه الله »(٦٢) مما أوهم بسقوط بقية أخبار هذا الشاعر ، ومما أيد ذلك أنها وردت في آخر الكتاب ، بيد أن في الأمر لبساً لا بد من ايضاحه :

فهذه الأخبار ليست من أخبار هذا الجزء الأخير في أصل تجزئة المؤلف(٦٣) ، وقد سقطت هذه الأسطر القليلة منها من طبعة بولاق ، وهي غير واردة أصلا في مختار ابن منظور ، وما هو موجود منها في طبعة بيروت للمختار(٦٤) منقول عن طبعة دار الثقافة للأغاني(٦٥) ، وهي بدورها نقلته عن الجزء الحادي والعشرين الذي جمعه برونوف ، وأكمل به طبعة بولاق للأغاني ، وقد نقل أخبار المتلمس من أحد الأصول الخطية للأغاني ، اذ قام ناسخ هذا الأصل باضافتها اليه ، دون أن تكون من أصل أبي الفرج ، وفي ذلك كله ما يدل على أن

الأصبهاني قد اكتفى من أخبار المتلمس بهذا القدر البسيط ، وكثيراً ما وجدناه يفعل ذلك في أخبار بعض الشعراء المقلين بخاصة ، دون أن يعني ذلك سقوط شيء من هذه الأخبار(٦٦) .

ومن مواطن الخلل البيّنة ، ومواطن الاضطراب في هذا الكتاب ، ما نجده في أخبار شعراء يهود ، وقد وردت في موضعين متباعدين منه ، وكانت فيهما حافلة بأوهام عديدة ، ربما كان أبو الفرج بريئاً من معظمها .

وتبدأ أخبار هؤلاء القوم في الجزء الثالث بصوت من شعر أحدهم قال أبو الفرج بعده : « الشعر لغريض اليهودي ، وهو السموأل بن عادياء ، وقيل لابنه سعيّة »(٦٧) ، ثم قال : « وغريض هذا من ولد الكاهن بن هرون بن عمران »(٦٨) .

وانتقل الى ذكر سعيّة فقال : « وأما سعيّة فقد كان ذكر خبر جدّه السموأل : غريض بن عادياء في موضع غير هذا »(٦٩) ، وقال بعد ذلك : « وأسلم سعيّة ، وعمر طويلاً ، ويقال انه مات في آخر خلافة معاوية »(٧٠) ، وروى بعض أخباره مع معاوية ، ومنها خبره وقد طلب منه أن ينشده أبيات جده السموأل في رثاء نفسه ، وكان أبو الفرج قد روى هذه الأبيات نفسها منسوبة الى سعية في رثاء نفسه(٧١) .

وعلى ذلك نجد أن : السموأل (أو غريض) بن عادياء ، والسموأل بن غريض بن عادياء . ثم سعية بن غريض (أي السموأل) بن عادياء ، وسعية بن غريض بن السموأل ، فيكون السموأل : هو غريض مرة ، وابن غريض أخرى . كما يكون سعية : ابن السموأل مرة ، وحفيده مرة أخرى .

واذا ما انتقلنا الى الجزء الثاني والعشرين ، فاننا نقع فيه على قسم خاص بشعراء اليهود ، صدّر له بقوله : « هذه جملة جمعت فيها أغاني من أشعار اليهود ، اذ كانت نسبتهم وأخبارهم مختلطة »(٧٢) ، ثم أتى على سرد أخبار عدد منهم ، وذكر صوتاً من شعر أحدهم وقال : « الشعر للسموأل بن عادياء »(٧٣) ثم قال : « وهو السموأل بن غريض بن عادياء بن حباء »(٧٤) معتمداً في ذلك على ابن سلام ، وقال : ان غيره لم يذكر غريضاً .

أما سعيّة فقد بدأ أخباره في هذا الجزء بقوله : « هو سعية بن غريض بن عادياء ، أخو السموأل ، شاعر ومن شعره ... »(٧٥) وروى الأبيات التي كان قد رواها له من قبل ، حين كان ابن السموأل تارة ، وحفيده أخرى كما مرّ قبل قليل .

وهكذا تضطرب أقوال أبي الفرج في هذين الشاعرين اضطراباً واسعاً شمل أسماءهما وأنسابهما وبعض أشعارهما وأخبارهما ، دون أن نجد لذلك تفسيراً واضحاً ودقيقاً ، وان كنا نعتقد أن له دوراً واضحاً في هذا الاضطراب أو الاختلاف ، وقد نبّه عليه في صدر أخبار يهود ، بيد أننا نعلم أن من عادته أن يعمد الى توثيق تلك الأقوال أو الأخبار وتصحيحها(٧٦) ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن جزءاً من هذا الاضطراب يعود الى الوراقين أو الناسخين أيضاً .

ولهم بعد أخطاء عديدة ، وتصحيفات كثيرة ، وتحريفات متنوعة لا يتسع المقام لذكرها وتتبعها(٧٧) ، وقد أتينا على رصد أهم ما وقع في هذا الكتاب من مواطن النقص أو الخلل والاضطراب(٧٨)، وليس فيها جميعاً ما يخل بوحدته في النهاية ، وقد كان لطول مادته ، وكثرة أجزائه ، وتوالي نسخه ، أثر كبير في ذلك ، ومما لا شك فيه أن طبعة علمية جديدة له ، تعتمد على مخطوطاته الموزعة في مكتبات العالم وخزائنه ، وتستأنس بتجريداته ومختصراته القديمة ، يمكن أن تستبعد معظم مواطن الخلل والاضطراب والنقص فيه(٧٩) ·

* * *

□ الحواشي :

١ ـ المقدمة : ص ١٠٧٠ ·
٢ ـ الحلة السيراء : ١/٣٠١ ـ ٣٠٢ ·
٣ ـ مختار الأغاني لابن منظور : ١/١ ·
٤ ـ معجم الأدباء : ١٣/٩٨ ـ ٩٩ ·
٥ ـ الأغاني ٤/١ ·
٦ ـ الأغاني ٤/١١٢ ·
٧ ـ الأغاني ٢٠/٦١ وانظر ٢٤/٢٠٣ ·
٨ ـ ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٧٣ وياقوت في معجم الأدباء ١٣/٩٩ ·
٩ ـ انظر المصدرين السابقين ·
١٠ـ انظر الأغاني ١/١ والفهرست ١٧٣ وتاريخ بغداد ١١/٣٩٨ ·
١١ـ راجع في مؤلفاته وآثاره بحثنا في التراث العربي ع ٧ س ١٩٨٢ ص ١٧٣ ـ ١٩٤ ·
١٢ـ الأغاني ٢٢/٣ ·
١٣ـ الأغاني ١/١ ·
١٤ـ الأغاني ١٥/٢٦٦ ·
١٥ـ الأغاني ٢٣/ ١٣٤ وانظر ١٢/١٤٥ ـ ١٥٥ ·
١٦ـ الأغاني ٢٤/٩٧ وانظر ٦/٢١ ·
٧٧ـ الأغاني ١٧/٦٥ وانظر ١٥/٣٦١ ـ ٣٧٩ ·
١٨ـ الأغاني ١٧/٢٣٠ وانظر ١٩/١٨١ ـ ٢١٠ ·
١٩ـ الأغاني ٩/٣٢٤ وانظر ٢١/٢٧٥ ـ ٤٠٤ ·
٢٠ـ الأغاني ٢٣/٢٠٦ وانظر ١٢/٨٠ ـ ٨٧ ·
٢١ـ الأغاني ٧/١٤٦ وانظر ٧/١٤٧ ـ ١٤٨ و ١٥٥ ـ ١٥٦ ·
٢٢ـ الأغاني ٧/٢٠ ·
٢٣ـ معجم الأدباء ١٢/٢١٦ ـ ٢١٧ ·
٢٤ـ المصدر نفسه ١٢/٢١٦ ·
٢٥ـ المصدر نفسه ١٣/١٢٥ ·
٢٦ـ المصدر نفسه ١٣/٩٧ ·
٢٧ـ تجريد الأغاني من المثلث والمثاني ، طبع في مصر ١٩٥٥ في ثماني مجلدات بتحقيق طه حسين وابراهيم الأبياري ·
٢٨ـ تجريد الأغاني ١/٥ ـ ٦ ·
٢٩ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني طبع الجزء الأول منه بالمطبعة السلفية بالقاهرة ١٩٢٧ ثم طبع في القاهرة كاملا في ثمانية أجزاء ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ بتحقيق الابياري ، ونشره ممحد زهير الشاويش في بيروت سنة ١٩٦٤ في اثني عشر جزءا وهي طبعة تجارية كثيرة التصرف والأخطاء ·
٣٠ـ مفقـود · ذكره ابن منظور في مختاره ١/١ وكشف الظنون ١/١٣٠ ·
٣١ـ مختار الأغاني ١/١ ·
٣٢ـ مختار الأغاني ٤/١ ·
٣٣ـ ادراك الأماني من كتاب الأغاني من مخطوطات مكتبة القصر الملكي بالرباط برقم ٢٧٠٦ ويقع في ٢٥ جزءا ·
٣٤ـ ادراك الأماني : المخطوطة ٢٣/١١٦ ·
٣٥ـ وقد ذكر بروكلمان ٢/٢٩ أثناء حديثة عن أبي نواس أن أبا الفرج قد ترجمه بتوسع في النسخة المسماة « بالأغاني الصغيرة » الموجودة في مكتبة جوتا ، ولسنا نعرف أن للأغاني نسخة صغيرة !! وان كنا نعتقد يقينا أن المقصود بها : مختار ابن منظور الذي يتضمن فعلا ترجمة موسعة لأبي نواس من صنع ابن الأعرابي، وقد أضافها ابن منظور الى مختاره او الأغاني الصغيرة كما شاء بروكلمان أن يسميها ،وأشار الى انها ليست من تراجم الكتاب كما ذكرنا ، وقد اعتقد الأستاذ عبد الستار فراج أثناء عمله في طبعة دار الثقافة للاغاني ، بوجود هذه النسخة الخطية التي تشتمل على اخبار أبي نواس ، فوعد بالحصول عليها ، والحاقها بالجزء الأخير من الكتاب ، ثم عاد الى القول في هذا الجزء الأخير انه لم يحصل عليها بعد ، ووعد بذلك،

وبطبعها في كتاب مفرد ، دون ان يتحقق شيء من ذلك حتى الآن !! انظر الأغاني دار الثقافة ٢٠/٣ ثم ٥٧٣/٢٣ وقد طبعت هذه الترجمة الموسعة مرات عديدة ، وهي ما اضافه ابن منظور الى مختاره ، وليس من اصل الكتاب ، كما ذكرنا .

٣٦ـ الأغاني ٢٠٨/٦ .

٣٧ـ الأغاني ٣٢٦/٨ .

٣٨ـ الأغاني ٣٥١/٨ .

٣٩ـ الأغاني ٦٢/٩ .

٤٠ـ الأغاني ٢٧٦/١٠ .

٤١ـ وقد كان ذلك فيما احصينا في سبعة عشر موضعا في الأغاني كله بالنسبة للشعراء واخبارهم ، واحد عشر موضعا بالنسبة للاصوات او المغنين ، وانظر في ذلك بحثنا : مقدمة في النقد التوثيقي ـ عند العرب ـ مجلة المعرفة ع ٢٥٦ س ١٩٨٣ ص ٧ ـ ٤٧ حاشية ٩٢ ـ ٩٥ .

٤٢ـ الأغاني ٢٧١/٧ .

٤٣ـ الأغاني ٨٠/١٢ ثم انظر ٢١١/٢٣ .

٤٤ـ الأغاني ٢١١/٢٣ .

٤٥ـ الأغاني ٢٦٠/٧ .

٤٦ـ الأغاني ٢٢٩/٧ ـ ٢٧٨ .

٤٧ـ انظر مثلا ٢٠٩/١ و ٩٧/٢ و ٢٩٠/١٠ ومواضع كثيرة .

٤٨ـ الأغاني ١٤٧/١٨ .

٤٩ـ الأغاني ١٤٧/١٨ .

٥٠ـ انظر مثلا ١٧٢/٦ وأخبار معظم الشعراء المحدثين .

٥١ـ الأغاني ٢١٨/٢٣ .

٥٢ـ انظر مثلا ٣١٨/١ و ١٠٢/١٤ ومواضع كثيرة .

٥٣ـ انظر مثلا ٢/٢ وما بعدها و ٢٧٧/١١ .

٥٤ـ الأغاني ٢٥٥/١٣ .

٥٥ـ انظر مثلا ١١٥/٦ و ٢٧٧/١١ و ٢٠٨/٩ .

٥٦ـ الأغاني ٢٥٢/١١ ثم انظر ٢٦٧/٤ .

٥٧ـ انظر ٤٦/١٢ ثم ١٣٥/٢٢ ـ ١٤٠ وقد وردت أخباره في طبعة بولاق في موضع واحد ١٠٧/١٩ ـ ١١١ بيد أن الخبر المذكور قد سقط منها ؟!.

٥٨ـ الأغاني ٢٧٥/٢٠ .

٥٩ـ الأغاني ١٢٦/٢١ ـ ١٩٥ .

٦٠ـ الأغاني ١٣٠/٩ .

٦١ـ الأغاني ١٠٥/١٩ ـ ١٣٦ وانظر أخبار ابن رهيمة اذ وردت ضمن أخبار يونس المغني ٤٠٥/٤ .

٦٢ـ الأغاني ٢٦١/٢٤ .

٦٣ـ الأغاني ٢٦٠/٢٤ الحاشية .

٦٤ـ مختار الأغاني ط بيروت ١٠١/١١ ـ ١٣٥ .

٦٥ـ الأغاني/دار الثقافة ٥٢٤/٢٣ ودار الكتب ٢٦١/٢٤ الحواشي .

٦٦ـ انظر الأغاني أخبار ابن رهيمة ٤٠٥/٤ والنهدي ١١٨/٥ وابن الهربذ ١٠٤/٧ و ١٣٠/٩ .

٦٧ـ الأغاني ١١٥/٣ ـ ١١٦ .

٦٨ـ الأغاني ١١٦/٣ .

٦٩ـ الأغاني ١٢٩/٣ .

٧٠ـ الأغاني ١٣٠/٣ .

٧١ـ الأغاني ١٣٠/٣ ـ ١٣١ .

٧٢ـ الأغاني ١٠٥/٢٢ .

٧٣ـ الأغاني ١١٦/٢٢ .

٧٤ـ الأغاني ١١٧/٢٢ . وانظر ٣٣٣/٦ وفيه : لسموأل بن عادياء الغساني .

٧٥ـ الأغاني ١٢٢/٢٢ .

٧٦ـ راجع في منهجه في النقد التوثيقي بحثنا « مقدمة في النقد التوثيقي عند العرب » مجلة المعرفة ع ٢٥٦ س ١٩٨٣ ص ٧ ـ ٤٧ .

٧٧ـ انظر مثلا : ١١٥/٣ صوت من المائة دون أخبار شاعر . و ٨٠/١٢ وقارن السند بما قبله و ٢٠٨/٢٣ وقارن الاسم بسابقه و ١٤٧/١٨ وقارن السند بسابقه و ١٨٠/١٠ وقارن مع ٢٢٣/٢١ و ٢٦٦/١٧ و ٢٢١/٢٤ وغيرها .

٧٨ـ ومما يجدر ذكره هنا أن الأستاذين د. داود سلوم و د. جميل سعيد قد أشارا في كتابهما شخصيات كتاب الأغاني الى موضع خلل واضطراب ، اذ رجعا ان الترجمتين الواردتين في الأغاني للدارمي سعيد ولمسكين الدارمي هما لشخص واحد ، ولذا فينبغي ضمهما معاً ؟ ! وفي ذلك وهم بيّن من جهات عدة : فالترجمتان لشخصيتين مختلفتين : اسماً ونسباً وزمناً وموطناً وأخباراً واشعاراً ! ! فالاول هو الدارمي المكي سعيد من ولد سويد بن زيد وكان متهتكاً من ظرفاء مكة وشعرائها ومغنيها ثم نسك ، والثاني ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح يلقب بمسكين، من أهل العراق أسوداللون من سادات قومه ، مقدم عند بني أمية ، فاين هذا من ذاك ؟ !
وانظر شخصيات الأغاني ٤٣٥ـ٤٣٦ ثم الأغاني ٤٥/٣ـ٥٠ و ٢٠٥/٢٠ـ٢١٤ .

٧٩ـ ومن الملاحظ أن معظم هذه المواطن قد وقعت في الأجزاء الاولى ، اذ اعتمد في تحقيقها على عدد محدود من أصوله الخطية ، مما كان متوفرا في دار الكتب اذ ذاك ، وقد ظهرت بعد ذلك أصول كثيرة ذكر منها بروكلمان ٦٩/٣ وسزكين ٦١٥/١ ـ ٦١٦ عددا كبيرا يمكن الاعتماد عليه في اعادة تحقيقه .

المصادر والمراجع :

- أبو الفرج الأصبهاني أديب مشهور ومغمور : محمد خير شيخ موسى - عالم الفكر - الكويت ع ١ مج ١٥ س ١٩٨٤ .
- ادراك الأماني من كتاب الأغاني : لعبد القادر السلوي (من رجال القرن الثاني عشر للهجرة) . مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط ٢٧٠٦ .
- الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني (بعد ٣٦٢ هـ) ، ط دار الكتب الكاملة (١٩٢٧ - ١٩٧٤) (وطبعاته الأخرى بالنص).
- تاريخ الأدب العربي : لكارل بروكلمان (- ١٩٥٦ م) ترجمة النجار ، ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٧٤
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي أحمد بن علي (- ٤٦٣هـ) ط ١ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١ .
- تاريخ التراث العربي : د. محمد فؤاد سزكين ، ترجمة حجازي وفهمي وابراهيم ، ط ١ القاهرة ١٩٧٧ .
- تجريد الأغاني : لابن واصل الحموي (- ٦٩٧ هـ) تحقيق طه حسين والأبياري . مصر ١٩٥٥ .
- الحلة السيراء : لابن الأبار الأندلسي (- ٦٥٨ هـ) تحقيق حسين مؤنس - ط ١ القاهرة ١٩٦٣ .
- الفهرست : لابن النديم محمد بن اسحق (- بعد ٤٠٠ هـ) التجارية - مصر - بلا .
- كشف الظنون : لحاجي خليفة (- ١٠٦٧ هـ) - مصورة دار المثنى ببغداد عن طبعة ١٩٤١ .
- مؤلفات أبي الفرج الأصبهاني وآثاره : محمد خير شيخ موسى - مجلة التراث العربي - ع ٧ س ١٩٨٢/٢ .
- مختار الأغاني : لابن منظور المصري (- ٧١١ هـ) تحقيق لابياري - القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ (وطبعة بيروت ١٩٦٤ بالنص) .
- معجم الأدباء : لياقوت الحموي (- ٦٢٦ هـ) تحقيق الرفاعي - ط ١ القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٣٨ .
- مقدمة ابن خلدون : (- ٨٠٨ هـ) : دار الكتاب اللبناني - ط ٢ - ١٩٦١ .
- مقدمة في النقد التوثيقي عند العرب : محمد خير شيخ موسى - مجلة المعرفة - ع ٢٥٦ - س ١٩٨٣ - ص ٧ - ٤٧ .

* * *

كَشفُ الضَوّ.. في مَعنىٰ لَوْ

عثمان النجدي

حسّان فلاح أوغلي

لفتت هذه المخطوطة انتباهي ، وأنا أطالع صفحات كتاب «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، قسم النحو ، لواضعته أسماء الحمصي • فحصلت على صورة لها ، وقمت بقراءتها، وكان هذا الجهد المتواضع في قراءتها• وهي رسالة مسماة بكشف الضو في معنى لو • ولعل السجع يتطلب تخفيف الهمزة في كلمة الضوء بطريقة الحذف والتعويض بواو • ومؤلفها هو عثمان بن أحمد بن سعيد بن قائد النجدي وهو فقيه ، ولد في العيينة بنجد وهو من أفاضل النجديين رحل الى دمشق ، وأخذ عن علمائها وانتقل الى القاهرة وتوفي فيها سنة ١٠٩٧ هـ ، ١٦٨٦ م من تصانيفه : « هداية الراغب لشرح عمدة الطالب » ، « حواشي على منتهى الارادات »« رسالة في الرضاع » وكل ذلك في فقه الحنابلة. وله « نجاة الخلف في اعتقاد السلف » و« مختصر درة الغواص » • بالاضافة الى تعليقات يسيرة • راجع معجم المؤلفين ٦/ ٢٤٩ والمخطوطة تقع في خمس لوحات (٦٧ آ ق ، ٧١ ن ق) • واللوحة فيها قسمان وفي كل قسم تسعة عشر سطراً ما عدا الصفحة الأخيرة فان فيها أربعة عشر سطراً •

وقد كتبت بخط نسخي وتقول عنه أسماء الحمصي انه جميل ، وليس كذلك ، بل يعد مقبولا وهو غير مشكول • وتقول واصفة الكتاب : ان ناسخها ربما كان نفسه ناسخ رسالة أخرى ، لتطابق الخط وهو حسن بن نصار الحنبلي • وقد اتسخت بعض أوراق المخطوطة ولا تعليق عليها • ويلاحظ في المخطوطة تخفيف الهمز اما تسهيلا واما حذفاً كما يلاحظ حذف همزة ابن ، في معظم المواضع •

وأما عملي في المخطوطة فكان :

١ ـ قراءة المخطوطة من جديد وردّ ماسقط منها بعد العودة الى مصادر الكلام والأقوال •

٢ ـ ضبط نصها بشكل سليم .

٣ ـ تخريج الشواهد .

٤ ـ التعريف بشكل موجز بالأعلام التي وردت فيها .

على أن هناك كلاماً نقله المؤلف ولم أستطع العودة اليه . كما أن بعض الشواهد لم أجدها في مظانها .

ويحسن بي قبل أن أقدمها أن أعرف بما ورد فيها. فقد اقترنت معظم دراسات النحويين المتأخرين بمصطلحات ومناقشة منطقية ، حتى انهم ليناقشون كثيراً من أمور النحو من خلال المنطق. والرسالة التي بين يدي والتي تبحث في « لو » لم تضف في الحقيقة شيئاً جديداً ، وانما حاول مؤلفها أن يناقش ابن هشام وابن مالك وابن الحاجب ، أن يناقشهم كلاً في رأيه . وقد اعتمد في الرد عليهم على حجج منطقية ، لذلك يحسن الوقوف في بعض المصطلحات المنطقية التي وردت فيها : ان الجملة العربية التي طرفاها المسند والمسند اليه تخضع في المنطق الى تقسيم آخر . فالجملة الخالية من الشرط يكون المسند اليه فيها موضوعاً والمسند محمولا . أما الجملة الشرطية التي نعرف من عناصرها الشرط والجزاء فان أهل المنطق يسمون الشرط مقدماً والجزاء تالياً .

ومما ورد في الرسالة أيضاً كلمة « السبب » أو « العلة »(١) وهو : ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته . ومثاله : لوكانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً فان « كانت الشمس طالعة » هو المقدم . و « كان النهار موجوداً » هو التالي . وطلوع الشمس علة أو سبب وجود النهار . وانما قلنا لذاته احترازاً مما يصيب الشمس من كسوف فانه عارض .

ومن يقرأ الرسالة يظن أن ثمة خلافاً بين المؤلف وابن هشام . وحقيقة الأمر أن ابن هشام كما سنرى يعرف «لو» بانها تفيد الشرطية وتقييد الشرطية بالزمن الماضي وامتناع الشرط خاصة . وأنه لا دلالة لها على امتناع الجواب. والمؤلف يراها حرف امتناع لامتناع وأنها تفيد بيان سبب انتفاء الجزاء عند أهل العربية ، وتفيد الاستدلال على انتفاء الشرط بانتفاء الجزاء . ولو طبقنا هذين التعريفين على ما لدينا من شواهد وجدنا أن كلام ابن هشام صحيح في الحالة التي يكون الجزاء فيها أعم من الشرط كما في قولنا « لو كان قريباً للميت لكان وارثاً » . أما كلام المؤلف فينطبق في الحالة التي يتساوى فيها الجزاء والشرط في الخصوصية والعمومية كقولنا : « لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً » .

اذاً فالخلاف بينهما يتحرر لدى عرض الأمثلة والشواهد . فكلام كل منهما صحيح ولكن بمكانه . وهذا ما وضحه أكثر ابن تيمية في رسالته عن « لو » ومعناها والتي أوردها السيوطي في الأشباه والنظائر(٢) وبعد . فان هذا ما استطعت عمله وقراءته ، وان قصرت في ذلك فان النية الصالحة تشفع لي . والشكر لمن أسدى الي نصيحة خلال هذا العمل . والله ولي التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

[٦٧ ، ب] : الحمد لله الذي رزق من شاء من عباده بصحيح المباني ، وسهل عليهم ما امتنع على غيرهم من مقفلات المعاني · والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل من نطق بالصواب ، وعلى آله وأصحابه الأنجاب، وبعد :

فهذا تعليق لطيف على معنى (لو) لكثرة دورانها في الكلام ، واضطراب الأقوال فيها بين العلماء الأعلام · وجمعته(٣) تذكرة لأولي الألباب وتبصرة للاخوان والأحباب · فأقول على سبيل الاختصار ، وبالله التوفيق والانتصار ·

اعلم ـ وفقني الله واياك ، وتولاني(٤) في جميع الأمور وتولاك ـ أن « لو » في نحو قولك : « لو جئتني لأكرمتك » قد عرفت بتعاريف متعددة ؛ فقال امام العربية سيبويه(٥) ، رحمه الله تعالى ·· « (لو) حرف لما كان سيقع لوقوع غيره »(٦) فقوله : حرف لما ·· الخ ، أي : حرف موضوع لشيء هو الجزاء ، كان من حقه في الزمن الماضي أن سيقع ، ويوجد لوجود غيره ؛ أي لوجود الشرط ، وانما قال(٧) : « سيقع » فأتى بالسين التي تخلّص المضارع للاستقبال مع كون الجزاء مفروض الوجود في الزمن الماضي لكون وقوع الجزاء مستقبلا بالنسبة الى وقوع الشرط · وقد فُهم من قوله : « كان من حقه في الماضي » أن الجزاء لم يقع لعدم وقوع غيره ، وأنها حرف شرط في الماضي · فيمكن أن يرجع تفسيره ـ رحمه الله تعالى ـ الى أنها حرف امتناع لامتناع على ما سيأتي ، ان شاء الله تعالى · وقال الامام [ا] بن(٨) مالك(٩) ، رحمه الله : « (لو) حرف يدل على انتفاء تالٍ ، يلزم لثبوته ثبوتِ تاليه(١٠) » · أي : حرف يدل على انتفاء الشرط وعلى أنه لو وجد الشرط وجد الجزاء ·

والذي حرره [ا] بن هشام الأنصاري(١١) ، وادعى أنه أجود العبارات أن يقال فيها : « حرف يقتضي في الماضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه(١٢) » ، وأشار بهذا التعريف الى أن « لو » هذه تفيد ثلاثة أمور : أحدها الشرطية [والثاني تقييد الشرطية] (١٣) بالزمن الماضي ، والثالث الامتناع · وبهذين الأمرين الأخيرين فارقت (لو) (ان) الشرطية فانها أعني (ان) لفقد السببية والمسببية في المستقبل لا تدل(١٤) بالاجماع على امتناع ولا ثبوت · لكن مقتضى كل من تعريفي ابن مالك وابن هشام أنها انما تفيد امتناع الشرط خاصة ولا تدل على امتناع الجزاء ولا ثبوته غير أنه ان كان مساوياً للشرط في العموم كما في قولك : « لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً ، لزم من انتفاء الشرط انتفاء الجزاء ضرورة ، [أي](١٥) : أنه يلزم من انتفاء السبب المساوي انتفاء مسببه ، وان كان الجزاء أعم من الشرط فانما يلزم منه(١٦) انتفاء القدر المساوي للشرط كما في قولك : « لو كان هذا قريباً(١٧) للميت لكان وارثاً » فتدل « لو » هنا على انتفاء الارث المترتب على القرابة ولا تدل على انتفاء مطلق الارث · وقد نسب ابن هشام هذا القول للمحققين وخرّج عليه نحو قول عمر ، رضي الله عنه ، « نعمَ العبدُ

صُهيب" ، لو لم يخَف الله لم يعصه »(١٨) ٠فان الجزاء هنا وهو عدم المعصية تارة يكون للخوف كما هي(١٩) مرتبة العوام ، وتارةيكون للاجلال والمهابة كما هي مرتبة الخواص. والمقصود أن صهيباً(٢٠) رضي الله عنه من الخواص وأنه امتنعت معصيته لما معه من اجلال الله تعالى وتعظيمه ، فهذا الأثر في الجزائية أعم من الشرط ثم ذكر ابن هشام ، رحمه الله تعالى : « متى كان الجزاء أعم من الشرط فهو قسمان أحدهما ما يراد فيه تقدير الجزاء وجد الشرط أو فقد ، ولكنه مع فقده أولى كما في أثر عمر رضي الله عنه المتقدم، فانه يدل على تقدير عدم العصيان على كل حال وعلى أن انتفاء المعصية عند الخوف أولى، والثاني(٢١) أن يكون الجزاء مقرراً على كل حال من غير تعرض لأولوية نحو قوله تعالى : « ولو رُدُّوا لعادوا لما نهُوا عنه »(٢٢) فان المقصود تحقق ثبوت العود ، وأما امتناع الرد فهو ــ وان كان حاصلا ــ غير مقصود ٠ ثم قال ابن هشام ــ رحمه الله ــ : وقد اتضح أن أفسد تفسير « للو » قول من قال: حرف امتناع لامتناع ٠ انتهى(٢٣) ٠ وفيه نظر ، لا يخفى على المتأمل ، فنبين أولا بعون الله تعالى معنى هذا التعريف الذي ادّعى أفسديته ، ثم نذكر وجه النظر ثانياً ، فاقول ــ وبالله التوفيق ــ معنى هذا التعريف أن « لو » حرف يدل على امتناع الثاني ــ أعني الجزاء ــ لامتناع الأول ــ أعني الشرط ، وذلك لأنها حرف يعلّق به حصول مضمون الجزاء المعلق عليه كانتفاء الاكرام لانتفاء المجيء في قولك : «لو جئتني لأكرمتك » فلهذا قيل حرف امتناع لامتناع ، وهذا التعريف بالمعنى المذكور هو المشهور بين الجمهور ، كما نص عليه السعد التفتازاني(٢٤) ، جمعنا الله به في دار التهاني. لكن ههنا أمر يتعين التنبيه عليه وهو أن (لو) فيها اصطلاحان : أحدهما لأرباب العربية ، والآخر لأهل المنطق ٠ فأما اصطلاح أهل العربية فهو أن (لو) يؤتى بها عندهم للدلالة على أن انتفاء الجزاء في الخارج سببه هو انتفاء الشرط ، فليست عندهم لافادة انتفاء الجزاء ولا انتفاء الشرط ، بل هي لبيان سبب انتفاء الجزاء ، وهذا قد يكون [و](٢٥) شرطها وجزاؤها معلوم الانتفاء عند السامع كما تقول لشخص ، تعلم أنه لا يجيئك وأنك لم تكرمه [٦٩ ، أ] لو جئتني أكرمتك ، فانك لا تقصد افادته شيئاً يعلمه لما فيه من تحصيل الحاصل وانما تقصد افادته أن سبب انتفاء اكرامك له هو انتفاء مجيئه لك فانه قد يتشكك في سبب عدم اكرامك له ، هل هو عدم مجيئه لك أو هو قصدك حرمانه أو عدم خطوره ببالك وغير ذلك مما يجوز أن يكون سبباً في عدم الاكرام فلا يلزم من استحضار السامع لهذه الأمور وعلمه بها أن يعلم ما هو السبب منها في عدم اكرامك اياه فحينئذ تقيد له السبب بقولك : « لو جئتني أكرمتك ، أي سبب انتفاء اكرامي اياك هو عدم مجيئك اياي ، فمعنى قولهم « (لو) حرف امتناع لامتناع » أنها حرف يدل على أن سبب امتناع الثاني أي الجزاء هو امتناع الشرط ٠ ونظير هذا المعنى في (لو) قولهم في (لولا) انها لامتناع الثاني لوجود الأول نحو : « لولا علي لهلك عمر »(١٦) ٠ فليس معناه أن وجود علي دليل على أن عمر لم يهلك ، بل المعنى سبب عدم هلاك عمر هو وجود علي ٠ ولهذا كثر(٢٧) في «لو» استثناء الشرط في كلامهم كقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم »(٢٨) ٠ أي: ولكن لم أشأ ذلك فحق القول مني ٠ وكقوله

تعالى : « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلّم(٢٩) أي فلم يركموهم كذلك • وكقول الحماسي(٣٠) [من البسيط]

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي　　بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ثم قال :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد　　ليسوا من الشر في شيء وان هانا

وقوله :(٣١) [من المتقارب]

ولو طار ذو حافر قبلها　　لطارت ولكنه لم يطر

وقال أبي العلاء المعري(٣٢) [من الطويل] :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم　　رعايا ولكن ما لهن دوام

الى غير ذلك مما لو استقصيناه لأفضى الى الاطالة والملل ، فلنقتصر على ما ذكر وبالله التوفيق •

وأما اصطلاح أهل المنطق فهو أن (لو) يؤتى بها عندهم للاستدلال على انتفاء الشرط بانتفاء الجزاء ، وبيان ذلك أن الشرط ملزوم والجزاء لازم • والشرط سبب والجزاء مسبب وانتفاء السبب يدل على انتفاء جميع أسبابه، اذ لو وجد منها واحد لوجد المسبب لأن السبب يلزم من وجوده الوجود ولا يلزم من عدمه العدم مطلقاً بل لذاته • مثال ذلك الارث ، فان له أسباباً(٣٣) ثلاثة ، فيلزم من انتفاء الارث عن شخص بلا مانع قام به انتفاء أسبابه كلها ولا يلزم من انتفاء القرابة عنه مثلاً انتفاء الارث عنه مطلقاً ، وانما اللازم انتفاء ارثه المترتب على القرابة ، ويجوز أن يكون وارثاً لكونه زوجاً أو معتقاً • والحاصل أن الشيء اذا لم يكن له الا سبب واحد لزم من انتفاءكله انتفاء الآخر • ومن وجوده وجوده ، والا فان كان له أكثر من سبب لزم [انتفاء الشيء] من انتفاء المسبب ، وكذلك انتفاء الجزاء اللازم يدل على انتفاء الشرط الملزوم دائماً • لأن اللازم اما مساوٍ أو أعمّ ويلزم من انتفاء أحد المتساويين انتفاء الآخر ومن انتفاء الأعم انتفاء الأخص • مثال المساوي قولنا : « لو كان هذا انساناً لكان ضاحكاً » • ومثال الأعم : لو كان هذا انساناً لكان حيواناً » • ولا يلزم من انتفاء الملزوم انتفاء اللازم وعلمت أن الملزوم قد يكون أخص ولا يلزم من عدم الأخص كالانسان عدم الأعم كالحيوان، فاللازم المساوي كالمسبب لسبب واحد واللازم الأعم كالمسبب لأسباب كثيرة • فلما كان غرض أهل المنطق حصول العلم بالنتائج حصروا انتاج المتصلة في ضربين : أحدهما استثناء عين المقدم لانتاج عين الثاني لأنه متى وجد الملزوم وجد اللازم سواء [أ] كان الملزوم مساوياً أو أخص [٧٠،ب] والثاني(٣٤) استثناء نقيض التالي لانتاج نقيض المقدّم لأنه متى عدم اللازم المساوي أو الأعم عُدم ملزومه المساوي أو الأخص فيقولون له مثلا : لو كان هذا انساناً لكان ضاحكاً • لكنه انسان ، فهو ضاحك ، ولكنه ليس بحيوان فليس بانسان وهذا في الأعم ، وبقي في المتصلة ضربان

عقيمان : أحدهما استثناء نقيض المقدم فانه لا يُنتج نقيض التالي لأن التالي قد يكون أعم كما في المثال الأخير • ولا يلزم من انتفاء الأخص انتفاء الأعم كما تقدم • والثاني استثناء عين التالي لما علمت من أن التالي قد يكون أعم ولا يلزم من وجود الأخص، فاتفق الفريقان ـ أعني أهل العربية والمنطق ـ على أن (لو) حرف امتناع لامتناع ،واختلف مراد كل من الفريقين ، فأهل العربية يقولون: حرف امتناع الثاني لامتناع الأول ، وأهل المنطق يعكسون ذلك ، فيقولون : « لو » حرف امتناع الأول لامتناع الثاني ، وانما اختلف المرادان لاختلاف الغرضين لما علمت من أن غرض أهل العربية بيان سبب انتفاء الثاني مع قطع النظر عن علة العلم بانتفاء الثاني والأول لأن الانتفاءين قد يكونان معلومين للسامع كما تقدم • وغرض أهل المنطق الاستدلال وحصول العلم بالنتيجة ،فيستدلون على انتفاء الأول بانتفاء الثاني فيجعلون انتفاء الثاني علة للعلم بانتفاء الأول مع قطع النظر عن سبب انتفاء أحدهما في الخارج •وقد يظهر من بيان الاصطلاحين صحة تعريفهما بأنها حرف امتناع لامتناع بالاعتبارين السابقين ، وأن ادعاء(٣٥) أفسدية هذا التعريف ممنوع• بل قد تقدم أنه يمكن رجوع تفسير سيبويه اليه(٣٦) لكن بخفاء هذين الاصطلاحين على كثير اعترضوا على تعريف من عرّف « لو » بأنها حرف امتناع لامتناع ثم اختلف المعترضون في الصواب • ما هو ؟• فذهب ابن الحاجب(٣٧) ـ رحمه الله تعالى ـ الى أن الصواب أن يقال : (لو) حرف امتناع الأول لامتناع الثاني لأنه المطرد دون العكس(٣٨) ، واستدل ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا(٣٩) » فان الآية الكريمة مسوقة للاستدلال بانتفاء الفساد على انتفاء التعدد دون العكس ، واستحسن ذلك منه جمهور المتأخرين حتى كادوا يجمعون عليه وذهب ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ الى أن التعريف فاسد من أصله ، وأنها لا تدل على الامتناعين بل الصواب أن يقال فيها : حرف يدل على امتناع الشرط خاصة ، وأما الجزاء فلا يدل على ثبوته ولا على نفيه(٤٠) •

واستدل مما تقدم من نحو قول عمر ـ رضي الله عنه ـ : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » فانها لو دلت على امتناع « لم يعصه » لثبت عصيانه لأن نفي النفي اثبات وليس كذلك ومنشأ الاعتراض من الشيخين العلامتين توهم أن معنى قول أهل العربية : « لو » حرف امتناع الثاني لامتناع الأول أنها لبيان علة العلم ، كما هو اصطلاح أهل المنطق، وقد علمت أنه ليس كذلك، بل [٧١،آ] معناه عند أهل العربية لبيان السبب مع قطع النظر في علة العلم كما تقدم • والجواب عن الآية التي اعترض بها ابن الحاجب ، رحمه الله تعالى ، على أهل العربية أنها واردة على قاعدة أهل المنطق على خلاف الاستعمال الشائع في « لو » كما بيّن ذلك السعد التفتازاني ـ رحمه الله ـ في شرحيه المطول والمختصر على أن الغزي(٤١) ذهب الى أن لا وجه لحمل الآية على مقتضى أوضاعهم من حيث انه استعمال مجازي • فحينئذ لا محذور في حمل الآية على هذا المعنى اذ لا بُعد في وقوع الاستعمالات المجازية بالنسبة الى أهل اللغة في القرآن • قال : وقد يقال: تخصيص المعنى الثاني بأرباب

المقول لكون اصطلاحهم مقصوراً عليه لانتفي كونه معنى (لو) عند من عداهم ، وحينئذ فلا ينافي ورود الآية على وضع اللغة حقيقة . انتهى كلامه ، رحمه الله .

وأما الجواب عما اعترض به ابن هشام ـ رحمه الله ـ من نحو أثر عمر ، رضي الله عنه ، فقد أشار اليه في المطول حيث قال : وقد تستعمل « أن » و « لو » ونحوهما للدلالة على أن الجزاء لازم الوجود في جميع الأزمنة في قصد المتكلم وذلك اذا كان مما يستبعد استلزامه لذلك الجزاء ، ويكون نقيض ذلك الشرط أنسب وأليق باستلزامه ذلك الجزاء ، فيلزم استمرار وجود الجزاء على تقدير وجود الشرط وعدمه [٧١،ب] فيكون دائماً . انتهى المقصود منه . فليست (لو) فيما اعترض به ابن هشام ـ رحمه الله ـ امتناعية بل للدلالة على لزوم وجود الجزاء دائماً سواء(٤٧) [أ] كان الجزاء والشرط منتفيين أو مثبتين أو الأول منفياً والثاني مثبتاً أو بالعكس . فمثال المنتفيين قوله ﷺ في بنت(٤٣) أبي سلمة : انها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي إنها لابنة أخي من الرضاعة(٤٤) » فان المقصود منه الدلالة على أن عدم حلّها له ﷺ ثابت مستمر سواء انتفى كونها ربيبته في حجره أم لا . وكقول عمر ـ رضي الله عنه ـ : « لو لم يخف الله لم يعصه » فان المقصود منه أن عدم العصيان أمر لازم الوجود سواء انتفى الخوف أم لا . ومثال المثبتين قولك : « لو أهنتني لأثنيت عليك » أي ثنائي عليك مستمر سواء أهنتني أم لا . ومثال كون الشرط مثبتاً والجزاء منفياً قوله سبحانه وتعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله(٤٥) » فان المقصود منه ـ والله تعالى أعلم ـ أن عدم نفاد كلمات الله تعالى أمر مستمر لازم الوجود سواء [أ] كان وجود جميع الشجر أقلاماً تكتب كلمات الله تعالى بمداد الأبحر الثمانية أم لا وكقول الصديق ـ رضي الله عنه ـ لمّا طوّل في صلاة الصبح وقيل له : كادت الشمس تطلع ، فقال : « لو طلعت ما وجدتنا غافلين »(٤٦) . أي انتفاء الغفلة عنا بحمد الله أمر لازم الوجود سواء [أ] طلعت الشمس أم لا [٧٢،أ]، فقد ظهر أن ما اعترض به العلامتان ابن الحاجب وابن هشام رحمهما الله تعالى خارج عن الاستعمال الشائع في « لو » . وأنه مندرج في الاستعمال الآخر ، والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب . تمت هذه الرسالة المباركة المسماة بكشف الضو في معنى « لو » تأليف شيخ الاسلام والمسلمين ، صدر المدرسين وفخر العلماء الراسخين ، الفقيه الذي تزينت بدروسه المساجد والمدارس واحتاج لتصحيح منطوقه ومفومه كل مذاكر ومدارس ، أحيا دروس المدارس وزان دروسها وجمّل صدور المجالس وأطلع شموسها ، ورفع منار الافادة وضاعف عظامها ، أمجد الفضلاء المدرسين وتاج النبلاء المتصدرين ، فخر ذوي الافتاء والتدريس ، حامل لواء الشريعة وناشره بفهمه الثاقب النفيس . اذا ألقى الدروس أحيا رباع العلم بعد الدروس . مولانا وأستاذنا الشيخ عثمان الحنبلي النجدي ، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته . آمين . بحمده وعونه وحسن توفيقه والحمدلله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وسلّم تسليماً كثيراً .

□ الحواشـي :

١ ـ تختلف العلة عن السبب في كتب النحو ، فالسبب مجوز وهو أقل من العلة ٠ وانظر مقدمة الأمالي الشجرية ٠
٢ ـ الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ج ٣ ص ٦٨٩ ٠
٣ ـ كذا في الأصل ، والكلام يستغني عن الواو ٠
٤ ـ في الأصل « توليني » ، وهو تحريف لا يستقيم مع السجع والسياق ٠
٥ ـ سيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر ، امام العربية ، صاحب الكتاب ٠ ت ١٨٠ هـ ٠ وانظر ترجمته في البلغة ص١٧٣
٦ ـ انظر كتاب سيبويه ٢٢٤/٤ ٠
٧ ـ يعني سيبويه ٠
٨ ـ في الأصل سقطت همزة ابن ، وكذا في معظم المواضع ٠
٩ ـ محمد بن عبدالله بن مالك الطائي ت : ٦٧٢ هـ ٠ وانظر ترجمته في البلغة ص ٢٢٩ ٠
١٠ ـ انظر التسهيل ٢٤٠ ٠
١١ ـ جمال الدين بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله المصري ت٧٦١ هـ ٠
١٢ـ مغني اللبيب ٣٤٣ ٠
١٣ـ سقطت من الأصل ، فزدتها من مغني اللبيب ٣٣٧ ٠
١٤ ـ في الأصل ولا « تدل ان » والكلام يستغني عنها ٠
١٥ ـ في الأصل لا توجد (اي) والكلام بحاجة اليها ٠
١٦ ـ في الأصل « من » وهو تحريف ٠
١٧ ـ في الأصل « قريب » ٠
١٨ ـ اشتهر هذا القول في كتب الأصوليين من حديث عمر وبعضهم يرفعه الى النبي ﷺ ٠ انظر كشف الخفاء للعجلوني رقم ٢٨٣١ ص ٣٢٣ ٠
١٩ ـ في الأصل « هو » ٠ وهو خطأ ٠
٢٠ ـ صهيب بن سنان ٠ صحابي عربي ، شهد بدرا واحدا ت٣٨ هـ ٠
٢١ ـ الأول مر قبل قليل وهو : احدهما ما يراد فيه تقدير الجزاء ٠٠٠
٢٢ ـ الأنعـــام / ٢٨ ٠
٢٣ـ مغني اللبيب ٣٤١ ـ ٣٤٢ ، والكلام متصرف فيه من قبل المؤلف ٠
٢٤ـ السعد التفتازاني : سعد الدين بن عمر ٠ له تهذيب المنطق ، وشرح الكشاف وغيرهما ت ٧٩١ هـ ٠
٢٥ ـ سقطت في الأصل
٢٦ ـ قال السيوطي في الرياض النضرة أخرجه العقيلي ٠
٢٧ ـ في الأصل « أكثر » ٠
٢٨ ـ السجدة / ١٣ ٠
٢٩ ـ الأنفال / ٤٣ ٠
٣٠ـ هو قريط بن انيف من بني بلعنبر ، والبيتان في شرح الحماسة للتبريزي ج١/٥ ، وهما في الخزانة ٣٣٢/٣ ، ٥٦٩ ٠
٣١ ـ لم أجد البيت فيما رجعت اليه ٠
٣٢ ـ سقط الزند / ١٠٩ ٠
٣٣ ـ في الأصل « أسباب » ٠
٣٤ ـ اي الضرب الثاني ٠

٣٥ ـ في الاصل : « ادعى » ٠
٣٦ ـ في الأصل « لها اليه » والكلام يغنى عن « لها » ٠
٣٧ ـ عثمان بن عمر ٥٧٠ ـ ٦٤٦ هـ ٠
٣٨ ـ شرح الكافية ٢/٣٨٩ ٠
٣٩ ـ الأنبياء / ٢٢ ٠
٤٠ـ مغني اللبيب ص ٣٣٩ والمؤلف يتصرف بالعبارة ٠
٤١ ـ الغزي : عثمان بن علي بن محمد الغزي ، مالكي ، ت١٠٠٩ هـ ، ١٦٠٠ م ٠

* المطول أحد شروح تلخيص القزويني في علوم البلاغة ٠
والمختصر شرح آخر للتلخيص وضعه التفتازاني ايضاً ٠

٤٢ ـ صواب الكلام : « سواء أكان ٠٠ » وسواء كان أسلوب ستحدث اجازه مجمع اللغة ٠
٤٣ ـ في الأصل بيت وهو تحريف ٠
٤٤ ـ حديث صحيح أخرجه البخاري في النكاح والمغازي ومسلم في الرضاع ٠
٤٥ ـ لقمان/٢٧ ٠
٤٦ ـ لم اجده فيما رجعت اليه ٠

* * *

المراجـــع :

- القرآن الكريم ٠
- الأشباه والنظائر في النحو ٠ للسيوطي ج ٣ ت : محمد ابراهيم العبدالله ٠ طبع مجمع اللغة بدمشق ١٩٨٦ ٠
- الأعلام ٠ خير الدين الزركلي ٠ ط ٤ دار العلم للملايين١٩٧٩ ٠
- الأمالي الشجرية ٠ ابن الشجري ٠ دار المعرفة ٠ بيروت ـ لبنان ٠
- البلغة في تاريخ ائمة اللغة للفيروزآبادي ٠ ت محمد المصري٠ وزارة الثقافة دمشق دمشق ١٩٧٢ ٠
- تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٠ مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٣ ٠
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ٠ ابن مالك ٠ القاهرة ١٩٦٨ ٠
- خزانة الأدب للبغدادي ٠ بولاق ٠ مصورة بلا تاريخ ٠
- سقط الزند للمعري ٠ ت طه حسين دار صادر بيروت ١٩٥٧ ٠
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ٠ للخطيب التبريزي ٠ عالم الكتب ٠ بيروت ٠
- شرح كافية ابن الحاجب للاستراباذي ٠ دار الكتب العلمية٠ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٢ ٠
- صحيح البخاري ٠ دار احياء التراث العربي ٠ بيروت ٠ لبنان ٠
- صحيح مسلم ٠ دار الفكر ٠ بيروت ٠ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٠
- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ٠ وضعتـه أسماء الحمصي ٠ مجمع اللغة بدمشق ١٣٩٣ هـ ٠
- كتاب سيبويه ٠ ت عبدالسلام هارون ٠ عالم الكتب بيروت ٠
- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس ٠ للعجلوني ٠ مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥٢هـ
- معجم المؤلفين ٠ عمر رضا كحالة ٠ نسخة مصورة مكتبـة
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٠ محمد فؤاد عبدالباقي ٠ استانبول ١٩٨٤ ٠
- مغني اللبيب ٠ ابن هشام الانصاري ٠ ت د : محمد مازن المبارك ٠ دار الفكر ٠

ديوان أبي محجن الثقفي

ملاحظات واستدراكات

محمد محيي الدين مينو

كان أبو محجن الثقفي شاعراً مطبوعا وصحابياً جليلا وفارساً بطلا ، اختلف في اسمه ، فقال الأصبهاني : « هو أبو محجن عبدالله بن حُبَيِّب بن عمرو »(١) • وقال الآمدي : « حَبيب بن عمروبن عمير »(٢) وقال القرطبي : « اسمه مالك ابن حبيب » وقيل : اسمه كنيته »(٣) • وقال العسقلاني : « قيل : هو عمرو بن حبيب بن عمرو » و « قيل : اسمه كنيته ،وكنيته أبو عبيد ، وقيل : اسمه عبدالله ، وأمه كنود بنت عبدالله بن عبد شمس »(٤) •وقال ابن حزم : « أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير » و « أمه كنود بنت عبد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف »(٥) ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فالثابت أن نسبه ينتهي الى ثقيف ، اشترك في الجاهلية معها في محاربة المسلمين ، وكان أحد الذين دافعوا عن الطائف عندما حاصرها الرسول ﷺ عام ٨ هـ / ٦٣٠ م(٦) أسلم ـ رضي الله عنه ـ عندما أتى مع ثقيف بعد استسلامها الى المدينة(٧) ، وسمع من النبي ﷺ وروى عنه(٨) •

انهمك أبو محجن في الشراب ، فحدّه عمر ـ رضي الله عنه ـ مراراً ، ثم نفاه الى «حضَوضى»(٩) أو الى «باضع»(١٠) ، فهرب، ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسية، فكتب عمر الى سعد أن يحبسه ، فأوثقه في داره • ولما كان يوم أرماث شديد الهول سأل أبو محجن امرأة سعد أن تحل قيده ، ليقاتل المشركين ، فقصفهم قصفاً عجباً ، ثم رجع ، فجعل رجليه في القيد • وحين علم سعد بأمره حل قيده ،وقال : « لا أجلدك في الخمر أبداً » ، فقال أبو محجن : « وأنا والله لا أشربها أبداً»(١١). وذكر في خبر نفيه سبب آخر ، وهو أنه هَوِيَ امرأة من الأنصار ، يقال لها : شموس ، فحاول النظر اليها بكل حيلة »(١٢) ، ويبدو أنه شبَّب بها أيضاً(١٣) ، « فاستعدى زوجها عليه عمر ، فنفاه »(١٤) • والأرجح ان سعداً حبسه في خمريات ، تدب على لسانه، فينفثها ، وذلك بعد أن « تاب عنها توبة

نصوحاً ، فلم يعد اليها »(١٥) . فقد قال الأصبهاني : « قالت له سلمى : يا أبا محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل ؟ فقال : أما والله ما حبسني بحرام ، أكلته ، ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر ، يدب الشعر على لساني ، فينفثه أحياناً ، فحبسني لأني قلت : اذا متّ فادفنّي الى أصل كرمة »(١٦) ويرى رودوكناكيس Rhodoknakis ، كاتب ترجمته في دائرة المعارف الاسلامية ، أن الأرجح من ذلك « أن أبا محجن كان من بين الساخطين الذين قاوموا خالد بن عرفطة عندما اختاره سعد بن أبي وقاص للقيادة بدلا منه أثناء مرضه ، وسجن لذلك في بداية وقعة القادسية عام ١٤ هـ / ٦٣٥ م »(١٧) .

ولا ندري شيئاً عن أبي محجن بعد القادسية ، فلعله سار مع الجيش الفاتح حتى « مات بارمينية »(١٨) أو « في نواحي أذربيجان » أو « في نواحي جرجان »(١٩) .

وأما مكانته الشعرية ، فابن سلام يجعله من فحول شعراء الطائف(٢٠) ، ويقول : « أبو محجن رجل شاعر شريف »(٢١) . ويقول رودوكناكيس : « كان أبو محجن في شعره قليل الابتكار » و « ترجع شهرته الى أشعاره في الخمريات »(٢٢) . ويقول الدكتور صلاح الدين المنجد : « لعل أبا محجن أول رائد في الشعر العربي الاسلامي في وصف الخمر ، سبق في ذلك الوليد بن يزيد الأموي ، ومن جاء بعده من أوائل الشعراء العباسيين . وفي شعره عذوبة ورقة وطلاوة »(٢٣) . وقد حظي ديوانه باهتمام أهل اللغة ، فشرحه ابن الأعرابي وابن السكيت وأبو هلال العسكري . وقد تيسر لصنعة العسكري علماء أفاضل ، فخرجت الى النور ، وطبعت غير مرة ، لعل آخرها نشرة(٢٤) الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد الذي يعمل بمشقة دائمة وجهد دائب في تحقيق أسمى المخطوطات العربية وأندرها ، فيسدي للعروبة خدمة جلّى .

وقد وقفت على قراءة هذه النشرة بصبر وتأن شديدين ، فحررتها مما وقع فيها من تصحيف وتحريف بجملة ملاحظ ، ثم زدت في تخريجها ورواياتها ، ولما اجتمع لديّ من ذلك الكثير خرّجت الديوان كاملا بعد أن عدت الى مصادر المحقق والى مصادر أخرى ، لم يعتمدها، فاستدركت ما فاته من زيادات على الديوان .

وثمة ملاحظتان على مقدمة المحقق الفاضل قبل أن أعرض ما عنّ لي من ملاحظ ومآخذ ، وهما :

١ ــ أشار الدكتور المنجد الى أن ديوان أبي محجن بشرح العسكري طبع أول مرة في ليدن عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦ م بعناية المستشرق السويدي كارلو لندبرج Garlo Landberq (١٨٤٨ ــ ١٩٢٤) ضمن كتابه « طُرف عربية »(٢٥) . ثم أعيد طبعه في مطبعة الأزهار البارونية في القاهرة دون تاريخ ، وتبين له من دراسة هذه الطبعة أنها مسروقة عن طبعة لندبرج .

وقد فات الدكتور المنجد أن المستشرق آبل Abel قد نشره في ليدن أيضاً عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧ م ومعه سيرة أبي محجن وترجمة لاتينية للديوان(٢٦) • ويبدو أن ثمة نشرة ثالثة من الديوان، أشار اليها محقق الأغاني، الأستاذ ابراهيم الأبياري، في جملة مصادر أبي محجن، فقال: « ديوان أبي محجن، شرح أبي هلال العسكري (نشرة لندبرج)ديوان أبي محجن (نشرة لودوفيكس) »(٢٧) • ولعل المقصود بنشرة لودوفيكس هنا نشرة آبل •

٢ ـ ذكر البغدادي في قصيدة لأبي محجن أن « هذا الشعر لم يروه ابن الأعرابي وابن السكيت في ديوانه »(٢٨)، وفي قصيدة أخرى: « رواها ابن الأعرابي وابن السكيت في ديوانه » (٢٩)، وفي خبر: « روى الأعرابي في شرح ديوان أبي محجن ••• »(٣٠) • فرأى الدكتور المنجد « للديوان ثلاثة شروح: للعسكري ولابن الأعرابي ولابن السكيت • ولم يصل الينا الشرحان الأخيران »(٣١) •

وقد فاته أيضاً أن شرح ابن الأعرابي قد وصل الينا، ولكن خزانة كرافت تضن به، كما تضن خزائن الغرب بجل تراثنا المنهوب • وأشار بروكلمان الى مخطوط هذا الشرح، فقال: « ديوان أبي محجن برواية ابن الأعرابي (المتوفى ٢٣١ هـ /٨٤٦ م: كرافت ١٧٦ »(٣٢) •

☐ **تصحيحات:**

١ / ص ٥، س ٧: « طبعاً » بالتنوين •
أقول: الصواب: « طبعا » بألف الاثنين •

٢ / ص ٧، س ٢٠ « أخبار ابن الهندي » •
أقول: ان صواب العبارة: « أخبار أبي الهندي » • و « أبو الهندي » هي كنية الشاعر العباسي المخضرم عبدالله بن ربعي الرياحي، كان جزل الشعر، وانما أخمله مقامه بسجستان وبخراسان وشغفه بالشراب وفسقه • انظر: الشعر والشعراء ٦٨٢، والأغاني ٨٠٢٧، وطبقات ابن المعتز ١٣٧ •

٣ / ص ١٤، س ١٦: « بتفسير ديوان محجن » •
أقول: صواب العبارة: « بتفسير ديوان [أبي] محجن » •

٤ / ص ١٥، س ١٩: « في الاصابة، واستيعاب: وسائلي الناس عن حزمي » •
أقول: الرواية في الاصابة ٤/١٧٥ والاستيعاب ٤/١٨٦: « وسائل الناس عن حزمي » •

٥ / ص ١٦، س ١٨: « في الأغاني، والاستيعاب:
والقــوم أعلم أني مــن سراتهم اذا سما بصر الرعديد للشفق » •

أقول : هذه رواية الأغاني فحسب ، ولكن الطابعة أعملت فيها تصحيفاً وتحريفاً ·
والرواية في الأغاني ٧٢٣٧ :

والقومِ أعلم أنـي مـن سراتهمُ اذا سما بصر الرعديدةِ الشِفـقِ

وأما في الاستيعاب ١٨٦/٤ ، فثمة روايتان :

١ ـ اليوم أعلم أني مـن سراتهم اذا تطيش يـد الرعديدة الفرِق

٢ ـ واليوم أعلم أني من سراتهم اذا سما بصـر الرعديدة الشفـق

٦ / ص ١٧ ، س ١٨ : « في الاصابة : وحامل الرمح أرديه من العلق » ·
أقول : في رواية الاصابة ١٧٥/٤ : « وحامل الرمح » بالحاء تحريف ، والصواب : « وعامل الرمح » بالعين ، أي : صدره·وفي « أرديـه » تحريف آخـر ، والصواب : « أرويه » ·

٧ / ص ١٧ ، س ١٩ : « في الاستيعاب : وحامل الرمح أرويه » ·

أقول : الرواية في الاستيعاب ١٨٦/٤ :« وعامل » بالعين ، ولكن الطابعة حرّفته في حاشية المحقق ! ·

٨ / ص ١٧ ، س ٢٠ : « في الأغاني : وعاسل الرمح أرويه » ·

أقول : الرواية في الأغاني ٧٢٣٦ : « وعامل الرمح أرويه » بالميم · وأما «عاسل» بالسين ، وهو تحريف ، فهي رواية خزانة الأدب ٥٥٥/٣ ·

٩ / ص ١٨٨ ، س ٢٠ : « في الاستيعاب ،والخزانة : وأطعن الطعنة النجلاء لو علموا».
أقول : هذه رواية الاستيعاب ١٨٦/٤،والرواية في خزانة الأدب ٥٥٥/٣ : « ···قد علموا » ، فلعل « لو » تحريف « قد » ·

١٠ / ص ١٩ ، س ١٦ :

وأكشف المـازق المكروب غُمتـه وأكتم السر فيـه ضربـة العنـق

وقال المحقق : « لا يوجد في الأغاني ، والاصابة ، والخزانة » ·

أقول : البيت في الأغاني والاصابة وخزانة الأدب معاً ، وروايته في الأغاني ٧٢٣٧ ملفقة من صدر البيت الرابع وعجز السادس :

وأطعن الطعنة النجلاء عن عُرُض وأحفظ السر فيـه ضربة العنقِ

وروايته في الاصابة ١٧٥/٤ وخزانة الأدب ٥٥٥/٣ :

قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتـم السـر فيـه ضربة العنق

١١ / ص ٢١ ، س ١٩ : « في الأغاني ، والاصابة ، والاستيعاب : فيكثر المال » ·

أقول : الرواية في الأغاني ٧٢٣٧ ، والاصابـة ١٧٥/٤ ، والاستيعاب ١٨٦/٤ : « سيكثر المال » بالسين ·

١٢ / ص ٢٣ ، س ٣ : « الاصابة ١٧٤/٤:البيت الأول » ٠
أقول : صواب هذا التخريج : « الاصابة١٧٥/٤ : البيت الأول والثاني » ٠

١٣ / ص ٢٥ ، س ١٠ : « قال الشاعر :

ان كنت تارك ما أمرتكَ فاجلسِ

أي : أنجدْ »
أقول : ان المحقق لم يعرفه ٠ وهو عجز بيت ، نسبه ابن منظور في اللسان (جلس) الى عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم، ونسبه الزبيدي في التاج (جلس) الى مروان بن الحكم ٠ وصدره فيهما :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها

١٤ / ص ٢٥ ، س ١٣ : « اني أكْرُ » بكسرالهمزة الأولى ٠
أقول : الصواب : « أني » بفتحها على التأويل بمصدر منصوب على المفعولية للفعل « أبلِغْ » في بيت قبله ، والتقدير : « أبلغ لديك أبا حفص ٠٠٠ أني أكْرُ » ٠ وهي رواية الأغاني ٧٢٢٤ ٠

١٥ / ص ٣٧ ، س ١١ : « مروج الذهب :ثلاثة أبيات ١ ــ ٣ » ٠

أقول : صواب هذا التخريج : « مروج الذهب ٣٢٣/٢ : ١ ــ ٣ ، ٨ » ٠

١٦ / ص ٣٧ ، س ١٢ : « البداية والنهاية٤٤/٧ دون تسمية الشاعر » ٠
أقول : صواب هذا التخريج : « البدايةوالنهاية ٤٤/٧ : ١ ــ ٣ لأبي محجن » ، فلو تابع المحقق الفاضل خبر الأبيات لعرف أن ابن كثير قد سمّى صاحبها ٠

١٧ / ص ٣٩ ، س ٩ : « فلما هُزم المشركون أقبل أبو محجن راجعاً ، فرأته امرأة من المسلمين ، فظنّت أنه منهزم ، فقالت :

من فارس كره الطعان يعيرني   فرساً اذا نزلوا بمرج الصُفَّر

أي : يعيرني رمحه ، لأطاعن به عنه » ٠
أقول : في « فرساً » تحريف واضح ، والصواب « رمحاً » ، فمقام الفرس ليس مقاله هنا ، وانما حديث المرأة ــ كما ترى ــ عن رمح ، تطاعن به عنه ٠ والبيت برواية « رمحاً » في الأغاني ٧٢٣٣ ٠

ويؤكد هذه الرواية ما قاله لها أبو محجن(٣٣) :

ان الكرام على الجياد مبيتهم   فدعي الرماح لأهلها وتعطري

١٨ / ص ٤٣ ، س ١٧ : « في الطبري ، والأغاني ، ومروج الذهب : وأنا وفدهم ٠٠فان جحدوا فسل بهم عريفاً » ٠

أقول : هذه رواية الأغاني ، لكن الطابعة حرّفتها · والرواية في الطبري ٣/٥٤٩:

وأنّــا وفدُهـم في كـل يــوم　　　فان عميوا فسـل بهـم عريفـا

وفي الأغاني ٧٢٣٠ :

وأنّــا رِفدهـم في كـل يـوم　　　فان جحدوا فسـل بهـم عريفـا

وفي مروج الذهب ٢ / ٣٢٥ :

وأنّـا رفدهــم في كـل يــوم　　　فان عتبـوا فسـل بهم عريفـا

١٩ / ص ٤٣ ، س ١٩ : وفي مروج الذهب ،والطبري بيت آخر :

وليلــة قادس لم يشعـروا بـي　　　ولم أشعر بمخرجـي الزحوفـا

أقول : يبدو أن المحقق الفاضل لم ينتبه الى أن البيت ذاته قد روي في الأغاني ٧٢٣٠ أيضا ، وهو من مصادره أو أن سقطا قد وقع في العبارة ، فيكون صواب الحاشية : « وفي مروج الذهب ، والأغاني ، والطبري : البيت » ·

٢٠/ص ٤٤ ، س ١٧ : « وعمّـه الـذي ذكره : عيلان بن سلَمة الثقفي » و ص ٤٥ ، س ٨ : « فقال عيلان » وص ٤٥ ، س ١٠ : فلورآنـي أبو عيـلان » و ص ٥٧ ، س ١٢ : « عيلان بن سلمة » ·

أقول في « عيلان » بالعين المهملة تصحيف ، والصواب « غيلان » بالغين المعجمة · انظر : طبقات فحول الشعراء ٢٥٩ و ٢٦٩ ،والمحبّر١٣٥ و ٣٥٧ و ٤٧٥ ، وجمهـرة أنسـاب العرب ٢٦٨ ·

٢١ / ص ٥٠ ، س ١١ : « في الأغاني بيت زائد ، لم تروه المصادر الأخرى · هو :

ليَروى بخمر الحُصْ لحمي فانني　　　أسيرٌ لها من بعد ماقد أسوقُها » ·

أقول : ان الطبري في تاريخه ٣/٥٤٩ ،وهو من مصادره ، رواه أيضاً ، فقال :

وتَروي بخمر الحصْ لحدي فانني　　　أسير لهـا من بعد ما قد أسوقهـا

٢٢ / ص ٥٢ ، س ١٧ : « ولم أك طائعاً » ·

أقول : في « طائعاً » بالطاء تصحيف ، لعله طباعي · والمحقق اعتمد رواية الأغاني، ففيه ٧٢٣٨ : « ولم أك كائعاً » بالكاف ،أي : هيَّاباً جباناً ·

٢٣ / س ٥٣ ، س ١٩ : « الاستيعاب : خصال بدلا من مناقب » ·

أقول : ان رواية الاستيعاب ٤/١٨٥ :« مثالب تُفسد » مكان « مناقب تُهلك » ·

٢٤ / ص ٥٤ ، س ٦ و ٧ : « ص ٥٥٥ » .

أقول : الصواب : « ٣/٥٥٥ » لأن مايذكره المحقق في الجزء الثالث من خزانة الأدب .

⊙ **تخريج الديوان كاملا :**

● **القصيدة الأولى : « ... وعن خلقي » من الديوان ١٥ :**

١ ، ٣ ـ ٥ ، ٩ ، ٢ ، ٧ ـ ٨ في الأغاني ٧٢٣٦

١ ـ ٢ ، ٦ ، ٣ ـ ٥ ، ٩ ، ٢ ، ٧ ـ ٨ في الاستيعاب ١٨٦/٤ .

١ ـ ٢ ، ٦ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ـ ٨ في الاصابة ١٧٥/٤ .

١ ـ ٢ ، ٦ ، ٣ ـ ٥ ، ٩ ، ٧ ـ ٨ في خزانة الأدب ٣ / ٥٥٥ .

١ ـ ٢ ، ٦ ـ ٨ في شرح أبيات المغني للسيوطي ١٠٢/١ .

١ ـ ٣ ، ٥ ـ ٦ في البصائر والذخائر ٣١١/٢ .

١ ـ ٢ ، ٦ في الشعر والشعراء ٤٢٤ .

١ ، ٦ في العقد الفريد ٥٠/١ .

١ في الحماسة البصرية ٩/١ .

وصدره في شرح أبيات المغني للسيوطي ١٠٣/١ ، وخزانة الأدب ٥٥٥/٣ .

٩ في كنز الحفاظ ١٠ ، واللسان ، والتاج (فجر) و (فنا) و (فنع) .

● **القصيدة الثانية : « ... مُروقُها » من الديوان ٢٣ :**

١ ـ ٢ في الشعر والشعراء ٤٢٤ ، وتاريخ الطبري ٥٤٩/٣ ، والعقد الفريد ٥٧/٨ ، ومروج الذهب ٣٢٥/٢ ، والأغاني ٧٢٢١ و ٧٢٣١ و ٧٢٣٦ ، والبصائروالذخائر ٣١١/٢ ، والأزهية ٦٧ ، والاستيعاب ١٨٥/٤ ، والكامل في التاريخ ٤٧٦/٢ ، واللسان (فنع) ، والاصابة ١٧٥/٤ ، وشرح أبيات المغني للسيوطي ١٠١/١ ، وخزانة الأدب ٥٥٠/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٨/١ و ١٣٩ .

١ في الأغاني ٧٢٤٠ ، وجمهرة انساب العرب ٢٦٨ ، والحماسة البصرية ٣٨٩/٢ . وصدره في الاستيعاب ١٨٦/٤ ، وشرح أبيات المغني للسيوطي ١٠٣/١ ، وخزانة الأدب ٥٥٥/٣ .

٢ في خزانة الأدب ٥٥٢/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٤١/١ .

● **القصيدة الثالثة : « قد حبَسا » من الديوان ٢٤ :**

١ ـ ٥ في الأغاني ٧٢٢٤ .

● القصيدة الرابعة : « ... والحلَق» من الديوان ٢٦ :

لم أجد شيئاً منها فيما بين يدي من مصادر ، فتفرد بها الديوان .

● القصيدة الخامسة : « ... مجاهل »من الديوان ٢٩ :

١ ـ ١١ في الأغاني ٧٢٣٤ .

١ ـ ٢ ، ٩ في فتوح البلدان ٢٥٣ .

● القصيدة السادسة : « ... الغنائما» من الديوان ٣٤ :

● والقصيدة السابعة : « ... ما لم يعاودِ » من الديوان ٣٥ :

● والقصيدة الثامنة : « ... عالِمِ »من الديوان ٣٦ :

تفرّد بهذه القصائد الديوان .

● القصيدة التاسعة : « ... وثاقيا »من الديوان ٣٧ :

١ ـ ٣ ، ٥ ـ ٨ في الأغاني ٧٢٢٨ ، والاستيعاب ١٨٣/٤ ، وخزانة الأدب ٥٥٤/٣ .

١ ـ ٣ ، ٩ في طبقات فحول الشعراء ١٦٨ ،والشعر والشعراء ٤٢٣ .

١ ـ ٣ ، ٨ في تاريخ الطبري ٥٤٨/٣ ، ومروج الذهب ٢٢٣/٢ ، والكامل في التاريخ ٤٧٥/٢ .

١ ـ ٣ في تاريخ الطبري ٥٧٥/٣ ،والبداية والنهاية ٤٤/٧ .

١ ـ ٢ في فتوح البلدان ٢٦٠ ، والاستيعاب ١٨٤/٤ ، والكامل في التاريخ ١٠٧/٤ ، وشرح أبيات المغني للسيوطي ١٠١/١

١ في الأغاني ٧٢٣٢ ، والاستيعاب ١٨٧/٤ ، والحماسة البصرية ٢٠/١ ، والاصابة ١٧٤/٤ .

● القصيدة العاشرة : « ... وتعطّري» من الديوان ٣٩ :

١ في الأغاني ٧٢٣٤ .

● القصيدة الحادية عشرة : « ... أشيَبُ » من الديوان ٤٠ :

تفرّد بها الديوان .

● القصيدة الثانية عشرة : « ... والحرَجْ » من الديوان ٤١ :

١ ـ ٤ في الأغاني ٧٢٣٣ ، والعقد الفريد ٥٧/٨ .

١ ـ ٢ في الحماسة البصرية ٣٨٧/٢ .

● القصيدة الثالثة عشرة : « ··· سيوفا » من الديوان ٤٣ :

أنظر : القطعة الثانية من المستدرك الذي صنعته ، فقد خرّجتها هناك كاملة ·

● القصيدة الرابعة عشرة : « ··· ووقوفُ » من الديوان ٤٤ :

● والقصيدة الخامسة عشرة : « ···لحاذرِ » من الديوان ٤٦ :

تفرّد بهما الديوان ·

● القصيدة السادسة عشرة : « ··· من مناها » من الديوان ٤٧ :

٢ ، ١ في ديوان سحيم ٦٢

● القصيدة السابعة عشرة : « ··· عُروقُها » من الديوان ٤٨ :

٢ ـ ٨ في خزانة الأدب ٣/٥٥٢

٣ ـ ٤ ، ٦ ـ ٨ في شرح أبيات المغني للبغدادي ١/١٤١ ·

١ ـ ٢ ، ٩ في تاريخ الطبري ٣/٥٤٩ ، والأغاني ٧٢٣١

١ ـ ٤ في شرح أبيات المغني للسيوطي ١/١٠١

١ ـ ٢ في الشعر والشعراء ٤٢٤ ، والعقد الفريد ٨/٥٧ ، ومروج الذهب ٢/٣٢٥ ، والأغاني ٧٢٢١ و ٧٢٣٦ ، والبصائروالذخائر ٢/٣١١، والأزهية ٦٧ ،والاستيعاب ٤/١٨٥ ، والكامل في التاريخ ٢/٤٧٦ ، واللسان (فنع) ، والاصابة ٤/١٧٥ ، وخزانة الأدب ٣/٥٥٠ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١/١٣٨ و ١٣٩

١ في الأغاني ٧٢٤٠ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٨ ، والحماسة البصرية ٢/٣٨٩ · وصدره في الاستيعاب ٤/١٨٦ ، وشرح أبيات المغني للسيوطي ١/١٠٣ ، وخزانة الأدب ٣/٥٥٥

٢ في شرح أبيات المغني للبغدادي ١/١٤١

● القطعة الأولى : « ··· لِجِبِ » منزيادات الديوان ٥١ :

١ ـ ٨ في المؤتلف و المختلف ١٣٢ ، وخزانةالأدب ٣/٥٥٦

● القطعة الثانية : « ··· مُشيحُ » من الديوان ٥٢ :

١ ـ ٥ في البيان والتبيين ٣/٣٣٨ لأبي محجن ·

١ ـ ٢ ، ٤ ـ ٥ ، ٣ في الحماسة البصرية ١/٦٧ لـ « نَضلة السُّلَميّ » ، وكان حقيراً دميماً ذا عزّة وبأس » · وفي البصائر والذخائر ٤/٢١١ لرجل من بني سُلَيم ·

١ ، ٤ ـ ٥ ، ٣ في مجالس ثعلب ١/٧ لرجل من بني سُليم · وانظر مناسبة الأبيات في مجالس ثعلب ١/٧ ، والبصائر والذخائر ٤/٢١١ ·

٢ ـ ٣ في اللسان ، والتاج (فصح) لنَضلة السُّلَمي ·

● **القطعة الثالثة : « ... والأثرْ » من الديوان ٥٢ :**

١ ـ ٣ في الشعر والشعراء ٤٢٤

● **القطعة الرابعة : « ... المقادرِ » من الديوان ٥٢ :**

١ ـ ٤ في الأغاني ٧٢٣٨

وعجز ٣ في الأغاني ٧٢٣٩

● **القطعة الخامسة : « ... أرتحِلْ »من الديوان ٥٣ :**

١ ـ ٣ في الأغاني ٧٢٢٦

● **القطعة السادسة : « ... قليلِ » من الديوان ٥٣ :**

١ ـ ٢ في الأغاني ٧٢٢٥ لأبي محجن .

وهما دون نسبة في سفر السعادة ٨٥٦

١ في الاصابة ٤/١٧٥ لأبي محجن .

٢ في رسالة الملائكة ١٦ ، واللسان ، والتاج (فوم) لأبي محجن . وقال الأستاذ محمد الدالي ، محقق سفر السعادة : إن الثاني « لأحيحة بن الجلاح في الطبري ١/٢٤٧ ، ومجمع البيان ١/١٢٢ ، والقرطبي ١/٤٢٥ ، والبحر ١/٢١٩ » .

● **القطعة السابعة : « ... الحليما » من الديوان ٥٣ :**

١ ـ ٢ في الأغاني ٧٢٣٦ ، والاصابة ٤/١٧٥ لأبي محجن .

وهما في الاستيعاب ٤/١٨٥ لأبي محجن ولقيس بن عاصم .

لحقٌ بـ « الروايات » :

● **القصيدة الأولى : « ... عن خُلُقي» من الديوان ١٥ :**

١ ـ في الاستيعاب ، والاصابة : « لا تسألِ » مكان « لا تسألي » .

وفي البصائر ، وخزانة الأدب : « القوم عن مالي » مكان « الناس عن مالي » .

وفي الحماسة البصرية ، وشرح السيوطي: « وسائلي الناسَ » ، وفي الاصابة ،وخزانة الأدب : « وسائلِ الناس » مكان « وسائلي القوم » .

وفي العقد الفريد : « عن بأسي وعن خُلقي » ، وفي الحماسة البصرية : « عن فعلي وعن خلقي » ، وفي الاصابة ، وشرح السيوطي، وخزانة الأدب : « عن حزمي وعن خلقي »، وفي البصائر : « ما ديني وما خلقي » مكان« عن ديني وعن خُلقي » .

٢ ـ في البصائر : « هل يعلم القوم أني» ، وفي شرح السيوطي : « القومُ أعلم أني » مكان « قد يعلم الناس أنّا » .
وفي البصائر ، وشرح السيوطي : « اذاتطيش يدٌ » مكان « اذا سما بصرٌ » .
وفي شرح السيوطي : « الرّعديد » ، وهو دون تاء مختل ، مكان « الرعديدة » .

٣ ـ في البصائر : « حصته ... أرويه » مكان « نحلتَه ... أرويهِ » .

٤ ـ في الاستيعاب : « لو علموا » مكان« عن عُرُضٍ » .
وفي خزانة الأدب : « بالازياد » بالياء المثناة ، وهو تصحيف ، مكان « بالازباد » بالباء الموحدة .

٥ ـ في الأغاني : « فان » مكان « وان».

وفي البصائر : « شديد الظلم » مكان « شديد الحقد » .

٦ ـ في الاستيعاب ، وشرح السيوطي :« قد أركبُ الهول مسدولا عساكره» ، وفي البصائر : « وأكشف المأقطَ المكروه غُمّته» ، وفي العقد الفريد : « قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرُضٍ » ، وهو صدر البيت الرابع ، مكان « وأكشف المأزق المكروب غمته» .
وبهذه الرواية البيت ملفق من صدر الرابع وعجز السادس .

٧ ـ في الأغاني ، والاستيعاب ، والاصابة ، وشرح السيوطي : « قد يُعسِرُ المرءحيناً وهو ذو كرم » مكان « قد يقتر المرء يوماً وهوذو حسب » .
وفي الاستيعاب ، والأغاني : « تثوب » مكان « يثوب » .

وفي شرح السيوطي : « الغنى للعاجز الحمِقِ » مكان « سَوام العاجز الحمقِ » .

٨ ـ في الأغاني ، والاصابة ، وشرح السيوطي : « سيكثر » مكان «قد يكثر » .
وفي الأغاني : « بعد اليَبس » بفتح الياء ، وهو لغة ، وفي شرح السيوطي : « بعد اليُبس » بضم الياء ، وهو لغة أخرى ، مكان« بعد الجدب » .

٩ ـ في اللسان ، والتاج (فجر) : « فقد » مكان « وقد » .

وفي الاستيعاب ، وكنز الحفاظ : « بذيقنَع » بالقاف ، وهو تصحيف ، وفياللسان، والتاج (فجر) : « بذي فجَرٍ » ، وفياللسان، والتاج (فنا) : « بذي فنا ٍ » ، وفياللسان والتاج (فنا) : « ورواية يعقوب في الألفاظ:« بذي فنَعٍ » ، واللسان (فجر) : «ويروى: بذي فنَعٍ » ومال ذو فنع وفنا ٍ وفجَر :ذو كثرة ، مكان « بذي فنعٍ » .

● **القصيدة الثانية : « ... عُروقُها » منالديوان ٢٣ :**

١ ـ في تاريخ الطبري ، والعقد الفريد، والأغاني ٧٢٣١ و ٧٢٤٠ ، وجمهرةأنساب العرب ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ١/ ١٣٩ : « اذا متِ » بكسر الميم ، وهو لغة،

وفي الشعر والشعراء : اذا متُّ بكسر الميم وضمها ، مكان « اذا مُتُّ » بضمها ٠ وفي مروج الذهب : « الى جنبَ » بالتاء المثناة ،وهو تصحيف ، وفي العقد الفريد : « الى ظلّ » ، وفي تاريخ الطبري ، والأغاني ٧٢٤٠ ،والأزهية ، والكامل في التاريخ : « الى أصل» مكان « الى جنب » ٠

وفي الأغاني ٧٢٢١ : « تُروّي مُشاشي» مكان « تُرَوّي عظامي » ٠

وفي اللسان : « في التراب » ، وفيجمهرةأنساب العرب : « عند ذاك» مكان « بعدموتي»

٢ ــ في العقد الفريد ، والأزهية ، واللسان ، وشرح السيوطي ، والبغدادي١٣٨/١ و ١٤١ ، وخزانة الأدب ٥٥٠/٣ و ٥٥٢ :« في الفلاة » مكان « بالفلاة » ٠ وفي خزانة الأدب ٥٥٢/٣ : « أخاف اذا ما متّ لست أذوقها » ، وفي شرح البغدادي ١٤١/١ : « يقيناً اذا متُّ لست أذوقها » ، وفي الأغاني : « ويروى : اذا رحتُ مدفوناً فلست أذوقها » مكان « أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها » ٠ وفيالشعروالشعراء : « اذا متّ » بكسر الميم وضمها ، وفي الأزهية ، واللسان ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ١٣٨/١ و ١٣٩ : « اذا ما مِتُّ » مكان « اذا ما مُتُّ » ٠

وفي تاريخ الطبري : « ألاّ » مكان « أنلا » ٠

وفي البصائر ، والكامل في التاريخ : « أن لاأذوقَها » بالنصب على أنّ « أنْ » ناصبة للفعل ، مكان « أن لا أذوقُها » بالرفع اما علىاهمال « أنْ » ، واما على أنها مخففة من الثقيلة ، أي : أني لاأذوقها ٠انظر :الأزهية٦٧ ، وخزانة الأدب ٥٥٠/٣ ، وشرح البغدادي ١٣٨/١ ٠

● **القصيدة الخامسة : « ٠٠٠ مجاهلُ » من الديوان ٢٩ :**

٢ ــ في فتوح البلدان : « بالطّفّ نيل »مكان « بالطّفّ نيلَتْ » ٠

٣ ــ في الأغاني : « وأضحت » مكان « وأضحى » ٠

٧ ــ في الأغاني : « مُهرَتي مُزْبَئِرّة» أي : انتفش شعرها ، مكان « مهرتي مُزوئرّة » أي : نافرة ٠

٩ ــ في فتوح البلدان : « مرّت على » مكان « مررتُ على » ٠

● **القصيدة التاسعة : « ٠٠٠ وَثاقيا »من الديوان ٣٧ :**

١ ــ في طبقات فحول الشعراء : « أن تُطردَ » ، وفي فتوح البلدان : « أن تدعس»، وفي الأغاني ، والكامل في التاريخ ٤٧٥/٢ :« أن ترديَ » ، وفي الاستيعاب ١٨٧/٤ ، والحماسة البصرية : «أن ترتدي » ، وفيالاستيعاب ١٨٤/٤ ،وشرح السيوطي : « أن تلتقي » ، وفي الكامل في التاريخ ١٠٧/٤ :« أن تمرغ » ، وفي البداية : « أن تدحم » مكان « أن تُطعنَ » ٠

وفي البداية : « بالفتى » ، وهو تحريف، مكان « بالقنا » ・
وفي طبقات فحول الشعراء ، وفتوح البلدان ، ومروج الذهب ، والاستيعاب ، والكامل في التاريخ ، والحماسة البصرية ، والبداية ، والاصابة ، وشرح السيوطي : « وأترك » مكان « وأصبح » ・

٢ ـ في طبقات فحول الشعراء وتاريخ الطبري ٣/٥٧٥ ، والأغاني ، والبداية : « اذا قمتُ » بضمير المتكلم ، وهو الأصوب، وفي شرح السيوطي : « اذا شئتُ » مكان « اذا قمتَ » بضمير المخاطب ، ولا معنى له في البيت ・
وفي طبقات فحول الشعراء ، والبداية ، وشرح السيوطي : « غنّاني الحديد » بالغين المعجمة ، وهو من الغناء ، ويعني صوت الحديد وصلصلته اذا قام ، مكان « عنّاني الحديد» بالعين المهملة ・
وفي مروج الذهب : « فأغلقت » ، وفي فتوح البلدان ، والبداية ، وشرح السيوطي : « وغلّقت » مكان « وأغلقت » ・
وفي الاستيعاب ٤/١٨٣ و ١٨٤ : « مَصارعَ دوني قد » ، وفي تاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ ٢/٤٧٥ : « مصاريعُ دوني » ، وفي طبقات فحول الشعراء ، وفتوح البلدان ، والبداية ، ومروج الذهب : « مصاريع من دوني » مكان « مصارع من دوني » ・

٣ ـ في مروج الذهب : « وثروة » مكان « واخوة » ・
وفي طبقات فحول الشعراء ، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب : « فقد تركوني واحداً » ، وفي البداية : « وقد تركوني مفرداً » مكان « فأصبحت منهم واحداً » ・

٦ ـ في مروج الذهب ، والاستيعاب : « فلله » مكان « ولله » ・
وفي الاستيعاب : « يذهل » بالياء ، وهو تصحيف ، مكان « تذهل » ・
وفيه : « أثرتي » بالثاء ، وهو تحريف، مكان « أسرتي » بالسين ・

٧ ـ في الاستيعاب : « حبسنا » ، وفي خزانة الأدب : « حُبِستُ » مكان « حبيساً» ・
وفي خزانة الأدب : « أعمال » بفتح الهمزة ، وهو الصواب ، مكان « اعمال » بكسرها ، ولا معنى له في البيت ・

٨ ـ في تاريخ الطبري : « ألا » مكان « أن لا » ・
وفي الاستيعاب : « الخواليا » ، وهو تحريف ، مكان « الحوانيا » ・

٩ ـ في طبقات فحول الشعراء : « أريني سلاحي ・・ ما تزداد » مكان « هلمَّ سلاحي ・ لا تزداد » ・

● **القصيدة الثانية عشرة : « ・・・ وانحرج » من الديوان ٤١ :**

٢ ـ في العقد الفريد : « صهباء صافية» ، وفي الأغاني ، والحماسة البصرية : « صِرْفاً وأمزُجُها » مكان « ريّاً وأشربها» ・

وفي العقد الفريد : « طوراً وأشربها صرفاً وأمتزج » ، وفي الأغاني ، والحماسة البصرية : « رِيًّا وأطرب أحياناً وأمتزج »مكان « صِرفاً وأطربُ أحياناً فأمتزج » .

٤ ــ في العقد الفريد : « فتخفضُ الصوتُ أحياناً وترفعــه » مكان « تُرفَعُ الصــوت أحياناً وتخفضُــه » .

القصيدة الثالثة عشرة : « ... سيوفا » من الديوان ٤٣ :

١ ــ في الكامل في التاريخ : « نحن أكرمهم » مكان « نحن أجودها » .

٢ ــ في مروج الذهب : « وأكرمهم دروعاً سابغــاتٍ » ، وفي الكامل في التاريــخ : « وأكثرهم دروعاً سابغات » مكان « وأكثرها دروعاً ضافيات » .

وفي مروج الذهب ، والكامل في التاريخ:« وأصبرُهم » مكان « وأصبرُها » .

٣ ــ في تاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ : « وفدُهم » بالواو ، مكان « رفدُهم ». وفي تاريخ الطبري : « فان عميوا فسل بهمعريفا » ، وفي الكامــل في التاريخ : « فــان عَمُّوا فسل بهم عريفا » مكان « فان غضبوافسل رجلا عريفا » .

وفي الأغاني : « ولم أكرِهْ » مكان « ولم أشعر » .

القصيدة السادسة عشرة : « ... منمُناهما » من الديوان ٤٧ :

١ ــ في ديوان سحيم : « وتمنّيا ... استحييا » مكان « وتمنتا ... استحيتا » .

٢ ــ في ديوان سحيم : « وارفضَّ مدمعُ هــذه .. وأذريتُ دمعي في خــلال » مكان « وانهلَّ أدمعُ هذه ... وفاضت دموعي فيعِراض » .

القصيدة السابعة عشرة : « ... عُروقها » من الديوان ٤٨ :

١ ــ في تاريخ الطبري ، والأغاني٧٢٣١ و ٧٢٤٠ ، والعقد الفريد ، وجمهرةأنساب العربَ ، وشرح السيوطي ، والبغدادي١/١٣٩ : « اذا متِ » بكسر الميم ، وفي الشعــر والشعراء : « اذا متِ » بكسر الميموضمها ،مكان « اذا مُتّ » .

وفي العقد الفريد : « الى ظلّ » ، وفي مروج الذهب : « الى جنت » بالتاء المثناة ، وهو تصحيف ، وفي الشعر والشعراء ، والأغاني ٧٢٣٦ و ٧٢٢١ ، والبصائر ، وجمهــرة أنساب العرب ، والاستيعاب ، والحماسة البصرية ، واللسان ، والاصابة ، وشرح السيوطي، والبغدادي ١/١٣٩ ، وخزانة الأدب : « الجنب » مكان « الى أصل » .

وفي الأغاني ٧٢٢١ : « تُروّي مُشاشي» مكان « تروّي عظامي » .

وفي جمهرة أنساب العرب : « عند ذاك »، وفي الشعر والشعراء ، وتاريــخ الطبري ، والعقد الفريد ، ومروج الذهب ، والأغاني ،والبصائر ، والأزهية ، والاستيعاب ،والكامل

في التاريخ ، والحماسة البصرية ، والاصابة ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ١/١٣٩ ، وخزانه الادب ٣/٥٥٠ : « بعد موتي » مكان« في التراب » ٠

٢ ـ في العقد الفريد ، والأزهية ، واللسان ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ، وخزانة الأدب : « في الفلاة » مكان « بالفلاة».

وفي خزانة الأدب ٣/٥٥٢ : « أخاف اذاما مت لست أذوقها » ، وفي شرح البغدادي ١/١٤١ : « يقيناً اذا ما متُّ لست أذوقها » ،وفي الأغاني ٧٢٢١ : ويروى : اذا رُحتُ مدفوناً فلست أذوقها » مكان « أخاف اذا ماما مُتُّ أن لا أذوقَها » ٠

وفي الشعر والشعراء : « اذا ما متُّ » بضم الميم وكسرها ، وفي الأزهية ،واللسان ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ١/١٣٨و١٣٩:« اذا ما مِتُّ » بكسر الميم ، مكان « اذا ما مُتُّ » بضمها ٠

وفي تاريخ الطبري : « الاّ »مكان « أنلا » ٠

وفي الشعر والشعراء ، والأغاني ٧٢٣١، والأزهية ، وشرح السيوطي ، والبغدادي ١/١٣٨ و ١٤١ : « أن لا أذوقُها » بالرفع،مكان « أن لا أذوقَها » بالنصب ٠

٣ ـ في شرح السيوطي ، وخزانة الأدب:« عند المساء » مكان « بعد العشيّ » ٠

٤ ـ في شرح السيوطي ، والبغدادي ، وخزانة الأدب : « حقٌ معظَّمٌ » مكان « حقٌ منعـم » ٠

٥ ـ في خزانة الأدب : « بداكم » بالدال المهملة ، وهو تصحيف ، مكان « بذاكُمْ » بالذال المعجمـة ٠

وفيه : « فجرها » بالفاء ، وهو تحريف، مكان «تجرها » أي : جمع تاجر مثل صحب وصاحب ٠

وفيه : « فسوقها » بالفاء ، وهو تحريف، مكان « نسوقها » بالنون ٠

٦ ـ في شرح البغدادي : « المُدام » مكان« العُقار » ٠

٨ ـ في شرح البغدادي : « قَراها » بفتح القاف ، ولا معنى له في البيت ، مكان«قِراها» بكسرها ٠

٩ ـ في تاريخ الطبري : « وتُروي بخمر الحُصِّ لحدي » مكان « ليَروى بخمر الحُصِّ لحمي » ٠

● **القطعة الأولى :« ٠٠٠ لَجِيبِ » من زيادات الديوان ٥١ :**

٧ ـ في خزانة الأدب : « يستكيص » بالكاف ، وهـو تصحيف ، مكـان « يستليص » باللام ٠

● القطعة الثانية : « ٠٠٠ مُشيحُ » من زيادات الديوان ٥٢ :

١ ـ في مجالس ثعلب : « ألم تسال فوارسَ من سُلَيمٍ » ، وفي الحماسة البصرية : « ألم تسلِ الفوارس يوم غولٍ » مكان « ألم‌تسل الفوارس من سُلَيمٍ » ٠

٢ ـ في الحماسة البصرية : « وهو حُرٌ » مكان « وهو خِرْقٌ » ٠

٣ ـ في مجالس ثعلب ، والبصائر ، والحماسة البصرية : « ولم » مكان « فلم » ٠ وفي مجالس ثعلب : « الرِّغوة » بكسر الراء،وضمها لغتان ، وفي البصائر : « الرّغوة » بكسر الراء ، وفي اللسان ، والتاج : « وتحتَ الرّغـوةِ اللّبنُ الفصيحُ » و « ويروى : اللبن الصريح » ، والفصيح من اللبن : ما أخذت عنه الرغوة ، مكان « وتحت الرغوة اللبن الصريح » ٠

٤ ـ في مجالس ثعلب ، والبصائر ، والحماسة البصرية : « فشدَّ عليهمُ » مكان « فكرّ عليهمُ » ٠

٥ ـ في مجالس ثعلب ، والبصائر ، والحماسة البصرية : « وأطلقَ ٠٠ قتيلا منهمُ » مكان « فاطلق ٠٠ جريحاً منهمُ » ٠

● القطعة السادسة : « ٠٠٠ قليلِ » من‌زيادات الديوان ٥٣ :

١ ـ في سفر السعادة : « الى شموسَ » مكان « الى الشَّمُوسِ » ٠

٢ ـ في رسالة الملائكة : « أحسبيني »تحريف طباعي ، لا معنى له ، وفي الأغاني : « أحسَبُني » بفتح السين لغة ، وفي اللسان : « أحسِبُني » بكسر السين لغة أخرى ، مكان « أحسبُني » دون ضبط السين ٠

وفي ديوان أبي محجن ، ورسالة الملائكة ،وسفر السعادة ، واللسان : « واحدٍ » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف ، والصواب ما في الأغاني ، والتاج : «واجدٍ » بالجيم المعجمة ٠

وفي رسالة الملائكة : « قدم المدينة » مكان « وردَ المدينةَ » ٠

وفي الأغاني ، وسفر السعادة : « عن زراعة فُوْلٍ » باللام ، وهو تحريف ،والصواب ما في رسالة الملائكة ، واللسان ، والتاج : « عن زراعةِ فُوْمٍ » بالميم ٠ وكتب اللغة تستشهد بذلك البيت على أن « الفُوْم : الحنطة » ٠ وبهذه الرواية اختلف حرف‌الروي ـ وهو اللام ـ في البيت الأول عن حرف‌الروي في البيت الثاني ، وهو الميم ، من القطعة السادسة ، فتقاربا في مخرجيهما (اكفاءً) ٠

● القطعة السابعة : « الحكيما » مـن زيادات الديوان ٥٣ :

٢ ـ في الاصابة : « ولا أشفى بها أبداً سقيماً » ، ولعل « أشفى » تصحيف « أسقي» ، مكان « ولا أسقي بها أبداً نديما » ٠

⊙ فهرس أشعار شرح الديوان :

قافية البيت :	بحره :	قائلـه :	العدد :	الصفحة :
يجتلبُ	البسيط	ذو الرمَّة	١	١٨
الذوائب	الطويل	—	١	١٦
محمودُ	البسيط	—	١	١٦
الصُّفَّرِ	الكامل	امرأة من المسلمين	١	٣٩
وخيري	—	المنخَّل	١	١٥
فاجلسِ	الكامل	[عبدالله بن الزبير أو مروان بن الحكم]	١	٢٥
مقنعا	الرجز	—	١	٢١
طبقُ	البسيط	غيلان بن سلمة	٣	٤٥
فبرقْ	الرجز	—	١	٢١
ما أكبرك	الرجز	أبوعبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي	٣	٢٨
ونائلُ	الطويل	النابغة	١	٣١
الأناملُ	الطويل	كثيِّر	١	٣٣
نصلي	الهزج	—	١	١٨
المترنمِ	الكامل	عنترة	١	٤٢

★ ★ ★

⊙ لحق ب « فهرس الأعلام والأماكن » :

استدراكات :

(١)

في شذرات الذهب (١/٢٤)(١) : [الطويل]٠

١ ـ وسُمِّيتَ صِدِّيقاً وكلُّ مهاجـرٍ سواك يسمَّى باسمه غيرُ منكرِ
٢ ـ وبالغار اذ سُمِّيتَ بالغار صاحباً وكنتَ رفيقاً للنبيِّ المطهَّرِ
٣ ـ سبقتَ الى الاسلام والله شاهدٌ وكنتَ جليساً بالعريش المشهَّرِ

(١) انفرد ابن العماد برواياتها لأبي محجن في أبي بكر ، رضي الله عنه ٠ ولم أجدها فيما بين يدي من مصادر ٠

(٢)

في مروج الذهب (٢/٣٢٤)(١) : [الوافر] ٠

٥ ـ فان أُحبسْ فذلكمُ بلائي وان أُتركْ أُذيقُهمُ الحُتوفا(٢)

(١) خرّج المحقق الفاضل من « الأغاني ١٨/٢٩٣ ط٠ فرّاج ، الثقافة ، بيروت » و « مروج الذهب ٢/٣٢٤ » و «الطبري ٣/٥٤٩ » القطعة الثالثة عشرة من ديوان أبي محجن ٤٣ ، ولكنه لم ينتبه الى أن هذا البيت لم يروه أبو هلال العسكري في تلك القطعة من صنعته ديوان أبي محجن ، فيزيده في شعره ، ليكون البيت الخامس في القطعة ذاتها ٠ وفي ضوء هذه الزيادة يكون تخريج القطعة الثالثة عشرة من الديوان ٤٣ على هذه الصورة :
١ ـ ٥ في الأغاني ٧٢٣٠ ، وتاريخ الطبري ٣/٥٤٩ ، والكامل في التاريخ ٢/٤٧٦
١ ـ ٢ ، ٤ ، ٣ ، ٥ في مروج الذهب ٢/٣٢٤ ٠

(٢) في الأغاني : « فقد عرفوا بلائي ٠٠ أُطلَقْ أُجرِّعهم حُتوفا ـ والحتوف :جمع حتف ، وهو الهلاك والموت ٠

(٣)

في فُرحة الأديب (١٨٨)(١) : [الكامل]٠

١ ـ يا رُبَّ مثلكِ في النساء غريرةٍ بيضاء قد متَّعتُها بطَلاقِ(٢)
٢ ـ لم تدرِ ما تحتَ الضُلوع وغرَّها مني تجمُّلُ عِشرتي وخَلاقي(٣)

(١) التخريج :
١ ـ ٢ في فرحة الأديب ١٨٨ ، وقال الغُندجاني : « غلط ابن السيرافي في نسب

هذا البيت الى أبي محجن ، وانما غرّه أن قائل هذا البيت ثقفي ، لكنــه ليس بأبي محجــن ، انما هو غيلان بن سلمة الثقفي » .

١ ــ في الكتاب ١/ ٤٢٧ و ٢/ ٢٨٦ ، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ٥٤٠ لأبي محجن. وهو دون نسبة في شرح أبيات سيبويه للنحاس ١٦٦

(٢) قــال السيرافي : « الغــريرة : التي هي في غرّة من العيش ، لم تلقَ بؤساً ولا شدة في عيشها . قد متّعتُها بطلاق : جعلت تمتيعي لها الطلاق ، لأني لم أرض خُلُقها وطريقتها، فلم أصبر على قبح فعلها ، وان كانت حسنة الوجــه » و « الشاهد أنــه جعــل (مثلك) ــ وهو مضاف الى معرفة ــ في معنى نكرة مفردة، وجعلــه بمنزلــة المضاف الذي فيــه معنــى الانفصال فأدخل عليــه (رُبّ) شرح أبيات سيبويه ٥٤١ . وانظر : الكتاب ١/ ٤٢٧ و ٢/ ٢٨٦ ، وشرح أبيات سيبويه للنحاس ١٦٦ .

(٣) التجمّل : تكلّف الجميل . والخَلاق : النصيب من الخير والصَّلاح .

(٤)

في الأغاني (٢٢٦/٧)(١) : [المديد] .

١ ــ ويقولون اصطبحْ معَنا(٢) .

---

(١) روى الأصبهاني للثقفي شعراً على قافية اللام المضمومة ، جمعه المحقق الفاضل في ديوانه ، ولكنه لم يلتفت الى أوله الذي أشار اليه أبو الفرج ، فقال : « وأوله : ويقولون اصطبحْ معنا » فيزاد هذا الشطر في القطعة الخامسة من زيادات الديوان ٥٣ .

(٢) اصطبح معنــا ، أي : اشرب معنــا الصَّبوح ، وهي الخمر تُصطبَح .

(٥)

في تاريخ الطبري (٣/ ٨٩)(١) [المديد] .

١ ــ هــابتِ الأعــداء جانبنــــا	ثــم تغــزونــــا بنـــو سَلمــــه(٢)
٢ ــ وأتــانـــــا مالـــكٌ بهـــمُ	ناقضــاً للعهــد والحُــرمــــه(٣)
٣ ــ وأتونـــــا في منازلنـــــا	وقـــد كنـّــا أولي نقِمـــــه(٤)

---

١ ــ انفرد الطبري بروايتها للثقفي . ولم أجدها فيما بين يدي من مصادر .

٢ ــ بنــو سلمة : قاتــل بهم مــالك بن عــوف ثقيفاً . انظر : تاريخ الطبري ٣/ ٨٩ .

٣ ــ الحُرمة : الذمّة ، والحُرُمة بضم الراء يكون من باب ظُلمَة وظُلُمة ، أو يكون أتبع الضمّ الضمَّ للضرورة .

٤ ــ النَّقِمَة : المكافأة بالعقوبة .

□ العواشـي :

١ ـ الأغاني ٧٢٢٣ ·

٢ ـ المؤتلف والمختلف ١٣٣ ·

٣ ـ الاستيعـاب ١٨٢/٤ وانظـر : شرح شواهـد المغني للسيوطي ١٠١/١ ، وللبغدادي ١٤٣/١ ، وخزانة الادب ٥٥٣/٣ ·

٤ ـ الاصابة ١٧٣/٤ ·

٥ ـ جمهرة انسـاب العـرب ٢٦٨ وانظر : الاعـلام ٧٦/٥ ، ١٦٧/١ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٥٩٧/١ ·

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٥٩٧/١ ·

٧ ـ شرح ابيات المغني للسيوطي ١٠١/١، وللبغدادي ١٤٣/١ ·

٨ ـ الاصابة ١٨٢/٤ ، وخزانة الأدب ٥٥٣/٣ ·

٩ ـ الأغاني ٧٢٢٤ و ٧٢٢٥ ·

١٠ـ تاريخ الطبري ٣٨/٤ وفي الكامل في التاريـخ ٥٢٦/٢ : « ناصع » بالنـون والصـاد المهملة ، ولعلهـا تصحيف « باضع » بالباء والضاد المعجمة · وفي بروكلمان ١٦٧/١ : « باصع ، وهي مدينة مصوع » بالباء والصاد المهمـلة · وباضع : جزيرة في بحر اليمن · معجم البلدان ٣٢٤/١ ·

١١ـ راجع ذلك مفصلا في : تاريخ الطبري ٥٤٨/٣ ، ومروج الذهب ٣٢٣/٢ ، والأغاني ٧٢٢٤ و ٧٢٢٧ ، والاستيعاب ١٨٣/٤ و ١٨٧ ، والكامل في التاريخ ٤٧٥/٢ ، والاصابة ١٧٤/٤ ، وشـرح أبيـات المغنـي للسـيوطي ١٠١/١ ، وللبغدادي ١٤٣/١ ، وخزانة الأدب ٥٥٣/٣ ، وطبقـات فحول الشعراء ٢٦٨ ، والشعر والشعراء ٤٢٣ ·

١٢ـ الأغاني ٧٢٢٤ ·

١٣ـ انظر : ديوانه ٥٣ ·

١٤ـ الأغاني ٧٢٢٥ والخبر نفسه في الاصابة ١٧٤/٣ ·

١٥ـ شرح أبيات المغني للبغدادي ١٤٤/١ ·

١٦ـ الأغاني ٧٢٣١ والخبر نفسه في مروج الذهب ٣٢٥/٢ ، والكامل في التاريخ ٤٧٦/٢ ، وخزانة الأدب ٥٥٥/٣ ·

١٧ـ دائرة المعارف الاسلامية ٥٩٧/١ ·

١٨ـ جمهرة انساب العرب ٢٦٩ ويذهب الزركلي الى أن وفـاة أبي محجن كانت في سنة ٣٠ هـ/٦٥٠ م ولا ندري مصدره في ذلك · انظر : الاعلام ٧٦/٥ ·

١٩ـ الأغاني ٧٢٣٩ ·

٢٠ـ انظر : طبقات فحول الشعراء ٢٦٠ ·

٢١ـ طبقات فحول الشعراء ٢٦٨ ·

٢٢ـ دائرة المعارف الاسلامية ٥٩٨/١ ·

٢٣ـ مقدمة ديوان أبي محجن ٦ ·

٢٤ـ صدرت الطبعة الأولى منها عن دار الكتاب الجديد في بيروت عام ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م ·

٢٥ـ بروكلمان ١٦٨/١ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٥٩٩/١ ، وموسوعة المستشرقين ٣٥٠ ، ومقدمة المحقق ٩ ·

٢٦ـ دائرة المعارف الاسلامية ٥٩٩/١ ·

٢٧ـ الأغاني ٧٢٢٣ ·

٢٨ـ خزانة الأدب ٥٥٦/٣ ·

٢٩ـ خزانـة الأدب ٥٥٢/٣ ، وشـرح أبيـات المغني للبغـدادي ١٤١/١ ·

٣٠ـ خزانة الأدب ٥٥٥/٣ ·

٣١ـ ديوان أبي محجن ٥٤ ·

٣٢ـ بروكلمان ١٦٨ ·

٣٣ـ الأغاني ٧٢٣٤ وانظر : ديـوان أبي محجن ٣٩ ففيـه رواه العسكري : (مقيلهم فذري الجيـاد) · ولعل روايـة الأصبهاني ارجح ·

★ ★ ★

□ المصادر والمراجع :

١ ـ الازهية في علم الحروف لابي الحسن علي بن محمد الهروي(٤١٥ هـ) • تح : عبد المعين الملوحي • مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨١ •

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابي عبد البر النمري القرطبي (٤٦٣ هـ) • ط ١/١٣٢٨ هـ (مصورة دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ) •

٣ ـ الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) • ط ١/١٣٢٨ هـ (مصورة دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ ، وبهامشه الاستيعاب) •

٤ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي • ط ٥ دار العلم للملايين في بيروت ١٩٨٠ •

٥ ـ الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني (٣٥٦ هـ) • تح : ابراهيم الأبياري • دار الشعب في القاهرة ١٩٧١ •

٦ ـ البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤ هـ) • ط ٢ مكتبة المعارف في بيروت ١٩٧٤ •

٧ ـ البصائر والذخائر لابي حيان التوحيدي (٤١٤ هـ) •تح : د• ابراهيم الكيلاني • مكتبة اطلس ومكتبة الانشاء بدمشق دون تاريخ •

٨ ـ البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ هـ) • تح : عبد السلام محمد هارون • ط ٤ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٥ •

٩ ـ تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان • ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار • ط ٤ دار المعارف في مصر ١٩٧٧ •

١٠ـ تاريخ الطبري (٣١٠ هـ) • تح : محمد ابو الفضل ابراهيم • ط ٣ دار المعارف في مصر ١٩٧٩ •

١١ـ تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) • حققه عدد من المحققين ، ونشرته حتى الجزء الحادي والعشرين وزارة الاعلام في الكويت ١٩٨٤ وثمة نشرة اخرى منه كاملة للخيرية بمصر ١٣٠١ هـ •

١٢ـ جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي (٤٥٦ هـ) •ط ١ دار الكتب العلمية في بيروت ١٩٨٣ •

١٣ـ الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري (٦٥٩ هـ) • تح : د• مختار الدين احمد • دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في الهند ١٩٦٤ (مصورة عالم الكتب في بيروت دون تاريخ) •

١٤ـ خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (١٠٩٣ هـ) • مصورة دار صادر في بيروت دون تاريخ •

١٥ـ دائرة المعارف الاسلامية • دار الشعب في القاهرة دون تاريخ •

١٦ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس • تح : عبد العزيز الميمني • الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة ١٩٦٥ •

١٧ـ رسالة الملائكة للمعري (٤٤٩ هـ) • ط ٣ دار الآفاق الجديدة في بيروت ١٩٧٩ •

١٨ـ سفر السعادة وسفير الافادة لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي (٦٤٣ هـ) • تح : محمد أحمد الدالي • مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣ •

١٩ـ شرح ابيات سيبويه لأبي جعفر النحاس (٣٣٨ هـ) •تح : أحمد خطاب • ط ١ مطابع المكتبة العربية بحلب ١٩٧٤ •

٢٠ـ شرح ابيات سيبويه لأبي محمد يوسف بن ابي سعيد السيرافي (٣٨٥ هـ) • تح : د• محمد علي سلطاني • دار المأمون للتراث في بيروت ودمشق ١٩٧٩ •

٢١ـ شرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ٠تح : أحمد ظافر كوجان ٠ دار مكتبة الحياة في بيروت دون تاريخ ٠

٢٢ـ شرح شواهد المغني لعبد القادر البغدادي (١٠٩٣ هـ)٠ تح : أحمد يوسف دقاق ، وعبد العزيز رباح ٠ ط ١ دار المامون للتراث في دمشق ١٩٨١ ٠

٢٣ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ) ٠ ط ٢ دار المسيرة في بيروت١٩٧٩٠

٢٤ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ٠ تح : أحمد محمد شاكر ٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٧ ٠

٢٥ـ طبقات الشعراء لابن المعتز (٢٩٦ هـ) ٠ تح : عبد الستار أحمد فراج ٠ ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٧٦ ٠

٢٦ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (٢٣١ هـ) ٠تح : محمود محمد شاكر ٠ دار المعارف بمصر ١٩٧٤ ٠

٢٧ـ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨ هـ) ٠ تح :محمد سعيد العريان ٠ دار الفكر في بيروت دون تاريخ ٠

٢٨ـ فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري (٢٧٩ هـ) ٠ تح :رضوان محمد رضوان ٠ دار الكتب العلمية في بيروت ١٩٧٨ ٠

٢٩ـ فرحة الأديب للاسود الفندجاني (بعد ٤٣٠ هـ) ٠ تح :د٠ محمد علي سلطاني ٠ دار قتيبة بدمشق ١٩٨٠ ٠

٣٠ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦٠٦ هـ) ٠ دار صادر في بيروت ١٩٧٩ ٠

٣١ـ الكتاب لسيبويه ، عمرو بن عثمان (١٨٠ هـ) ٠ تح :عبد السلام محمد هارون ٠ عالم الكتب في بيروت دون تاريخ ٠

٣٢ـ كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (٥٠٢ هـ) ٠ تح : الأب لويس شيخو المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٥ ٠

٣٣ـ لسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) ٠ تح : عدد من الأساتذة ٠ دار المعارف بمصر ١٩٨١ ٠

٣٤ـ مجالس ثعلب ، أبي العباس أحمد بن يحيى (٢٩١ هـ) ٠تح : عبد السلام هارون ٠ ط ٢ دار المعارف في مصر ١٩٥٦ ٠

٣٥ـ المحبر لأبي جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ) ٠ تح : د٠ايلزة ليختن شتيتر ٠ دائرة المعارف العثمانية في حيدر أباد بالهند ١٣٦١ هـ (مصورة دار الآفاق الجديدة في في بيروت دون تاريخ) ٠

٣٦ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٦ هـ) ٠ تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٤ ٠

٣٧ـ المؤتلف والمختلف لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي(٣٧٠ هـ) ٠ تح : عبد الستار أحمد فراج ٠ دار احياء الكتب العربية بمصر ١٩٦١ م ٠

٣٨ـ موسوعة المستشرقين لدكتور عبد الرحمن بدوي ٠ ط ١دار العلم للملايين في بيروت ١٩٨٤ ٠

* * *

رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية
بين الواقع والخيال

د. حسين سلمان جمعة

ليس جديداً أن يعرض باحث لهذه الرحلة ؛ فقد سبقه بحاثة أجلاء وتصدوا لمعالجتها • ولعل هذا يزيد في دقة مناقشة القضية ، وقد يسبق الوهم الى أن الستار أسدل نهائياً عليها ؛ ليجعل الولوج فيها ـ كما يُعتقد ـ غير ذي فائدة • ويبقى عزاء المرء لنفسه أن الرؤية الادبية أو الانسانية او الاجتماعية لا تقف وحيدة الجانب عند وجهة نظر ما، كما انه لا تستطيع حدود مهما كانت صارمة أن تنهي أية قضية فكرية • وهذا ما حفز النفس على معرفة رحلة امرىء القيس الى القسطنطينيه معرفة جديدة قوامها الأساسي دراسة شعره •

يحثنا المنهج على قراءة النص الشعري قراءة واعية متأملة دون أن ينفصل عن الظروف المحيطة به وبصاحبه ، والوقوف على ملابساته التاريخية والاجتماعيه والنفسية ، ويدعونا في الوقت نفسه الى معرفة آراء القدماء والمحدثين ، والالمام بأخبار الشاعر • وهذا يدفعني الى القول : اني لا آدعي السبق بعرض الحقائق جميعها في هذا المقال ولكني أسعى الى توثيق رحلة الشاعر وتصحيح ما التصق بها من آراء زائفة ، وأسعى الى تصويب الرآي في وفاته لأجلو خرافة الحلة المسمومة التي قيل : انها كانت سبب هلاكه في ديار الغربة والارتحال ، وقضايا أخرى تتضح من الحديث عنهما •

الآن آستاذنك للرحيل لنتعرف سوياً على امرىء القيس الشاعر الجاهلي القديم الفحل الذي وضعه ابن سلام في طبقته الأولى(١) • فهو لم يسبق الشعراء لأنه قال « ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ »(٢) • لقد كان أحسن أهل طبقته تشبيهاً ؛ وهو « أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب

وما سواه من القصيدة »(٣) · وسبق عمر بن الخطاب هؤلاء جميعاً الى معرفة قدر امرىء القيس وقيمة شعره فقال : « امرؤ القيس سابقهم ـ [يعني الشعراء] ـ خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصح بصر »(٤) · وقال علي بن ابي طالب : « رأيت امرأ القيس أحسن الشعراء نادرة وأسبقهم بادرة ، وانه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »(٥) ·

وامرؤ القيس لقب له واسمه حُنْدج بن حجر بن الحارث بن عمرو (المقصور) بن حجر (آكل المرار) ···(٦) ، ولد في بلاد بني أسد(٧) ، وترعرع في بني حنظلة ، وأقام بينهم حتى اذا شب وصلب عوده انطلق لسانه بالشعر متأثراً بخاله المهلهل الذي يعد أول من رقق الشعر(٨) · كما تأثر بمن سبقه من الشعراء مثل ابن خذام الذي أشار اليه الشاعر في احدى قصائده(٩) :

عوجا على الطَّلل المُحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خِذامِ

كان امرؤ القيس غزلاً ميالاً بطبعه الى اللهو ، مستغرقاً بحب الشهوات طالباً اللذات · وشجعه على هذا السلوك مُلكُه وترفه وما منحه الله من جمال الوجه حتى قيل : ان الناس فيسوا بجمالهم اليه(١٠) · وفوق ذلك كله كان استعداده الفطري مقوياً لذلك السلوك فجاهر بغزله الصريح ، وتحدث عن النساء بأسمائهن في أكثر من قصيدة · لهذا عده ابن قتيبة من عشاق العرب وزناتها(١١) · بيد أن المرء يلاحظ أن حياته لم تستمر على الشاكلة التي وصم بها ؛ فمقتل أبيه غيّر سلوكه ، وجعله رجل جد يسعى الى الأخذ بثأره بعد أن كان رجل لهو يدب الى حرمات النساء · فقد حرم الطيبات التي أحبها على نفسه وأقسم ألا يصيب امرأة وألا يغتسل أو يدهن أو يشرب خمرة حتى يدرك وتره من قاتلي أبيه · ويبدو أنه يملك همة عالية وينطوي على نفس طموح الى المجد ، ولا أدل على هذا من شعره ، الذي يقول فيه(١٢) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ـ ولم أطلب ـ قليل من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدركُ المجد المؤثل أمثالي

حمل امرؤ القيس عبء الثأر على عاتقه دون اخوته ، وأخذ يعد العدة لحرب بني أسد وأظهر رغبة أكيدة في اعادة ملك أبيه وأجداده؛ فارتحل طالباً العون مرة من أخواله بني ربيعة، ومرة يستحث أبناء عمومته من اليمن وقبائلها(١٣) · ولكنهم جميعاً انفضوا عنه بعدما أمدوه ، بينما يرى أنه لم يشتف من بني أسد·· ويبدو أن الحظ قلب له ظهر المجن مع القبائل العربية ؛ بل لعل مما زاد الأمر وبالاً عليه ما فعله المنذر بن جابر السماء · فقد جهز جيشاً كبيراً يطلب فيه عنق امرىء القيس ، فهرب لاجئاً الى (المعلى) ـ وكان من جديلة طيء ـ(١٤) ولم ينجه الا دخوله في ملك الروم ، وكانت بلاد الشام تابعة لقيصر بيزنطة · وقد ذكر ذلك في شعره مادحاً المعلى الذي أجاره ومنعه من المنذر(١٥) :

كأني اذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فما مَلِك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشآم

لعل هذه الأسباب دفعت الشاعر الى التوجه نحو القيصر لمساعدته . واعتقد أنه في طليعة من توجه الى ملك رومي ؛ اذ لم يحدث لملك عربي من مملكة كندة العربية الأعرابية أن فعل هذا . فمملكة كندة كانت شوكة في حلق الفرس والمناذرة معاً ، ولم تكن على وفاق مع الغساسنة ؛ ولا أدل على هذا من البيتين السابقين . وقد استفاد الروم من هذا العداء القائم بين كندة من جهة وبين الفرس والمناذرة من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر كندة فقد تهاوت أركانها تحت وطأة ظلم ملوكها لرعيتهم ، مما جعلها تنقض عليهم واحداً تلو الآخر ، وكان بنو أسد قد انقضوا على حجر فقتلوه . لم يكن تهدم هذه المملكة بسبب ضغوط خارجية عنها ـ وان كان الفرس والروم يمدون احيانا الى ضرب القبائل العربية بعضها ببعض كما فعلوا بين المناذرة والغساسنة ـ وانما كان نتيجة أكيدة للظلم الذي مارسه ملوكها .

توجه امرؤ القيس الى السموءل بناء على نصيحة رجل من بني فزارة كان يأتيه في حصنه؛ في تيماء . وتروي الأخبار أن للسموءل منزلة خاصة عند الحارث الغساني ، وهذا بدوره سيمد للشاعر يد العون ، ويوصله الى القيصر(١٦) . وينتهي امرؤ القيس الى السموءل فينزل مع ابنته وحاجاته وأصدقائه عنده ، ويستودعه ابنته وأدرعه وماله ، ويبقي معها يزيد بن الحارث بن معاوية ، ويختار لصحبته جابر بن حُنَي التغلبي وعمرو بن قميئة . ويروي الخبر أن السموءل وجه امرأ القيس الى الحارث الغساني وزوده برسالة شفاعة كي يتوسط له عند قيصر(١٧) .

ان نظرة متأملة الى هذا الخبر ـ وان تكن عجلى ـ توضح بهتانه ، وتفضح كذب ناسجيه . ولعل أكثر ما ينفيه محاولة الاستيلاء التي قام بها الحارث الغساني على أدرع الشاعر(١٨) ، وكلنا يعرف أن الحارث قتل أحد أجداد امرىء القيس وهو عمرو بن حجر الملقب بالمقصور(١٩) . فاستعانته بالحارث للوصول الى بلاط الروم قصة عجيبة غريبة تنكرها أخبار القبيلتين ، وخبر أمرىء القيس معه باطل ينكره الشعر الذي تقدم ولا يؤكده أي بيت في الديوان . فلو قرأه المرء لما وجد بيتاً واحداً يوحي برد الجميل للحارث الغساني . ترى ألا يستحق مدحاً وثناء على صنيعه ؟ وكيف يتفق عدم ذكره وكلنا يعرف أن الشعراء شدوا الركاب اليه مادحين ؟ ولعل أبرزهم النابغة الذبياني وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت وغيرهم(٢٠) . ويبرز شعره أنه مرَّ بحوران وخملى وأوجر من بلاد الشام ويذكر أنه لم ير ما يُسرُّ به بعد أن قطعت الحاجة أسباب اللقاء بأهله ، وبأسماء . ويجتاز تلك الأماكن الى حماة وشيزر على إبله التي أجهدها في السير(٢١) :

تذكرت أهلي الصالحين وقد اتت	على خَمَلى خُوص الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران في الآل دونها	نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطّعَ أسبابُ اللبانة والهوى	عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العَود منه يَمُنُّه	أخو الجهد لا يلوى على من تعذرا

ويتساءل المرء ما الذي دعاه الى تغييرطريقه عن الحارث الغساني وهو الوسيط له عند ملك الروم ؟!! ويذكر أنه مرّ ببعلبك فانكرته مثلما أنكره اهلها وابن جريج في حمص :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ... ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

ان توجه امرىء القيس الى قيصر ثابت من خلال هذه القصيدة الموثقة ، ولم يكن ادعاء • وتراه مصمماً على رحلته مقيماً العذر لنفسه بقوله لو اراد غزو بني اسد بقبائل من حمير لفعل ؛ وهو الذي ألجأهم الى وادي (جو ناعط) باليمامة : كما يفهم من القصيدة :

فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بجسرةٍ ... ذمول اذا صام النهار وهجّرا

عليها فتى لم تحمل الارض مثله ... أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا

هو المنزل الآلاف من جو ناعطٍ ... بني أسدٍ حزناً من الأرض أوعرا

ولو شاء كان الغزو من أرض حميرٍ ... ولكنه عمداً الى الروم أنفرا

وتظهر القصيدة أن الشاعر عمرو بن قميئة الشيخ المجرب لم يصدق أن امرأ القيس سيبر بميثاقه ، ولم يتيقن من هذا الا حين أدرك أن الاميال تفصله عن دياره ؛ فما كان منه الا أن بكى غربة الوطن والأهل • وقد وجد حتفه يمشي بين يديه ؛ بل انه يسير اليه بأقدامه • وأحس بهذا يوم رأى (الدرب) أمامه • والدرب ــ على ما يراه الدكتور عبدالحفيظ السطلي في لقاء معه ــ ممر مرصوف بالحجارة يصل ما بين بلاد الشام والروم لا تؤثر فيه عوامل الطبيعة؛ ليكون العبور عليه ميسوراً للمشاة والخيل صيفاً وشتاءً(٢٢) • عقدت الدهشة لسان عمرو ، وضاق ذرعاً بما يحس به من فراق الأهل والخوف من المجهول فلم يتمالك من البكاء • أما شاعرنا فقد طفق يهدىء من روع الرجل ، ويمنيه بالأماني حينما يعود ملكاً وسيداً في قومه :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك انما ... نحاول مُلكاً أو نموت فنعذرا

واني زعيم ان رجعت مُملكاً ... بسيرٍ ترى منه الفرانق أزورا

ويؤرخ لنا ما لاقاه في طريقه من اعراض الأصحاب ، وقد ازدوجت آلام الغربة • فكلما توقع من انسان حسن الصحبة ورجا رفقته بدا منه الانكار وعدم الرضى • كما يحصي لنا عدد الليالي التي قضاها بعد مغادرته أراضي الجزيرة (خلف منطقة الحساء) :

اذا نحن سرنا خمس عشرة ليلةً ... وراء الحساء من مدافع قيصرا

اذا قلت : هذا صاحب قد رضيته ... وقرّت به العينان بُدّلت آخرا

كذلك جدّي ما اصاحب صاحباً ... من الناس الا خانني وتغيّرا

ويعترف الشاعر بأنه خاض حروباً مع أشخاص غرباء في مواضع مـن حلب (تادف وقُذاران) • وكان انتصـاره في حربه هـذه تذكره بأمجاد آبائه من قبـل ؛ ولعلها تخفف من حرقة غربته كما تخفف مـن آلامه لتنكب الأصدقاء :

ألا رُبَّ يوم صالـح قد شهدتـه ... بتاذف ذات التل من فوق طرطرا

ولا مثـل يوم في قُذاران ظلتـهُ ... كـأني وأصحابي على قرن أعفرا

وتنقطع أخبار عمرو بن قميئة الذيقيل فيه : « بعض شعر امرىء القيس لعمرو ابن قميئـة وليس ذلك بشيء »(٢٣) • وقـد تكون وفاته حدثت إبان هذه الظروف فمات في غربتـه دون هـدف فلقبته العرب بعمرو الضائـع(٢٤) •

اذا وقع أمر الله فليس لأمره دافـع ، فامرؤ القيس نفسه توفي في طريقه الى قيصر دون أن يصل الى غايته • فالقدر أبى عليه أن يحقق رغبته فنكبه بأبيه وبأصدقائه وأخيراً بنفسه• ولنا من قصيدة رواها المفضل الضبي دليل على ذلك(٢٥) :

الا أبلـغ بني حجر بـن عمرو ... وأبلـغ ذلـك الحـيَّ العـريـدا

بانـي قـد بقيت بقـاء نفس ... ولم اخلـق سلاماً أو حـديـدا

فلـو انـي هلكت بـدار قـومي ... لقلت : المـوت حـق لا خلـودا

ولكنـي هلكـت بارض قـوم ... بعيـد مـن ديـاركم بعيـدا

اعالج مُلـك قيصـر كـل يـوم ... وأجـدر بالمنيـة ان تعـودا

بـارض الـروم لا نسب قـريب ... ولا شـاف فيُسند أو يعـودا

فلو أني نسيت هذا الحزن القاتل على شبابه ، وهذا الاحساس الممض بالموت بعيداً عن ديار وطنه لا يمكن أن أنسى هذه العبارة« أعالج ملك قيصر كل يوم•••» فهو ما يزال يجهـد للوصول الى ملك الروم وهيهـات أن يتحقق له ما يريد « وأجدر بالمنية أن تعودا »• مات الشاعر غريباً قرب أنقرة بأرض الروم؛ وكان هـذا المكان خلق لدفـن الغرباء عـن أوطانهم قبل أن يدركوا غاياتهم(٢٦) :

اجـارتنـا ان المـزار قـريب ... واني مقيـم ما أقـام عسيبُ

أجارتنـا إنّـا غريبان ههنـا ... وكـل غريب للغـريب نسيبُ

لا يغير هذا البيتان ــ وهما من زيادات أبي سهل ــ حقيقة نهاية حياة شاعرنا المبدع• انتهت رحلتـه قرب أنقرة ، واغترب غربتـه الأبدية في قبره ، وهي أصعب من الغربة عن الأهل ، دفن الى جنب تلك المرأة(٢٧) وفيـه يقول القائل ــ وقد نسب الى الشاعر ــ (٢٨):

ربُ طعنـةٍ مثعنجـرهْ ... وجفنـة متحـيـرهْ

وقصيـدة محبـرهْ ... تبقـى غـداً بانقـرهْ

هل انتهى الامر عند هذه النقطة ؟ بالطبع لا • فموت الفجاءة دهم شاعرنا وقد نكبه الدهر بالجدري والجرب ، ولكن من أراد أن يميته بالحلة المسمومة لم ينه رحلته على هذه الشاكلة بل جعلها رحلة ممتعة ، فنسج له قصة حب مع ابنة القيصر • وقيل: ان الملك الرومي استعظم فعل امرىء القيس الدخيل الذي قدم طالباً عونه ومدده • صار القيصر المتهتك فجأة شريفاً أبياً تندفع الحمية الى رأسه حين تناهى الى مسامعه ذلك النبأ(٢٩) •

ولم ينته السخف عند هذا الخبر بل أدخل السمَّار امرأ القيس الى الحمام مع القيصر • وكان الشاعر قد رآه (أقلف) فذكر ذلك في شعره(٣٠) :

اني حلفت يميناً غير كاذبة ... أنك أقلف إلا ما جلا القمر

اذا طعنت به مالت عمامته ... كما تجمع تحت الفلكة الوبر

لعمري كيف يدخل الملك مع امرىء القيس عارياً وتثور حميته عليه في الوقت نفسه حينما أحب ابنته ؟

واذا تركت أخباراً كثيرة عارية عن الصحة فانني أتوقف على خبر الطماح الأسدي واسمه حبيب ، وكان امرؤ القيس قتل أخاه؛ فطوى كشحاً على مستكنة واندس الى بلاط القيصر ــ وكان منه بمكان ــ وعمل على ايغار صدره ، واحتال له وأشار اليه أن يبعث الى الشاعر بالحلة المسمومة ففعل(٣١) • واذا كان العقل يقبل وجود رجل في بلاط الروم فان العقل يجانب الحقيقة لو اقتنع بفكرة الحلة المسمومة • ولا أدل على ذلك من شعره الموثق الذي يقر فيه بمكائد الطماح على الرغم من البعد المكاني بين الاثنين(٣٢):

لقد طمَح الطماح من بُعد أرضه ... ليلبسني من دائه ما تلبسا

وقبل أن أعرض لاثبات وفاة امرىء القيس بسبب الجدري والجرب والحمى أتوقف عند تواريخ الروم • فهي تذكر وفادة أمير على القيصر يدعى قيساً ، وتثبت أنه كان أوفد ابنه معاوية قبل قدومه اليه ، وكان القيصر قد حثَّ والي اليمن وحليفه ملك الحبشة على اعانة ذلك الأمير العربي • وهوما ذكره توتوز وبروكوب(٣٣) • وهذا أمر مقبول عقلياً ومنطقياً لأنه قريب الى الواقع؛ أما أن يمده بجيش فهذا محال « فليس هناك مأرب له قيمته في نظر القيصر يجعله يزود امرأ القيس بجيش كالذي تصفه الروايات »(٣٤) ، اذ كان في الغسانيين الكفاية للوقوف أمام المناذرة أولاً ؛ كما كان فيهم ــ ثانياً ــ الوقوف أمام القبائل العربية ولا سيما أن شوكة كندة قد ماتت • ولا ينسى المرء أن يذكر وفاة امرىء القيس التي حدثت ما بين سنتي ٥٣٠ ــ ٥٤٠ م(٣٥) وكان حكم جوستنيان ما بين ٥٢٧ــ٥٦٥ بعد الميلاد(٣٦) • وهذا يعني أن امرأ القيس توجه ــ على الأغلب ــ الى قيصر الروم نحو ٥٣٠ م(٣٧) •

واذا كانت الأخبار قد شاعت حول رحلة امرىء القيس فانا نرى أن الذي وصل الى القيصر هو الأمير العربي ــ الكندي وابن عم الشاعر قيس بن سلمة • ويؤكد هذا بروكلمان(٣٨) ؛ كما يؤكد عدم وصول الشاعر الى بيزنطة الدكتور جواد علي اذ قال:

« لم تشر الأخبار عن سفره الى القسطنطينية وعن كيفية وصوله الى قيصر ، ويظهر من شعره على كل حال أنه سلك طريق الشام ، وأنه مرَّ بحوران وبعلبك وحمص وحماة وشيزر • أما بعد ذلك الى عاصمة الروم فلانعرف عنه شيئاً »(٣٩) • ويبدو أن بعض الباحثين لم يرق له الا ايصال شاعرنا الى القيصر ليمده بالعون • ويظهر هذا الباحث نزعة مقيتة كان القربان لها امرؤ القيس(٤٠) • ويمكنني الآن عرض خبر يؤدي أهدافاً عظمى للحقيقة المجردة • فتواريخ الروم تذكر أيضاً أن رجلاً أصيب بالجدري فمات بسببه وتنص هذه المرة على اسمه بامرىء القيس « وذكر في كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرىء القيس أمر أن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ففعلوا • وكان تمثال امرىء القيس هناك الى أيام المأمون • وقد شاهده الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة »(٤١) •

يضعنا هذا الخبر أمام أسئلة هامة منها: هل يعقل أن ينحت ملك تمثالاً لرجل أحب ابنته وطارحها الغرام ؟ أو هل يكون منطقياً أن يُنحت تمثال لامرىء القيس ؛ وكان الملك نفسه قد بعث اليه بالحلة المسمومة ليقتله ويتخلص منه ؟ بينما يشير الخبر بوضوح الى اقامة صرح فوق ضريح امرىء القيس • وهذا يدل على احترام القيصر للرجل القادم اليه، كما ينفي مقدرة الطماح على ايذاء امرىء القيس مهما حاول لديه • ويشير الخبر بدقة الى وفاته قبل أن يدرك القسطنطينية ؛ فقد بلغته وفادة الأمير العربي ، ومن ثم وفاته بعد ذلك • وكان الملك يأمل طمعاً في خطب ود حليف جديد من العرب مع الغساسنة • ولو لم يكن هذا يجمع بين الطرفين لما صنع التمثال أبداً ، فالتمثال رمز لتقدير الشاعر الأمير واعتراف من الملك بمكانته في القبائل العربية •

وأراني أعرض هنا للحلة المسمومة التي ادعى أصحابها أنها كانت سبباً في وفاة الشاعر ـ ولعل الذي يبطل هذه الخرافة ما حققناه من الرحلة سابقاً ، وما بين أيدينا من شعره الموثق ، وقد يكون جابر بن حني التغلبي من نقل الينا أخبار الشاعر وشعره(٤٢) • فكيف يستقيم له أن ينقل شعره صادقاً ويخفي عنا أخباره عند القيصر وأخبار الحلة المسمومة ؟

ونستفيد من الخبر الموجود في الكتاب الرومي القديم أن ذلك الرجل مات بالجدري • وهذا حق لا يمارى فيه ، لأن امرأ القيس يقرّ بمرضه الذي جعله ينتقل على قرٍّ صنعه له جابر بن حني التغلبي ، « وجابر هذا من بني تغلب ، وكان هو وعمرو بن قميئة يحملانه »(٤٣) • قال الشاعر(٤٤) :

فسحَّت دموعي في الرداء كأنها ... كلىً من شعيب ذات سحٍّ وتهتانِ
اذا المرء لم يخزُن عليه لسانه ... فليس على شيءٍ سواه بخزّانِ
فاما تريني في رحالة جابرٍ ... على حرجٍ كالقرِّ تخفق أكفاني

تأمل هذا اليأس الذي يطوي نفس الشاعر؛ فثيابه غدت أكفاناً له وقد أشبه الأموات؛

صار يسحُّ دمعه تهتاناً دون أن ينبس ببنتشفة حرصاً على كرامته ؛ وهو الذي ملأ الدنيا شعراً ، وفرّج كرب المكروبين :

فيا رُبَّ مكروبٍ كررتُ وراءه   وعانٍ فككتُ الغلَّ عنه ففدّاني

ويشير الى سبب وفاته في سينيته التي رواها الأصمعي • ويعرض فيها لوصف الحمى التي تدهمه ليلاً فتؤرقه فلا يغمض له جفن كأنه أصيب بالنقرس وهذا الداء قديم طالما عاوده سابقاً ، فاذا تنفس الصبح انكب على وجهه ملازماً النوم ، على حين اذا عسعس الليل تفرغ لمهومه ؛ وما آل اليه من حال سيئة(٤٥) :

فلو آن أهل الدار فيها كعهدنا   وجدت مقيلاً عندهم ومعرّسا

فلا تنكروني انني أنا ذاكم   ليالي حلَّ غولاً فالعسا

فاما تريني لا أغمض ساعة   من الليل الا أن أكبَّ فانعسا

تأوبني دائي القديم فغلّسا   أحاذرُ أن يرتدَّ دائي فأنكسا

لقد أرعبت الحمى امرأ القيس كما أرعبت المتنبي الذي أبدع في وصفها وان سبقه شاعرنا الى طرق موضوعها(٤٦) • ثم يذكرنا بماضي شبابه متأسياً عليه وقد كانت الكواعب الحسان ترعوي اليه • ويعود مرة أخرى الى عرض مرضه ، اذ ضاقت ذراعه ذرعاً باللباس فلم يطقه ؛ وقد غزت القروح جسمه • ودب الخوف في أوصاله ، وأيقن أنه سيدرج في أكفانه تندبه الحسان ، فصرخ متألماً ومتمنياً لو نفق مرة واحدة وانتهت آلامه:

وما خفت تبريح الحياة كما أرى   تضيق ذراعي أن أقوم فألبسا

فلو أنها نفس تموت جميعةً   ولكنها نفس تساقط أنفسا

ترافقت الحمى مع الجدري والجرب وتبدلت صحته سقماً ، وصار وجهه الوسيم دميماً ، وآلت سعادته الى شقاء وقد تحول الموت عنده الى بؤس حقيقي :

وبُدلت قرحاً دامياً بعد صحة   لعل منايانا تحولن أبؤسا

ويروي السكري قطعة شعرية يتضح منها الأمراض المختلفة التي داهمت الشاعر • فالجدري صيره مقروحاً فتخاله يلبس جبة منها ، بل انه يهرش جلده كالمعرور ؛ وكأنه نكب بالنقرس ؛ وبدا القرح منقوشاً في جسمه كنقش الخواتم(٤٧) :

لمن طلل داثر آيُهُ   تقادم في سالف الاحرسِ

فاما تريني بي عُرّةٌ   كأني نكيبٌ من النقرسِ

وصيّرني القرح في جبّةٍ   تخالُ لبيساً ولم تلبسِ

ترى أثر القرح في جلده   كنقش الخواتم في الجِرجسِ

وذكر محقق الديوان في أعلى المقطوعة أنه قالها بأنقرة يذكر علته . وأكثر من تعرض لتحديد وفاته ذكروا أنه مات بالجدري ولكنهم جعلوه في أثناء عودته(٤٨) .

تفاقم الأمر على الشاعر المبدع وقد نكبه الدهر مرتين ؛ مرة حين ألبسه داء الجدري جبة من القروح وأثقله بالحمى والجرب ؛ ومرة أخرى حين اتهمه القصاص والسمار بأنه توفي بسبب الحلة المسمومة لأنه بقي على عهره وتهتكه . ونسوا أنه آلى على نفسه ألا يدهن بدهن وألا يشرب خمراً أو يغتسل ... حتى يدرك ثاره(٤٩) .

بقي لي أن أتوقف على أمر آخر أجده هاماً في حياة امرىء القيس ورحلته. فالتركيب الجسدي وفسّر له الاستعداد الطبيعي لعدم تحمل المرض وهو يقرّ بضعفه لأنه شيخ هرم ، ويذكر هذا في سينيته السابقة .

ألا ان بعد العُدمِ للمرء قنوةً   وبعد المشيب طول عمرٍ وملبسا

ولعل في تركيبه العضوي ما يقوي قبول استعداده للأمراض الجلدية فتظهر القروح أو الجرب أو تشقق الجلد كلما تقدم العمر بالمرء .

كلمة أخيرة لا بد منها لتنتهي الحديث عن هذه القضية برمتها . لو عرض باحث ما لشعر امرىء القيس الموثق ومحصه لما وجد تعريضاً بالقيصر الذي أسلمه الى الموت ، ولا بالطماح الأسدي الذي احتال له عند القيصر، ولما وجد ذكراً لابنة القيصر تلك الصبية التي فتنت الشاعر ـ وهو الذي لا يستطيع أن يمسك لسانه عن التغزل وذكر النساء بأسمائهن ـ ولما وجد أية اشارة في شعره الموثق والمنحول الى تلك الحلة المزعومة التي ادت الى وفاته . فهل يعقل أن يذكر الجرب (العرة) والجدري (القرح) والحمى (التي تجعله أبداً يقظاً في ساعات الليل) ولا يذكر الحلة ؟ حتماً هذا محال .

وأنا لا أكتم أحداً سري ، فأنا أقر برحلة امرىء القيس الى الحد الذي عولت عليه سابقاً من خلال شعره الموثق الموجود بين ظهرانينا، ولكني أنكر بشدة استخفاف السمار والقصاص والرواة بعقل الانسان . فلما عملوا على تقوية روح القصص حول الحلة المزعومة أتموا رحلة امرىء القيس الى بلاط القيصر وأفرحونا بقصص أخرى مختلفة عنها . واذا كان عملهم القصصي يحظى باعجابي لقوة الخيال الذي يحمله واحكام الصنعة فأن تدجيلهم يثير حفيظتي عليهم ؛كما يثير شفقتي على تراثنا الأدبي العربي الذي لحقه خلط وزيادات أفقدته بهاءه الأصيل، ويبقى لك أن تحكم .

* * *

□ الحواشـي :

١ ـ محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص ٥١ ·

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٥ ، وانظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٨ ·

٣ ـ السيوطي : المزهـر ج ٢ ص ٤٧٩ ، وانظر ابن سـلام :طبقات فحول الشعراء ص ٥٥ ·

٤و٥ ـ ابن رشـيق : العمـدة ج ١ ص ٩٤ ، وابن قتيبة :الشعر والشـعراء ج ١ ص ١٢٧ والسيوطي : المزهـر ج ٢ ص ٤٧٨ ·

٦و٧و٨ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ٩ ص ٧٧ ـ ٧٨ ، والسيوطي : المزهر ج ٢ ص ٤٧٦ ·

٩ ـ الديوان ـ ط ٣ ـ مصر : ص ١١٤ ، والجزائر : ص ٢٥٠، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٨ ، وذكر ان اسم خذام روي على وجوه مختلفة منها : حزام ، حمام ···

١٠ـ البغدادي : خزانة الأدب ، مجلد ١ ص ١٦٠ ·

١١ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٢ ·

١٢ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٣٩ ، والجزائر ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ·

١٣ـ الأغاني ج ٩ ص ٩٠ ، وتاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٩ ·

١٤ـ الأغاني ج ٩ ص ٩٣ ·

١٥ـ الديوان ـ مصر ـ ص ١٤٠ ·

١٦ـ الأغاني ج ٩ ص ٩٦ ـ ٩٧ ·

١٧ـ المصدر السابق ج ٩ ص ٩٢ ـ ٩٣ ·

١٨ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٩ ·

١٩ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٩٣ ·

٢٠ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٨ ، وطبقـاتفحول الشعراء ص ١٦٠ ·

٢١ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٥٦ ـ ٧١ ، والجزائر : ص ١٦٣ ·

٢٢ـ ويرى الدكتور السطلي ان مثل هذا الدرب بقي معروفاالى عهد قريب في منطقة من حلب يقال لها (باب الهوى) على حين جاء في معجم البلدان لياقوت أن الدرب مضيق قـربطرسوس ، مادة (درب) ج ٢ ص ٤٤٧ ·

٢٣ـ ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ١٦٠ ، وانظـــرابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٠٥ ·

٢٤ـ الأغاني ج ١٥٨/١٦ ـ ١٥٩ · ١٨ ص ١٣٩ ، وجواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٣ ·

٢٥ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٢١٣ ، والجزائر ـ ص ٤٢٥ ·

٢٦ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٣٥٧ ، والجزائر ـ ص ٤١٠ ، والأغاني ج ٩ ص ١٠١ ـ مع اختلاف الرواية ·

٢٧ـ الأغاني ج ٩ ص ٩٩ ـ ١٠١ ·

٢٨ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٣٤٩ ، والجزائر ص ٤٧ ، وص٥٩ وفيها تفصيل ٠

٢٩ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٠٩ ، والأغاني ج ٩ص ٩٩ ، وانظر الديوان ـ الجزائر ـ ص ٤٦ ـ ٤٧ ٠

٣٠ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٢٨٠ ، يقال للصبي اذا كان قصيرالغرلة : قد ختنه القمر ، ورجل اقلف لم يختن ، والغرلة جلدة الذكر ٠

٣١ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٢١٣ ٠

٣٢ـ المصدر السابق ص ١٠٨ ، والجزائر ـ ص ٢٣٩ ٠

٣٣ـ مقدمة الديوان ـ الجزائر ـ ص ٤٨ ، وشعراء النصرانية ـ لويس شيخو ـ ج ١ ص ٣٥ ، ودائرة المعارف البريطانية٠

٣٤ـ علي الجندي ـ تاريخ الأدب الجاهلي ج ٢ ص ٥٥ ٠

٣٥ـ انظر الزركلي : الاعلام ، امرؤ القيس ، ويحدد سنة مولده (١٣٠ ق هـ ، و ٤٨٧ م) وسنة وفاته (٨٠ ق هـ ، و ٥٣٩ م) وجرجي زيدان : تاريخ آداب العربية ج ١ ص١٠٧ ، وفؤاد افرام البستاني : الروائع ص يج ، وجواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٥ وانفرد لويس‌شيخو فقال بوفاته سنة ٥٦٥ م : شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥، واصلح علي الجندي بين الجميع فمد بسنة وفاته بين‌سنتي ٥٣٩ ـ ٥٦٥ م ؛ تاريخ الأدب الجاهلي ج ٢ ص ٥٧ ٠

٣٦ـ انظر المصادر السابقة ، ومقدمة الديوان ـ الجزائر ـص ٤٨ ٠

٣٧ـ انظر جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٥ ٠

٣٨ـ بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ـ ج ١ ص ٩٨ ـ الترجمة العربية ٠

٣٩ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٣ ٠

٤٠ـ فؤاد افرام البستاني : الروائع ص يب ٠

٤١ـ الديوان ـ بيروت ، صادر ـ ص ٢٩ ٠

٤٢ـ سليم الجندي : امرؤ القيس ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

٤٣ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٩٠ ٠

٤٤ـ المصدر السابق ص ٩٠ ، والجزائر ص ٢١٠ ـ ٢١١ ٠

٤٥ـ الديوان ـ مصر ـ ص ١٠٥ ، والجزائر ـ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ٠

٤٦ـ ديوان المتنبي ـ صادر ـ ص ٤٨٤ ومن أبياته في وصف‌الحمى :

وزائرتي كان بها حياء ... فليس تزور الا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

كان الصبح يطردها فتجري ... مدامعها بأربعة سجام

٤٧ـ الديوان ـ مصر ـ ص ٣٣٩ ٠

٤٨ـ انظر هامش رقم (٣٥) ٠

٤٩ـ الأغاني ج ٩ ص ٨٨ ٠

المصـادر والمراجـع :

١ ـ الأصفهاني : الأغاني (صورة عن طبعة دار الكتب) القاهرة ـ الجزء التاسع ، والجزء الثامن عشر ـ طبعة الهيئـة المصرية العامة ١٩٧٠ م ٠

٢ ـ امرؤ القيس : ١ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعـارف بمصـر ـ الطبعة الثالثـة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م ٠

٢ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق الشيخ ابن أبي شنب ـ الجزائر ـ الشركة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م ٠

٣ ـ ديوان امرىء القيس ـ بيروت ـ دار صادر ـ د/تاريخ ٠

٣ ـ امرؤ القيس : الأستاذ سليم الجندي ـ دراسة ـ دمشق، ١٩٣٦ م ٠

٤ ـ بروكلمـــان : تاريـخ الأدب العـــربي ـ ترجمـةعبد الحليم نجار ـ القاهرة ـ دار المعارف ج ١ ـ ١٩٥٩ م ٠

٥ ـ البغدادي : خزانة الأدب ـ بيروت ـ دار صادر ـ ط ١ ٠

٦ ـ جرجي زيدان : تاريخ آداب العربية ـ القاهـرة ـ دارالهلال ـ ١٩٥٧ م ٠

٧ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بغداد ـ المجمع العلمي العراقي ٠

٨ ـ ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقـده ـبيروت ـ دار الجيل ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط ٤ ـ ١٩٧٢ م ، وانظر ط القاهرة ـ المكتبة التجارية١٩٥٥ م ٠

٩ ـ الزركلي : الأعلام ـ القاهرة ـ ١٩٢٨ م ٠

١٠ـ ابن سـلام : طبقـات فحـول الشـعراء ـ القاهـرة ـمطبعة المدني ـ قراه وشرحه الأستاذ محمود محمد شـاكر ـ ١٩٧٤ م

١١ـ السيوطي : المزهر في علوم اللغة وانواعها ـ القاهرة ـدار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ شرحه وضبطه وعلق حواشيه الأساتذة محمد جاد المولى والبجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ٠

١٢ـ علي الجندي : تاريخ الأدب الجاهلي ـ القاهرة ـ مكتبـةالانجلو المصرية ط ٣ ـ ج ٢ ـ ١٩٦٩ م ٠

١٣ـ فؤاد افرام البستاني : الروائع ـ بيروت ـ ١٩٣٣ م ٠

١٤ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ـ تحقيق وشرح أحمد محمدشاكر ـ القاهرة دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م ٠

١٥ـ لويس شيغو : شعراء النصرانية ـ بيروت ـ الطبعة الكاثوليكية ١٨٩٠ م ٠

١٦ـ المتنبي : ديوان المتنبي ـ بيروت ـ دار صادر ـ د/تاريخ٠

١٧ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ بيروت ـ دار صادر ـ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ٠

١٨ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ـ بيروت ـ دار صادر ـ د/تاريخ ٠

الرُّبَاعِيّ المضَاعَف وَالثلاثي المُضَعَّف

بَحْث في اشتقاقهمَا، وَمذاهب الأئمّة فيهمَا، وَإحصَائهمَا

يحيى مير علم

تواجه الباحث في المعاجم ظواهر لغوية عديدة ، بعضها من الاهمية بمكان، مع أن كلمة الفصل لم تقل فيه حتى يومنا هذا ، وأكثر ما تعترض تلك الظواهر من يأخذ على عاتقه القيام بدراسات احصائية لغوية ، وقد سبق لي أن عانيت شيئاً من هذا في دراسة احصائية معجمية(١) ، لذا يمكن القول : ان من أوضح تلك الظواهر وأهمها ماتشتمل عليه المعاجم من جذور رباعية مضاعفة وثلاثية مضعّفة • وأحسب أن الوقوف عند هذه الظاهرة وامعان النظر فيها يفيدان في الكشف عن ماهية الصلة بينهما ، ودلالات أمثلة كل منهما ومعانيه ، وتعليل اختصاص الرباعي المضاعف بأحكام خاصة ينفرد بها دون غيره من الجذور ، وسيأتي بيان ذلك مفصلا في موضعه من هذا البحث •

اصطلحتُ بدءاً على تسمية ما ضُعف ثانيه من الأفعال بالثلاثي المضعَّف نحو : مدّ، عدّ ، سدّ ، وتسمية ما كُرر حرفاه الأول والثاني بالرباعي المضاعف نحو : جلجل، رقرق دمدم • وذلك لأن تسمية المتقدمين لهذين النوعين من الأفعال جاءت مختلفة ، وكذلك الحال في تصنيف أصحاب المعاجم لهما ، فقد دعاهما الخليل بن أحمد بالثلاثي المثقّل وبالمضاعف الحكاية(٢) ، ودعاهما ابن دريد بالثنائي الصحيح وبالرباعي المكرَّر(٣) ، وخصّ كلا منهما بباب جمع فيه ما كان منه في اللغة مما انتهى اليه ، واستهل معجمه بالأول منهما ثم أتبعه بالثاني • ونعتهما سيبويه بمضاعف بنات الثلاثة وبمضاعف بنات الأربعة(٤) وقريب منه نعت ابن جني لهما بمضاعف الثلاثة وبمضاعف الأربعة(٥) ، وسمّاهما ابن فارس المضاعف والمطابق ،فالأول للثنائي الذي ضُعّف حرفه الثاني ، والثاني لما تضاعف من الكلام مرتين،وقد فسّره بقوله : « •• وطابقت بين الشيئين اذا جعلتهما على حذو واحد ، ولذلك سمّيناما تضاعف من الكلام مرتين مطابقاً مثل :

جرجرَ وصلصلَ(٦) . أما الأزهري في « تهذيب اللغة » وابن سيده في « المحكم » فقدأوردا المضعّف والمضاعف ضمن أبواب المضاعف في ائتلاف كل من الحروف مع غيره المضعّف أولا ثم المضاعف ، والتزم الجوهري في «الصحاح» ـ وتبعه ابن منظور في « لسان العرب » ـ بإيراد الرباعي المضاعف ضمن الثلاثي المضعّف ان كان الأخير مستعملا ، وأفردامن الرباعي المضاعف ما لم يستعمل منه ثلاثي مضعّف ، واستنّ الفيروزابادي بابن منظور فصنّفه قريباً منه في « القاموس المحيط » على هنات له فيه(٧) . ثم جاء المحدثون فورثوا هذا التباين في التسمية ، فدعاهما بعضهم بالمضعّف الثلاثي وبالمضعّف الرباعي(٨) ، وفرّق بعضهم بينهما فجعل الأول مضعّفاً ثلاثياً والثاني مضاعفاً رباعياً(٩) ، وهو ما ارتأيته في دراستي المذكورة صدر هذا البحث .

مضت الاشارة الى أن الجذور الرباعية المضاعفة تختص بأحكام تنفرد بها دون غيرها من الجذور ، لذا فقد أجازوا في بنائها من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتل، ومن الذلق والشفوية والصتم ، وترخّصوا في نسج حروفها ما لم يترخصوا به في نسج حروف غيرها من الجذور ، قال صاحب « العين » في حدّها وبيان كنهها وما لها من أحكام خاصة بها : « والمضاعف في البيان ما كان حرفا عجزه مثل حرفي صدره ، وذلك بناء يستحسنه العرب ، فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتل ، ومن الذلق والشفوية والصتم ، وينسب الى الثنائي لأنه يضاعفه ، ألا ترى الحكاية أن الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول : صلصل اللجام ، وان شاء قال : صلْ ، مخفّفة مرة اكتفاء بها ، وان شاء أعادها مرتين أو أكثر من ذلك ، فيقول : صلْ صلْ صلْ . يتكلف من ذلك ما بدا له .

ويجوز في الحكاية المضاعفة ما لايجوز في غيرها من تأليف الحروف ، ألا ترى أن الضاد والكاف اذا ائتلفتا فبدىء بالضاد فقيل : ضك ، كان تأليفاً لم يحصل في أبنية الأسماء والأفعال الا مفصولا بين حرفيه بحرف لازم أو أكثر من ذلك نحو الضنك والضحك ، وأشباه ذلك ، وهو جائز في المضاعف ، نحو : الضكضاكة من النساء ، فالمضاعف جائز فيه كل غث وسمين من المفصول والاعجاز والصدور وغير ذلك(١٠)» . ومثله ماذكره ابن جني قال : « فأما قولهم: حاحات بالكبش اذا دعوته فقلت : حوحو . وهاهات بالابل اذا قلت لها : ها ها . فانما احتمل فيه تأخير الهمزة عن الحاء والهاء لأجل التضعيف ، فانه يجوز فيه ما لا يجوز في غيره(١١) » .

□ اشتقاق الرباعي المضاعف ومذاهبهم فيه:

والرباعي المضاعف على استحسان العرب له ، وفشوه في اللغة ، وترخصهم في أحكام نسجه وبنائه ، فان أصل اشتقاقه ما زال موضع خلف بين أهل اللغة ، ولذا فان أصحاب المعاجم ـ كما تقدم ـ لم يلتزموا ايراده في باب بعينه ، ولكنهم أدرجوا كثيره تحت الثلاثي المضعّف اما كان له ، وأفردوا قليله الذي لم يستعمل له ثلاثي مضعّف بمواد رباعية مستقلة.

لقد فرّق الخليل بن أحمد بين الرباعي المجرد أو المنبسط وبين المضاعف الحكاية ، التي ربما كانت مؤلفة نحو : دهدق ، وربما كانت مضاعفة نحو : صلصل . وظاهر أن المؤلفة يوافق حرف صدرها حرف صدر ما ضُمّ اليهـا في عجزها ، وهو قليل ، ورأى أن الرباعي الحكاية بنوعيه : المؤلف والمضاعف بناء مستقل . قال : « لأن الحكايات لا تخلو من أن تكون مؤلفـة أو مضاعفة ، فأما المؤلفة فعلى ما وصفت لك ، وهو نزر قليل ، وأمّا الحكاية المضاعفة فانها بمنزلة الصلصلة والزلزلة . فهم يتوهمون في حس الحركة ما يتوهمون في جرس الحكاية نفسها ، فتدخل في التصريف »(١٢) .

والذي يفهم من كلام سيبويه أيضاً أنه يرى المضاعف بناء مستقلا خلواً من الزوائد ، مثّله مثَل مضعّف بنات الثلاثة ، قال : « ... ولا نعلم في الكلام على مثـال فَعلال الا المضاعف من بنات الأربعة ، الذي يكون الحرفان الآخران منـه بمنزلـة الأولين وليس في حروفه زوائد ، كما أنه ليس في مضاعف بنات الثلاثة نحو : رددت ، زيادة ويكون في الاسـم والصفة ، فالاسم نحو : الزلزال ، والجثجاث ، والجرجار ، والرمرام ، والدهداه . والصفة نحو : الحثحاث ، والحقحاق ، والصلصال ، والقسقاس ، ولم يلحق بـه من بنات الثلاثة شيء ... »(١٣) .

وقد دفع ابن جني وشيخه أبو علي الفارسي أن يكون الرباعي المضاعف مشتقاً مـن الثلاثي المضعّف ، وجاءت نظرة ابن جني في التفريق بينهما صوتية بحتة ، فالحاء بعيدة من الثاء ، ولا يمكـن أن تكون في (حثحث) ثالثة بدلا من الثاء المتوسطة في (حثّث) قال : « فاما قول من قال في قول تأبط شراً :

كانما حثحثـوا حصّا قوادمـه — أو أمّ خِشفٍ بذي شثٍ وطُبّاقِ

انه أراد : حثّثوا . فأبدل من الثاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا ، وانما ذهب الى هذا البغداديون وأبو بكر [بن السراج] أيضاً معهم ، فسألت أبا علي عـن فساده فقـال : العلّة في فساده أصل القلب في الحروف ، انما هو فيما تقارب منهـا ، وذلك الدال والطـاء والتاء ، والذال والظـاء والثـاء ، والهـاء والهمزة ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه . فأما الحاء فبعيدة من الثاء ، وبينهما تفاوت يمنع من قلب احداهما الى أختها ، قال : وانما حثحث أصل رباعـي ، وحثّث أصـل ثلاثي ، وليس واحد منهما من لفظ صاحبه ، الا أن حثحث من مضاعف الأربعة ، وحثّث من مضاعف الثلاثة ، فلما تضارعا بالتضعيف الذي فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما ، وهـذا هو حقيقة مذهبنـا ، ألا ترى أن أبا العباس قال في قول عنترة :

جـادت عليـه كـل بكـر ثرّة — فتركـن كـل قرارة كالدرهـم

ليس ثرّة عند النحويين من لفظ ثرثارة ، وان كان من معناها ، هذا هو الصواب ، وهو قول كافة أصحابنا ، على أن أبا بكر محمـد بن السري قد تابع الكوفيين ، وقال في هذا بقولهم ، وانما هذه أصول تقاربت ألفاظها ، وتوافقت معانيها ، وهي مع ذلك مضعّفة ، ونظيرها من

غير التضعيف قولهم : دمثَ و دِمَثر ٠٠٠واذا قامت الدلالة على أن حثحث ليس من لفظ حثّث ، فالقول في هذا وفي جميع ماجاءمنه واحد ، وذلك نحو : تململ وتملل ، ورقرقَ ورقّق ، وصرصرَ وصرَّر ٠٠٠ »(١٤) ٠

كما عرض ابن جنّي الى مسأله تداخل هذين الأصلين في كتابه « الخصائص » خلال مناقشته مذهب أبي اسحاق الزجاج في أصل الرباعي المضاعف ، قال : « ومن الأصلين الثلاثي والرباعي المتداخلين قولهم : قاعٌ قرِق وقَرْقَر وقَرَقُوس. وقولهم: سلِس وسلسل، وقلِق وقلقل ٠ وذهب أبو اسحاق في نحو : قلقل وصلصل وجرجر وقرقر ٠ الى أنه فعفل، وأن الكلمة لذاك ثلاثية ٠٠٠ وذهب الى مذهب شاذ غريب في أصل منقاد عجيب ، الا ترى الى كثرته في نحو : زَلِز وزلزل ٠٠٠ ومنه : صلَّ وصلصل ، وعجَّ وعجعج ، ومنه : عين ثرّة وثرثارة ٠٠٠ فارتكب أبو اسحاق مركباً وعرا وسحب فيه عدداً جمّاً ، وفي هذا اقدام وتعجرف »(١٥) ٠

ولا يكتفي ابن جني بما سبق بل يُتبع ذلك عقد باب « في المثلين كيف حالهما في الأصلية والزيادة ، واذا كان أحدهما زائداً فأيهما هو ؟ » قال : « ٠٠٠ فأما اذا كان معك أصلان ومعهما حرفان مثلان فعلى أضرب : منها أن يكون هناك تكرير على تساوي حال الحرفين ، فاذا كانا كذلك كانت الكلمة كلها أصولا ، وذلك نحو : قلقل وصعصع وقرقر ٠ فالكلمة اذاً لذلك رباعية ، وكذلك ان اتفق الأول والثالث واختلف الثاني والرابع ، وذلك نحو : فرفخ وقرقل ورهرق وجرجم ، وكذلك ان اتفق الثاني والرابع واختلف الأول والثالث نحو : كربِر وقسطاس وهزنبزان وشعلّع ٠ فالمثلان أيضاً أصلان ، وكل ذلك أصل رباعي ٠٠٠ »(١٦) ٠

وقريب مما سبق ما ذكره في موضع آخر بعد أن أورد بيت تأبط شراً السابق قال : « ٠٠٠ وحذحاذ وان لم تكن من لفظ أجذّ فانها قريبة منه ، ولا تجد هذين اللفظين الا بمعنى واحد ، وذلك نحو : ململت وملّلت ، ورقرقت ورقّقت ٠ الا ترى أن اتفاق معنييهما قد حمل البغداديين على أن قالوا : ان الأصل في حثحثت : حثّثت ، وفي رقرقت : رقّقت (١٧) » ٠

ظهر مما تقدم أن البصريين لم يفرقوا بين الرباعي المجرد وبين نظيره المضاعف ، اذ كلاهما بناء مستقل، وهو خلاف مقالة الكوفيين الذين فرقوا بينهما ، وارتأوا أن المضاعف ـ الذي يبقى بعد سقوط ثالثه محتفظاً بالمعنى الذي كان له قبل سقوطه ، أو مناسباً لمعناه مناسبة قريبة ـ هو مكرر الفاء زائدها نحو : زلزل مشتق من زلَّ ، وصرصر من صرّ ، ودمدم من دمّ ، أما ما لم يحتفظ بالمعنى ولا بمقاربه فلا يقولون بزيادة الفاء المكررة فيه ٠

أما الصرفيون فلم يرتضوا مقالة الكوفيين تلك ، ودفعوا أن يكون في المضاعف ما هو مكرر الفاء زائدها لأنه « لا يُفصل بين الحرف وما كُرر منه بحرف أصلي (١٨) » ٠

والذي يبدو أن ردّ الكوفيين اشتقاق بعض المضاعف الى المضعّف الثلاثي مما لم يمنعه الخليل ، وان كان يرى ان كلا منهمافي صورته الأخيرة بناء مستقل بل يذهب الى أبعد من ذلك ، فيرى أن أصلهما معاً هوالثنائي الخفيف قال : « والعرب تشتق في كثير من كلامها أبنية للمضاعف من بناء الثنائي المثقّل بحرفي التضعيف ومن الثلاثي المعتل ٠٠٠ »(١٩) ٠

□ الرباعي المضاعف والثلاثي المضعّف في الاحصائيات الحديثة :

استبان مما تقدم أن كثيراً من أصحاب المعاجم العربية أدرج الرباعي المضاعف ضمن المضعّف الثلاثي ، ولم يفرده بمواد مستقلة الا عندما لا يكون له ثلاثي مضعّف مستعمل(٢٠) ، وجل ما ورد من المضاعف هومن نوع المدرج تحت الثلاثي المضعّف ، وما تبقى هو المفرد الذي لم يُستعمل له ثلاثي مضعّف ، وعدده قليل ٠ لقد انتهى مبلغ الجذور الرباعية في دراستي المشار اليها الى(٣٧٣٩) جذراً ، وهذا يعدل نسبة (٣٢ر٩٥ ٪) من مجموع الجذور بأنواعها والبالغة (١١٣٤٧) جذراً ٠ وتستأهل مثل هذه النسبة العالية أن تكون الجذور الرباعية موضع دراسة لغوية تحليلية تكشف لنا عما تشتمل عليه من ظواهر لغوية لا نجد نظيرها في الجذور الأخرى من نحو : امتناع دخول الياء والواو في بناء الرباعي المجرد غير المضاعف(٢١)، وشذوذ وقوع الهمزة فيه أولا(٢٢)، وفُشُوّ ظاهرة المضاعف فيه ، فقد وصل مبلغ ما ورد منها في هذه الدراسة (٤١٦) جذراً متماثل الحرفين ، أي نسبة(١٢ر١١٪) بالنظر الى جملة ما ورد في الرباعي ٠ أمّا الثلاثي المضعّف فقد انتهت جملته الى (٥٢٠)جذراً ، أي نسبة (٢٢ر٧٪) من مجموع الثلاثي ، وينتج عن طرح المضاعف من المضعّف عدد الجذور الثلاثية المضعّفة التي لا مضاعف لها والبالغة (١٠٤) جذور (٢٣) ٠

والحق أن التزام المعاجم بما أخذته على نفسها من نهج في ايراد المضعّف والمضاعف لم يكن دقيقاً ، فقد تطرق اليه بعض الخلل(٢٤)، لذا كان على الدراسات الاحصائية اجتناب هذه الملاحظات المنهجية في معجمات المتقدمين ولا يكون هذا الا بتناول مواد المعجم بتمامها، لأن الاقتصار على العناوين المثبتة في الهوامش يفوّت جميع الرباعي المضاعف الذي أُدرج في المضعّف الثلاثي ، وهذا بعينه ما وقع في الدراسات الاحصائية التي قام بها الدكتور علي حلمي موسى لجذور معجمي «الصحاح»١٩٧١« لسان العرب » ١٩٧٣ ٠ فقد اكتفى باستلال ما أُثبت من مواد في هامش المعجمين كليهما دونما اعتماد ما تحت العنوان من شرح فاعتدّها صحيحة على ما تضمنته من ملاحظات لغوية ومنهجية ، قصد لبعضها أصحابها أم لم يقصدوا(٢٥) ٠ وهذا ما جعل تعداد الرباعي المضاعف عنده في « الصحاح » لايجاوز (٣٣) جذراً(٢٦) وهو في « لسان العرب » لايجاوز (٦٠) جذراً(٢٧) ٠ وهذان الرقمان يمثلان حقيقة المضاعف المفرد المستقل ، الذي لم يستعمل له مضعّف ثلاثي ، وكنت أودّ أن يكون في الوسع احصاء جميع ما سقط من المضاعف في احصاء الدكتور موسى لجذور معجم « الصحاح » ولكنه متعذر ، فالمعجم لم يكن مما اعتمدته في دراستي من معاجم ، ويكفي

دلالة على صحة ما سبق أن ما سقط من مضاعف حرف الباء وحده بسبب ما ذكرت بلغ (١١) جذراً(٢٨) • وقد اعتذر الدكتورموسى عما يظن أنه رباعي مضاعف غير وارد في المعجم بقوله : « وقد يتبادر الى الذهن أن هناك عدداً آخر من تلك الجذور غير وارد بالمعجم ، مثل : بلبل ، تلتل ، جمجم ، حمحم • ولكن الواقع أن هـذه الكلمات ومثيلاتها كلمات رباعية مكونة من مقطعين متماثلين وليست جذوراً ،فهي مشتقة من جذور ثلاثية هي : بلل ، تلل ، جمم ، حمم »(٢٩) •

ان نهج الدكتور موسى في استلال الموادالغوية من المعجم هو الذي حمله على القول بأن (بلبلَ وتلتلَ وجمجمَ وحمحمَ) ليستجذوراً رباعية لاندراجها تحت المواد الثلاثية وكانقد رأى أن هذه الكلمات ومثيلاتهاكلمات رباعية ذات مقطعين متماثلين ، وقد فاته أنه قرر قبلها بثلاث صفحات : « ••• كما أن الجذور الرباعية هي الوحيدة التي يمكن أن تحتوي على جذور مكونة من مقطعين متماثلين تماماً مثل : جمجع »(٣٠) • فأي فرق بين تلك الأفعال الأربعة التي أوردها سابقاً وبين هذاالفعل ؟ •

ينضاف الى ما سلف أن الفارق بين مبلغ الرباعي المضاعف في دراستي ـ وهو (٤١٦) جذراً ـ وبين مبلغه في الدكتور موسى لجذورمعجم « لسان العرب » ـ وهو (٦٠) جذراً ـ كان فارقاً كبيراً ، وصل الى (٣٥٦) جذراً ،ومما يؤكد صحة منتهاه في هذه الدراسة أن جملة المضاعف في احصائه نفسه لجذور معجم « تاج العروس » بلـغ (٤٢٠) ولا يعقل أن يقتصر « لسان العرب » على ٦٠ جذراً منها ،وهو ما هو منزلة وحجماً في المكتبة العربية ، وهـذا يؤكد صواب الاجتهاد بأنـه اعتدّ في احصائه « تاج العروس » بالمضاعف المندرج تحت الثلاثي اضافـة الى الرباعي المضاعـف المستقل (الذي ليس له ثلاثي مستعمل) وهو بهذا يخالف نهجه في احصائه لجذور معجمي « الصحاح » و « لسان العرب » ويقع في خلل منهجي يجعل من العسير الاعتذار له ، ولايخفى أن الأخطاء المنهجية في أية دراسة احصائيـة يجعلها تستغرق جميع نتائج الدراسة(٣١) ،مما قد يحمل على زعزعة ثقة الباحثين بدقة نتائج هذين المعجمين(٣٢) •

ورأيت من تمام الفائدة أن أضمن هذاالبحث جدولا أعرض فيه مبلغ كل من الثلاثي المضعّف والرباعي والنسبة المئوية لكل منهافيدراسات د• موسى للمعاجم الثلاثة وفي معاجم هذه الدراسة• وسيظهر الجدول الآتي للقارىء حجم الخطأ المنهجي الذي جعل نسبة المضاعف في « الصحاح » أقل من واحد بالمئة وفي « لسان العرب » قرابة عشرة بالمئة(٣٣) ،بينما ارتفعت النسبة المئوية في « تاج العروس » الى عشرة بالمئة ، وفي معاجم هذه الدراسة الى أحد عشر بالمئة وكلتاهما نسبة مقبولة تمثل واقع هذه الظاهرة المعجمية الهامة •

وبهذا يكون الرباعي المضاعف ظاهرة لغوية فريدة جديرة بالدراسة والبحث بغية الوقوف على أحكام نسجه التي يخالف في بعضها نظيره الرباعي المجرد ، وبغية الكشف عـن دلالات أمثلته ومعانيها ، وبيان ماهية الصلة بينه وبين الثلاثي المضعّف التي ردّ الكوفيون اشتقاق بعضـه اليهـا ، وبينه وبين الثنائي الخفيف التي لم يمنعها الخليـل ، وكل ذلك سلف في مواضعه •

	المعاجم / الجذور	الجذور الثلاثية المضعفة		الجذور الرباعية المضاعفة		الجذور الرباعية	
		عددها	النسبة المئوية (١)	عددها	النسبة المئوية (٢)	عددها	النسبة المئوية (٣)
إحصائيات الدكتور علي حلمي موسى	الصحاح	٤٢٢	٨,٧٦ ٪	٣٣	٠,٤٣ ٪	٧٦٦	١٣,٥٨ ٪
	لسان العرب	٤٨٦	٧,٤٣ ٪	٦٠	٢,٤٤ ٪	٢٤٥٨	٢٦,٥٠ ٪
	تاج العروس	٥٣٧	٧,٠٦ ٪	٤٢٠	١٠,٢٩ ٪	٤٠٨١	٣٤,٠٧ ٪
هذه الدراسة	الجمهرة التهذيب المحكم لسان العرب القاموس المحيط	٥٢٠	٧,٢٢ ٪	٤١٦	١١,١٢ ٪	٣٧٣٩	٣٢,٩٥ ٪

جدول مقارن لنتائج إحصائيات المضعّف والمضاعف والرباعي

---

(١) النسبة المئوية = $\frac{\text{عدد الجذور الثلاثية المضعّفة}}{\text{عدد الجذور الثلاثية}} \times ١٠٠$

(٢) النسبة المئوية = $\frac{\text{عدد الجذور الرباعية المضاعفة}}{\text{عدد الجذور الرباعية}} \times ١٠٠$

(٣) النسبة المئوية = $\frac{\text{عدد الجذور الرباعية}}{\text{مجموع الجذور بأنواعها}} \times ١٠٠$

□ الحواشي والتعليقات :

١ ـ نهضت بدراسة احصائية لدوران الحروف في الجذور العربية ، اعتمدت فيها على ما ورد من جذور عربية في معاجم خمسة اصول ، هي : « جمهرة اللغة ، وتهذيب اللغة ، والمحكم ، ولسان العرب ، والقاموس المحيط » ونلت بهذه الدراسة درجة التبريز (الماجستير) من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق سنة ١٩٨٤ باشراف الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ٠ وتحسن الاشارة الى أن الدكتور علي حلمي موسى سبقني الى نشر ثلاث دراسات احصائية للجذور في المعاجم : « الصحاح » ١٩٧١ ، و « لسان العرب » ١٩٧٢ ، و « تاج العروس » ١٩٧٣ (بالاشتراك مع د٠ عبدالصبور شاهين) ٠ وقد عرضت في دراستي الى ما شاب هذه الدراسات من أوهام وأخطاء ـ كما في الدراستين الأولى والثانية، وذلك لخلل منهجي في تناول المواد اللغوية ، وبخاصةفيما يتعلق بالرباعي المضاعف والثلاثي المضعف ـ أو من ملاحظات وهنات كما في الدراسة الثالثة ٠ وهناك عددمن الدراسات الاحصائية الأخرى ، بعضها تناول القرآن الكريم وبعضها تناول الكلام العادي من مجرده ومزيده قامت بهابعض المؤسسات العلمية او الجامعية في العالم العربي وخارجه، سبقت أعمال د٠ موسى ولكنها لم تنشر لأسباب عدة ٠ أماالفضل الحقيقي في نشاة هذا العلم (الاحصاء اللغوي) فيعود الى المتقدمين من العلماء والقراء الذين عنوا بخدمةالكتاب العزيز فاحصوا حروفه وكلماته وآياته وسوره ٠ (انظر الاحصاءات وما ورد فيها من روايات في كتاب « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ١/٥٥٨ ـ ٥٦٦ وهناك مصنفات كاملة في هذا الموضوع ما زالت مخطوطة)ثم جاء من بعدهم أصحاب علم التعمية (المترجم) الذين احصوا حروف الكلام في نصوص معينة توصلا الىحل المترجم مثل الكندي (ت ٢٦٠ هـ) في « رسالة في استخراج المعمى » وابن دنينير (ت ٦٢٧هـ) في رسالته « مقاصدالفصول المترجمة عن حل الترجمة » وغيرهما ٠ انظر قائمة بالمصادر المخطوطة بهذا العلم في كتابنا « علم التعميةواستخراج المعمى عند العرب » ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ٠

٢ ـ « العين » ١/٦٠ ـ ٦٤ ٠

٣ ـ « جمهرة اللغة » ١/١٣ و ١٢٤ ٠

٤ ـ « الكتاب » ٤/٢٩٤ (ط ٠ بولاق ٢/٣٣٨)

٥ ـ « سر صناعة الاعراب » ١/١٩٧ ٠

٦ ـ مقدمة تحقيق مجمل اللغة ١/١٠٩ نقلا عن « مقاييس اللغة » ٢/٤٤٠ ٠

٧ ـ وهي مما اخذه عليه الشدياق في « الجاسوس على القاموس » ص ٢٩٣ قال : « وأما تخليطه في ايراد الرباعي المضاعف فامر يطول شرحه ويعول برحه ، فانه تارة يورده في الثلاثي على مذهب الكوفيين كما في (شلشل) وتارة يفرد له مادة على حدتها كما (سلسل) مع ان المسافة ما بين الكلمتينقريبة جدا » ٠

٨ ـ انظر كتاب « الفعل زمانه وابنيته » د٠ ابراهيم السامرائي ، ص ١١٥ و ١٩٥ ٠

٩ ـ انظر كتاب « المنهج الصوتي للبنية العربية » د٠ عبدالصبور شاهين ، وكتاب « دراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس » له بالاشتراك مع د٠ علي حلمي موسى ، ص٦٦ ـ ٦٨ ٠

١٠ ـ « العين » ١/٦٢ ـ ٦٣ ٠ ونقله عنه الأزهري في « تهذيباللغة » ١/٤٦ ٠

١١ ـ سر صناعة الاعراب » مخطوطة المكتبة الظاهرية ، الورقة٤٣٤ ٠

١٢ ـ « العين » ١/٦١ ـ ٦٢ ٠

١٣ ـ « الكتاب » ٤/٢٩٤ ـ ٢٩٥ (ط ٠ بولاق ٢/٣٣٨) ٠

١٤ ـ « سر صناعة الاعراب » ١/١٩٧ ـ ١٩٨ ومقالة المبرد في« الكامل » ١/٦ ـ ٧ ٠ وانظر « التطور اللغوي : مظاهره وعلله وقوانينه » ص ٢٣ ـ ٢٤ اورد فيه مؤلفه طرفا منالنص لدى معالجته قانون المماثلة ٠

١٥ ـ « الخصائص » ٢/٥٢ ـ ٥٣ ٠

١٦ ـ « الخصائص » ٢/٥٦ ـ ٥٨ ٠

١٧ ـ « سر صناعة الاعراب » ١/٢٠٤ ٠ وشبيه بمقالة البغداديين هذه ما أورده ابن منظور في (سغسغ) قال : « وأصله سغغته بثلاث غينات ، الا أنهم أبدلوا من الغين الوسطىسينا فرقا بين فعلل وفعّل ، وانما أرادوا السين دون سائر الحروف لان في العرف سينا ، وكذلك القول في جميع ماأشبهه من المضاعف ، لقلق وعثعث وكعكع » ٠ وبنحوه ما ذكره في مادة (كعع) ٠

١٨ـ « شرح الشافية » ٣٦٧/٢ ٠

١٩ـ « العين » ٦٣/١ و « تهذيب اللغة » ٤٦/١ ٠

٢٠ـ انظر المضعف الثلاثي والمضاعف الرباعي في المعاجم : «الصحاح » و « التكملة » و « لسان العرب » و « القاموس » ٠

٢١ـ لم يشذ عن القاعدة سوى (١٤) جذرا ، اشتركت الواوفي بناء خمسة منها واشتركت الياء في بناء التسعة المتبقية ، وجميع هذه المواد موضع خلف بين أهل اللغة من حيثصحتها أو أصالة حروفها ٠ يخرج من الحكم السابق ما جاء من رباعي مضاعف دخل في بنائه واو أو ياء ، وهو قدرلا باس به ، مبلغه (٢٥) جذرا ، ويعدل هذا نسبة (٦٪) من مجموع الرباعي المضاعف ٠ وتفصيل ذلك أن الواو اشتركت في بناء واحد وعشرين جذرا هي (وبوب ، وتوت ، وثوث ، جوجو ، وخوخ ، وذوذ ، ورور ، وزوز ، وسوس ، وشوش ، وصوص ، وطوط ، وعوع ، عوعو ، قوقو ، وقوق ، وكوك ولول ، مومو ، وهوه ، واوا) ٠ واشتركت الياء في بناءأربعة جذور ، هي : (عيعي ، يليل ، يهيه ، يايا) ٠ وهذا يعضد ما سلف من نقول عن الخليل وابن جني تدل علىترخصهم في نسجه ٠

٢٢ـ الهمزة ضعيفة الدوران في الجذور الرباعية ، ولا يزيدمبلغ ترددها فيها على (١٠٨) مرات ، قرابة نصفها في الرباعي المضاعف ، فهي ترد ثانية ورابعة في (٢٥) جذرا ، ولا تقع أولا في الرباعي المجرد الا شذوذا في سبع مواد لا تثبت على نظر ٠ وقد نص سيبويه على زيادتها اذاوقعت أولا رابعة فصاعدا ، انظر « الكتاب » ٣٠٧/٤ (ط ٠ بولاق ٣٤٣/٢) ٠

٢٣ـ انظر الجدول المقارن لنتائج المضعف والمضاعف والرباعيفي هذه الدراسة ولدى د٠ موسى ٠ ص ٢١ ٠

٢٤ـ من امثلة ذلك ما ورد في « الصحاح » مضعفا ثلاثيا ثماقتصر في شرحه على المضاعف الرباعي المستعمل منه نحو : (هثث ، وحح) ونظير هذا في « لسان العرب » : « ذخخ ،وذذ) ٠ واشار الى هذا الخطا في « اللسان » مؤلفا « الدراسة الاحصائية لجذور معجم تاج العروس » ومثلا لهـذابايراد اثنتي عشرة مادة ثلاثية ٠ اقول : ومثل هذه الاخطاء أثرها مضاعف في الاحصاء اذ فيها زيادة مادة ثلاثية غير مستعملةونقص مادة رباعية مستعملة ، ومعلوم أن أي خطا بهذا الحجم في أية دراسة احصائية ينسحب على جميع النتائج ، انظراحصاءات معجم تاج العروس ص ٦٢ ٠ وعجبت لسقوط مادة (تحتح) من « احصائيات جذور معجم لسان العرب »للدكتور موسى ص ٥٣ ، جدول رقم (١٠) مع أن ابن منظور افردها بمادة رباعية مستقلة ٠

٢٥ـ هناك جملة ملاحظات منهجية تخص « لسان العرب » علىجلالته واعجابي به ٠ ساكتفي بايرادها مدللا على كل منها بذكر بعض المواد ، تاركا الشرح والتفصيل فيها الى بحث آخر ،مشيرا الى أن اكثر ما تظهر به تلك الأخطاء معارضة ما في اللسان بما في الأصول التي نقل عنها ٠ من ذلك الموادالتي وردت مصحفة عن أصولها نحو : (زرأ ، غمرط ، سلبج ، شعبد ، عزهم) ٠ ومن ذلك ايضا المواد التي وردت في غيرما موضع نحو : (أره ، مرفن ، أصطبة ، أنبج ، اسبذ ، دمقس ، صطخم ، عطود) ٠ ومنها المواد التي وقع فيهـااختلاف بين العنوان والشرح فقد اثبت في الهامش كلا من (رأن، سهه ، جلحد ، دغس ، طرطس ، داك ، جوا) وشرح ـ على التوالي ـ كلا من (أرن ، سته ، جلحمد ، دغمس ، طرطبيس ، دكا ، جاو) ٠ ومنها المواد التي ذكرت ضمنغيرها ولم تفرد وحدها ، وكثير منها لغات في مواد أخرى ، مع انه يفرد في كثير من الأحيان ما كان من هذا القبيل ، فقدأورد (دلغ) في (لغف) ، و (ليه) في (لوه) ، و (ليع)في (لوع) و (حثف) و (فثح) و (ثحف) جميعهـا في(حفث) ، وذكر (نحق) في (دعر) و (ضوض) في (ضوا)٠ ومنها المواد التي وردت في غير موضعها لاعتبار ما ، كانترد تنبيها على خطا لأحدهم فيها ، أو تكرارا لايرادها مرة ثلاثية وأخرى رباعية ، أو غير ذلك ، وأمثلة هـذا كثيرةمن نحو (دلنظى ، اثرندى ، بينيث ، ستهم ، زرقم ، ضيثم ، جيعم ، درحي ، شنظي ، تكا ، تقى ، تطا ، مرنب ٠٠٠)٠وجميع هذه المواد وردت على صورتها هذه بعجرها وبجرها في احصائيات لسان العرب والصحاح ، وأكبر من ذلك أنك تجد أدوات مركبة احتسبت في الجذور الثلاثية مثل (تلك ، تيا، لقد) انظر الجدولين (٣٤ و ٥٤) من احصاء اللسان ٠

٢٦ـ « دراسة احصائية لجذور معجم الصحاح » ص ٣٠ ٠

٢٧ـ « احصائيات جذور معجم لسان العرب » ص ٢١ ٠

٢٨ـ هـي (ربرب ، زبزب ، سبسب ، صبصب ، ضبضب ،طبطب ، عبعب ، غبغب ، كبكب ، لبلب ، هبهب) ٠

٢٩ـ « دراسة احصائية لجذور معجم الصحاح » ص ٣٠ ٠

٣٠ـ المرجع السابق ص ٢٧ ٠

٣١ـ يصدق هذا الكلام ما قرره الدكتور موسى في « دراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس » ص ٥ قال : « ... بحيث ان اي خطأ في المادة التي يغذى بها الكمبيوتر يترتب عليه خطأ في كل ما يصدر من نتائج ، ومن هنا كان من الضروري تحري الصواب فيما يقدم لذاكرة الكمبيوتر من جزيئات ومعلومات ضمن البرنامج المعد للمشروع ، وتلك بديهة يعرفها أهل الاختصاص » .

٣٢ـ لم يتنبه على شيء من هذه الأخطاء الدكتور ابراهيم انيس في تقديمه للجذور الثلاثية في معجم « الصحاح » ولا في مقالتيه : « مسطرة اللغوي » التي صدر بها العدد ٢٩ من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٧ ـ ١٢ ، ومقالة : « النظامة الالكترونية تحصي مفردات اللغة العربية » في مجلة اللسان العربي ، المجلد العاشر ، الجزء الاول ، ص ٢٠٧ ـ ٢١١ . وكذا لم يتنبه عليها الأستاذ عبد السلام هارون في تقديمه للجذور غير الثلاثية في « الصحاح » وفي تقديمه بعده للدراسات الاحصائية لجذور معجم « لسان العرب » .
وكذلك فقد غفلت عن هذه الأخطاء ليلى الحريري في مقالها « الكمبيوتر يتكلم العربية » وضمنته مقابلة مع الدكتور موسى ، انظر مجلة الدوحة ، العدد ٨٩ ، رجب ١٤٠٣ هـ/مايو ١٩٨٣ م ، ص ٨٦ ـ ٩٠ .

٣٣ـ سلف قريبا بيان الأسباب التي نتج عنها هذا الخطأ .

٣٤ـ انظر كتاب « الفعل زمانه وأبنيته » ص ١٩٥ ـ ١٩٩ فقد تتبع فيه المؤلف بعض معاني امثلته .

* * *

مراجع البحث ومصادره :

آ ـ المطبوعة :

- احصائيات جذور لسان العرب ، د. علي حلمي موسى ، جامعة الكويت ، دار السياسة ، ١٩٧٢ .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، محمد بن يعقوب الفيروزابادي ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ.
- التطور اللغوي : مظاهره وعلله وقوانينه ، د. رمضان عبد التواب ، القاهرة والرياض ، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي ، ١٩٨١ م
- الجاسوس علـى القاموس ، أحمد فارس الشدياق ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب ، ١٢٩٩ هـ .
- الخصائص ، عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، بيروت ، دار الهدى .
- دراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس ، د. علي حلمي موسى ، والدكتور عبد الصبور شاهين ، جامعة الكويت ، دار السياسة ، ١٩٧٣ م .
- دراسة احصائية لجذور معجم الصحاح ، د. علي حلمي موسى ، جامعة الكويت ، ١٩٧٣ .
- سر صناعة الاعراب ، عثمان بن جني ، تحقيق لجنة من الاساتذة ، الجزء الاول ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م .
- شرح شافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الاستراباذي ، تحقيق عدد من الأساتذة ، بيروت ، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م .
- علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ، دراسة وتحقيق د. مراياتي ومير علم والطيان ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م .
- العين ، الخليل بن أحمد ، تحقيق عبد الله درويش ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة العاني ١٩٦٧ .
- الكامل ، محمد بن يزيد المبرد ، تحقيـق د. زكي مبـارك ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .
- الكتاب ، عمرو بن عثمان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م .
- مجلة الدوحة ، العدد ٨٩ ، مايو ١٩٨٣ ، ص ٨٦ ـ ٩٠ ، وزارة الاعلام ، قطر .

- مجلة اللسان العربي ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، ص٢٠٧ ـ ٢١١ مكتب تنسيق التعريب • الرباط ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م •
- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، العدد ٢٩ ، ص ٧ ـ١٢ •
- مجمل اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق هادي حسن حمودي ،معهد المخطوطات العربية الطبعة الأولى ، الكويت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م •
- المعجم العربي : دراسة احصائية لدوران الحروف في الجذورالعربية ، يحيى مير علم ، أطروحة تبريز (ماجستير) مطبوعة بالمرقنة ، اشراف د• شاكر الفحام ، جامعة دمشق ١٩٨٤ •
- المنهج الصوتي للبنية العربية ، د• عبد الصبور شاهين ،بيروت ، موسسة الرسالة ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م •

ب ـ المخطوطة :

- رسالة في استخراج المعمى ، يعقوب بن اسحاق الكندي • نسخة ضمن مجموع قديم يشتمل على رسائل مختلفة للكندي •
- سر صناعة الاعراب ، عثمان بن جني ، نسخة في المكتبة الظاهرية ، رقمها (١٥٠) وهي منسوخة عن نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم (١٦ ش لغة) •
- مجموع في التعمية يشتمل على رسائل مختلفة في هذا العلم، منها رسالة لابن دنيتر ، تحتفظ به مكتبة فاتح المودعة ضمن المكتبة السليمانية برقم (٥٣٥٩) • لدينا مصورة عنه مهداةمن الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ ، كان قد أرسلها اليه الدكتور الفاضل فؤاد سزكين •

★ ★ ★

حول التعليم في أوغاريت

جبرائيل سعادة

المكتشفات والدراسات الأثرية تجود علينا بين حين وآخر بمعلومات تبين دور سورية في احدى نواحي تطوير الحضارة · وها ان قطرنا يبرز في مجال التعليم والتدريس ، وذلك بفضل ثلاثة مواقع أثرية أسفرت عن عدد كبير من الرقم الفخارية المكتوبة ، الا وهي موقع تل مرديخ في سورية الوسطى الذي يضم أنقاض مدينة ايبلا وموقع تل الحريري على الفرات ، في الطرف الشرقي من باديتنا وقد أظهر فيه التنقيب بقايا مدينة ماري وموقع رأس الشمرة على الساحل حيث ترقد مدينة أوغاريت ·

عثر في ايبلا على ما يقارب ستة عشر ألف رقيم مكتوب(١) ، تعود الى الفترة الواقعة بين ٢٣٥٠ و ٢٢٥٠ قبل الميلاد ، ومن بين هذه المجموعة الضخمة عدد من الوثائق هي عبارة عن تمارين ووظائف مدرسية يحمل كل منها توقيع الطالب الذي كتبها وتوقيع أستاذه وهذه الوثائق هي أقدم نصوص عن التعليم والتدريس ظهرت في العالم · والى الفترة نفسها أيضاً وثائق معجمية ولغوية تدل على الاهتمام ذاته منها قواميس تتقابل فيها مفردات من اللغة السومرية القديمة ومفردات من اللغة الايبلائية المحلية وهي أقدم قواميس ظهرت في العالم حتى الآن ·

وفي ماري تم اكتشاف حوالي عشرين ألف رقيم فخاري مكتوب(٢) وفي القصر العائد الى الفترة الأخيرة من تاريخ المدينة ، أي الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وجد المنقبون قاعتين كانتا مخصصتين للتدريس تحوي كل منهما صفوفاً من المقاعد المصنوعة من القرميد المشوي ويتسع كل مقعد لطالب واحد أو لطالبين أو لأربعة طلاب ، وعثر بالقرب من المقاعد على بعض أدوات الكتابة وعلى أوعية فيها عدد كبير من الصدف كان الطلاب يتعلمون بواسطتها الحساب ·

أما موقع رأس الشمرة(٣) ، حيث تجري حفريات منذ عام ١٩٢٩ ، فهو عبارة عن تل يتألف بكامله من أنقاض المدن التي تعاقبت في المكان. ان أعمال السبر التي تمت في أعماق التل دلت على أن أقدم تجمع سكني تواجدهنا يعود الى الألف السابع . أما الحفريات المنظمة فهي تجري في الطبقة العليا حيث كشفت عن مدينة تعود الى عصر البرونز الحديث ، اي الى الفترة التي تمتد من ١٦٠٠ حتى خراب المدينة النهائي حوالي سنة ١١٨٥ قبل الميلاد(٤) لا ندري بالضبط الى أي عهد حملت المدينة اسم أوغاريت ، انما نستطيع أن نؤكد بسبب وثيقة اكتشفت في كل من موقع « أبو صلابيخ » في العراق وموقع ايبلا أنها كانت تحمل حتماً هذا الاسم في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد . وقد عثر في الطبقة العليا من رأس الشمرة على حوالي أربعة آلاف رقيم فخاري مكتوب(٥) تعود الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، وفرّت لنا العديد من المعلومات في مختلف المجالات فهناك نصوص ميثولوجية ودينية وأدبية ودبلوماسية واقتصادية وحقوقية وادارية وهناك نصوص لغوية ومدرسية تساعدنا على التعرف الى التعليم في أوغاريت ، موضوع بحثنا هذا(٦) .

كانت أوغاريت ، في زمن الرقم المكتوبة أي في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، عاصمة مملكة تمتد من الجبل الأقرع شمالاً حتى نهر السن جنوباً وتحدها شرقاً سلسلة الجبال الساحلية ، محتلة هكذا البقعة التي تشكل اليوم محافظة اللاذقية . كان الكنعانيون يؤلفون معظم سكانها ؛ والشعب الكنعاني من أهم الشعوب الذين قطنوا سورية في الماضي وبنوع خاص المنطقة الساحلية وقد أطلق عليه الاغريق في عهد لاحق اسم الشعب الفينيقي غير أننا لا نرى أي سبب لأن يلقب هذا الشعب بغير الاسم الذي كان يطلقه هو على نفسه . وسنرى أنه كان في أوغاريت الى جانب الأغلبية الكنعانية أناس ينتمون الى شعوب أخرى .

ان الحفريات التي أجريت ولا تزال تجري في أوغاريت لم تسفر حتى الآن عن اكتشاف مدارس أو أي بناء أو قاعة خاصة للتعليم كما كان الحال في ماري . غير أن هناك شواهد عديدة تدل على نشاط مدرسي مكثف ولدينا أكثر من قرينة على أن هذا النشاط كان يتم في القاعات المعدة لحفظ الأضابير وفي المكتبات . ان معظم الرقم المكتوبة قد اكتشفت على شكل مجموعات وكل مجموعة تؤلف إما مكتبة أو ديواناً للأرشيف أي الأضابير . والمكتبة اما أن تكون تابعة لمؤسسة دينية أو لأحد الأفراد وقد تم حتى الآن اكتشاف عدة مجموعات هي : مكتبة الكاهن الأكبر حيث وجدت الملاحم والأساطير ، مكتبتان لكاهن آخر في الحي الممتد جنوب الأكروبول ، مكتبة النصوص الادبية في الخندق الجنوبي ، ستة دواوين للأضابير في القصر الملكي ، ديوان للأضابير في القصر الجنوبي . وفي الحي الفخم الممتد شرقي القصر الملكي عثر على مكتبتين خاصتين وعلى ديوان أضابير خاص . ان كل الوثائق ذات الطابع المدرسي ظهرت في القاعات المخصصة لهذه المجموعات وكذلك بعض الأدوات الكتابية كالمخرز أو المنقاش وهو القلم الذي كان يستخدم لحفر الاشارات المسمارية في الرقم الفخارية . ان أهمية التعليم غير مرتبطة بالبناء الذي يجري فيه ، ونحن نعلم مثلاً أن سقراط كان يلقي تعاليمه على تلاميذه في

الطرقات والحوانيت كما أن افلاطون كثيراًما كان يحاور تلاميذه وهو يتنزه معهم في الحدائق • ففي قاعات المحفوظات كان الكاتب (SCRIBE) الأوغاريتي يقضي معظم وقته ويقوم بكتابة الرقم الفخارية ثم يصنفهاويرتبها على رفوف وفيها أيضا كان يزاول دوره كمدرس(٧) •

ان الكاتب هو العنصر الأساسي في موضوعنا وحوله يدور كل ما يتعلق بالتعليم في اوغاريت • كثيراً ما تعتبر بعض الحضارات الأخرى أن الكاتب هو مجرد ناسخ ، يحفر على الرقيم نصوصاً تعطى له أو تملى عليه • أما في أوغاريت فدوره يبدو أكثر أهمية ونراه يحتل مركزاً مرموقاً في المدينة وأحياناً في البلاط الملكي وقد عرفتنا النصوص أسماء بعض الكتبة ويمكننا أن نستنتج من المكتشفات الكتابية في رأس الشمرة الأمور التالية :

- **ان الكاتب الأوغاريتي يقوم فعلاً بدور المعلم ويهتم بتعليم الكتابة •**
- **ان الكاتب الأوغاريتي ذو ثقافة عالية، ينظم وثائق موسوعية ومعجمية تتضمن معلومات هامة في ميادين مختلفة ونذكر بالمناسبة أننا نراه في بعض الرقم يضيف الى جانب توقيعه عبارة « خادم نابو ونيسابا » وكانا في ميثولوجيا بلاد الرافدين إلهي البحث والمعرفة •**
- **ان الكاتب الأوغاريتي يبذل جهداً ليتعلم اللغات الاجنبية ولكي يعلمها الى طلابه فسنرى كيف أن الضرورة كانت تفرض عليه وعلى طلابه أن يكونوا ضالعين في بعض هذه اللغات •**
- **ان الكاتب الأوغاريتي كان متضلعا فيما نسميه في عصرنا « علم الكتابات » EPIGRAPHIE ويعود لأحد الكتبة أو لمجموعة منهم الفضل في ابتكار طريقة جديدة في الكتابة حوالي سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وهي الطريقة الأبجدية •**

لا شك في أن الكاتب الأوغاريتي قد اهتم قبل كل شيء بلغته أي باللغة المحلية التي كانت تتكلمها الأغلبية الكنعانية القاطنة في المدينة وهي من اللغات الثلاثية(٨) • وفي رأينا يمكن أن نطلق عليها اسم « اللغة الكنعانية » ما دامت هي التي كان يتكلمها الكنعانيون ، غير أن الأوساط العلمية تطلق عليها بصورة عامة اسم « اللغة الأوغاريتية » • هي قريبة كل القرب من اللغة العربية من حيث التراكيب وقواعد الصرف وخاصة من حيث المفردات ، اذ يوجد فيها حوالي ألف كلمة هي نفسها في اللغة العربية ، فاذا علمنا أن الأسماء المعروفة حتى الآن في الأوغاريتية ، باستثناء الاعلام ، يبلغ عددها ١٢٧٦ كلمة(١٠) ، فتكون المفردات المطابقة للعربية تشكل أكثر من ثلثي مفردات الأوغاريتية • كما أنه تبين أن بعض الكلمات الأوغاريتية توجد لا في اللغة العربية الفصحى ، بل في اللهجة العامية الدارجة في الساحل السوري عامة وفي مدينة اللاذقية خاصة(١١) •

غير أن اللغة الأوغاريتية لم تدون قبل المرحلة التي نحن بصددها ، أي قبل مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد • في مطلع هذا القرن كان الملك نقماد الثاني قد أمر بتدوين القصائد الدينية التي كان بعضها ينشد في المعابد باللغة المحلية وتتوارث شفوياً من جيل

الى جيل ومن ثم أخذت أهمية أوغاريت السياسية تزداد فكثر تبادل الرسائل الدبلوماسية والتجارية بينها وبين البلاد المحيطة بها. فأخذت الدواوين الرسمية تنظم وبات من الضروري ايجاد طريقة لتدوين اللغة المحلية وتدريب الطلاب على كتابتها وترجمتها الى الآكادية التي كانت اللغة المستعملة في العلاقات الدولية وكذلك في ترجمة النصوص الآكادية الى اللغة المحلية .

ان الكاتب أو الكتبة الذين أرادوا عندئذ ايجاد طريقة لتدوين الأوغاريتية وجدوا أنفسهم في حيرة . فالى أية طريقة يا ترى يلجؤون ؟... كان العالم المتمدن يستعمل آنذاك طريقتين في الكتابة : الطريقة الصورية أي الهيروغليفية السائدة في مصر حيث كانت الاشارة تمثل كلمة كاملة والطريقة المسمارية الصوتية السائدة في بلاد الرافدين حيث تمثل كل اشارة مقطعاً صوتياً . انما تحتاج الطريقتان الى مئات الاشارات مما يجعل استخدامهما أمراً عسيراً وشاقاً ، فاذا وجب اختراع طريقة جديدة فلتكن سهلة ومبسطة . ومن جهة أخرى رأى المخترع أو المخترعون أن الاشارات المسمارية أكثر صلاحية من الاشارات الهيروغليفية لأن حفرها على الرقم الفخارية سهل . أما المصريون فكانوا يرسمون الاشارات الهيروغليفية على ورق البردي الذي يمكن حفظه في أرض جافة كأرض وادي النيل ولا يمكن حفظه في أرض رطبة كأرض سورية . فوقع الاختيار على الاشارات المسمارية على أن تجرد من قيمها الصوتية .

هنا يجب أن نتوقف عند تلك اللحظة التاريخية من مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد والتي تفتقت فيها عبقرية كاتب أو مجموعة كتبة من أوغاريت . لقد بدأ استعمال الطريقة المسمارية الصوتية في بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد وخلال أكثر من ألف سنة لم يدر في خلد أحد أنه بالامكان ايجاد كتابة تمثل كل اشارة فيها لا مقطعاً صوتياً بل حرفاً واحداً كما هو الحال في أبجدياتنا الحديثة . حتى هذه اللحظة ، كان المقطع الصوتي يؤلف بنظر الكتبة عنصراً ثابتاً غير قابل للتجزئة شأنه شأن الذرة . ونعلم مقدار ما بذل من جهود وعلم ووقت وأموال قبل التوصل الى تفتيت الذرة وعلى المنوال نفسه أمضت البشرية زمناً مديداً جداً قبل أن تكتشف امكانية تفكيك المقطع الصوتي . كانت في أعماق لا شعورها تتطلع الى كتابة جديدة تخلصها من القيم المقطعية المعقدة . وهذه الرغبة الكامنة كمون الجمر تحت الرماد خرجت الى حيز الواقع وأصبحت حقيقة ملموسة عن طريق كاتب أو كتبة عباقرة قدر لهم أن يعيشوا على الشاطىء السوري في مطلع القرن الرابع عشر . وقد أتاح هذا الابداع ولادة أبجدية في غاية التبسيط لا تشتمل الا على ثلاثين حرفاً .

□ رقم الألفباء :

أدت حفريات رأس الشمرة الى اكتشاف وثائق تبين بوضوح محاولات الكاتب الأوغاريتي لتعليم حروف الأبجدية الى طلابه . لقد عثر على عدد من رقم الألفباء ونحن نطلق هذه التسمية على رقم فخارية صغيرة نقشت عليها أحرف الأبجدية الأوغاريتية الثلاثين وهي مرتبة بحسب التسلسل الذي كان معتمداً آنذاك . وقد تبين أنه ، باستثناء

فروق طفيفة ، هو ترتيب الأبجدية العربيــة وترتيب الأبجدية اليونانية التي هي مصدر معظم أبجديات العالم • ولما كان هذا التسلسل يظهر في كل رقم الألفباء المكتشفة في الموقـع فهذا يدل على أن هذه الوثائق وضعت حتمــاً لغاية التعليم ، فباستطاعة الطالب أن يحفظ عن ظهر قلب وبسهولة أكبر الأحرف الثلاثين اذ تعرض أمامه حسب تسلسل لا يتغير • ومما يبعث حقــاً على التأثر أن نرى بأن الأطفال اليوم في عدد كبير من بلدان المعمورة يتعلمون استظهار الأبجدية بالترتيب الذي كان طلاب أوغاريت يتعلمونه منذ أربعة وثلاثين قرناً •

ان دراسة رقم الألفباء بدقة هامــة جداً وممتعة • لأنها تدخلنا الى صميم العلاقـة بين الكتبة والطلاب آخذين بعين الاعتبار أن علماء اللغات القديمة اليوم يعرفون بسهولة ما اذا كانت الأحرف المسمارية من نقش يد ماهرة مدربة أو أنها من صنع يد قليلة الخبرة ويمكننا بالتالي أن نتتبع بطريقة حية انتقال الكتابة مــن كاتب متمرس الى آخر ما يزال مستجداً ومن جهة أخرى تبين هــذه الوثائق ما كان يبــدي الأستاذ تجاه طلابه مــن صبر وعناية • ان عدد رقم الألفباء المكتشفة في رأس الشمرة يبلغ اثني عشر رقيماً وحسب معلوماتنا لم تكن حتى الآن موضع دراسة اجمــاليــة (١٢) •

يوجد بينها خمسة رقم نقشت عليها ، دون وجود أي نص آخر ، الأبجدية بكاملهـا ولمرة واحدة • فتلك التي نراها بخط جميل كانت دون شك بمثابة نموذج أعــده الكاتب للتداول بــين الطلاب ، أما تلك التي تبــدو كتابتها غير جيدة فهي تشير الى أنها من صنع طــلاب يبذلون جهــدهم في نسخ الاشارات • وهناك أيضاً رقيم سادس لا يحمل الا الأحرف الستة الأولى من الأبجدية فهو على ما يبدو عبارة عن وظيفة طالب لم تكمل لسبب أو لآخر.

لدينا من جهة أخرى رقيم يشهد بوضوح تام أنه لطالب منهمك في التدريب على الكتابة، فنراه في بادىء الأمر يعيد ، على الوجه الأول من الرقيم ، خمس مرات نسخ الاحرف العشرة الأولى من الأبجدية ، ثم ينتقل الى الوجــه الثاني فيكتب على مرتين هذه الأحرف العشرة، وعنــدما ازدادت ثقتــه بنفسه أخــذ ينسخ الثلاثين حرفاً دفعــة واحدة • وهناك رقيم يجعلنا ندخل تماماً الى صف يجري فيه تعلم الكتــابــة • اننا نرى في قسمه العلوي أحرف الأبجدية الثلاثين ، مكتوبة بيد المعلم وموزعة على سطرين ، اثنــان وعشــرون في السطر الأول وثمانية في السطر الثاني ، بينما نجد في القسم السفلي الأحرف الثلاثين مكتوبة بيد مبتدىء والطريف أن التلميذ ، بسبب شروده قــد راح ينسخ النموذج المعطى له مبتــدئاً بالأحرف الثمانيــة مــن السطر الثــاني ثم الاثنين والعشرين من السطر الأول •

نشير بعد ذلك الى رقيم هو اما عبارة عن مسودة ، أو نموذج وضع من أجل الطلاب الذين لا يزالون يتدربون على كتابة الأحرف وهم يحاولون أن يتعلموا أسلوب المراسلة • فنجد في الرقيم ، على مرتين ، الأحــد عشر حرفاً الأولى مــن الأبجدية كما نجــد بعض عبارات التمني أو المجاملة التي كثيراً ما نقرؤها في الرســائل المكتشفة في رأس الشمرة : فلتحفظك الآلهة وتنقــذك ! •• » ، فلتتحقق أغلى أماني أخي وصديقي ، ونجد أيضاً في الرقيم ذاته فعل « أعطى » مكرراً ست مرات بصيغ مختلفة • وهناك رقيمان نجد في كــل منهما نصاً باللغة الآكادية وعلى هامشه عــدة محاولات لكتابة أحرف الأبجدية الأوغاريتية•

ونذكر آخيراً رقيماً رتبت، فيه أحرف آبجدية أوغاريت في أعمدة ويوجد مقابل كل حرف المقطـع الصوتي الآكادي المطـابق لهباللفظ • انه ولا شك جدول وضع لخدمـة الكتبة المكلفين بالترجمة من الأوغاريتي الى الآكـادي وبالعكس ولخـدمة الطـلاب الذين يتعلمون آصول الترجمـة •

ان الكاتب الأوغاريتي بعد أن يكون قدعلم تلاميذه آحرف الأبجدية يبـدأ بتعليمهم استخدامها في كتابة الكلمات وبالتالي يعلمهم كتـابة الجمـل المختلفة فقـد عثر في رأس الشمرة على عدد مـن التمارين المدرسية ،نذكر منهـا رقيمـاً يتضمن اربعـة حروف آوغاريتية تفصل بينها خطوط صغيرة عمودية ثم نرى كلمة مركبة من تلك الحروف فيبدو آن المعلم كان قد آملى على طلابه تلك الأحرف وكلفهم بأن يؤلفوا منها كلمـة أو كلمات •

□ اللغـات الأجنبيـة :

صحيح أن الكتبة أول ما بـدأ اهتمامهم باللغـة الأوغاريتية وتأمـين طـريقـة سهلة لتدوينها وتدريب طلابهم على كتابتهـا •انما هنـاك ناحية أخرى شغلتهم أيضـاً وهي موضوع اللغات الأجنبية • ان أعمال التنقيب في رأس الشمرة قـد أسفرت عـن وثـائـق موضوعة بعـدة لغـات ، فعلاوة على اللغـة الأوغاريتية المحلية ظهرت بين انقاض المدينة وثـائــق بالآكاديـة والسومرية والحوريـة والقبرصية والمصرية والحثية، وسنتناول على التوالي هذه اللغات وذلك من زاوية موضوع هـذا البحث ، اي اننا سنحاول معرفة وضع كتبة أوغاريت تجاه كل لغة وبتعبير آخر أن ندرك مدى اطلاعهم عليها وكفاءتهم في ميدان الترجمة • ومـن الدلائل على أنهـم كانوا يعيرون الموضوع اهتماماً كبيراً أنهـم وفروا لأنفسهم ولطلابهم الوثائق التي يحتاجونهـا في أعمال الترجمة• نذكر منها القواميس التي كانت في متناول الذين يشمل نشاطهم أربـع لغـات • في تلك القواميس ذات اللغتـين أو اللغـات الثـلاث أو الأربـع نرى المفردات السومريـة أو الآكاديـة أو كلتيهمـا والى جانبيهمـا الترجمـة المقـابلة بالحـوريـة وبالأوغاريتية أو احـدى هاتين اللغتين ، كما أننا نذكر الجدول المقارن الذي تحدثنا عنه •

□ اللغـة الآكـاديـة :

نبدأ باللغة الآكادية ويطلق عليها أحيانا اسم اللغة البابلية مع العلم أن النصوص الآكادية تشكل مع النصوص الأوغاريتية أوفر اكتشافات رأس الشمرة الكتابية عدداً • انها مدونة حسب الطريقة المسمارية الصوتية •ولدت في بلاد الرافدين ثم انتشرت ، اعتباراً من أواخر الألف الثالث في سائر بلدان الشرق الأوسط واعتمـدت في المراسلات السياسـية والتجارية بين مختلف الممالك كما كانت في الوقت نفسه لغـة الأدب والمعرفة فهي أشـبه ما تكون بالانكليزية واللاتينية في آن واحد • يتبين من المعلومات التي اسفرت عنها الحفريات أن أوغاريت لم تكن لها مع بلاد ما بين النهرين علاقات تذكر كما أنـه لم يكن في أوغاريت تواجد لجالية من تلك البلاد ولذلك لم يحتج الكتبـة الى اللغـة الآكاديمية للتحدث مـع أي

شخص • انما كانت معرفتها ضرورية لأن مراسلات العاصمة الكنعانية مع بقية الدول ، وبنوع خاص مع مصر وقبرص وبلاد الحثيين، كانت بهذه اللغة ، كما أن الثقافة البابلية كانت تخيم على الكتبة والمثقفين في أوغاريت فكانت النصوص الآكادية الدينية والأدبية والعلمية مشتهرة في سائر بلاد الشرق فكان لا بد لهم من الوقوف عليها • في يومنا الحاضر تستعمل مقتطفات من الأدب الكلاسيكي في وظائف وامتحانات الترجمة وهكذا كان شأن كتبة أوغاريت وطلابها فنراهم يحاولون ترجمة عيون الأدب الكلاسيكي لذلك الزمن ، أي الأدب البابلي • ولا شك أن القواميس التي ذكرناها والنصوص اللغوية الآكادية التي ظهرت بكثرة في رأس الشمرة تبرهن على أن دراسة اللغة الآكادية كانت تدخل ضمن تعليم وتدريب الطلاب • ومن جهة أخرى نذكر أن بعض الوثائق الدبلوماسية الهامة من معاهدات واتفاقات دولية وجدت مكتوبة على نسختين احداها بالآكادية والأخرى بالأوغاريتية كما أننا نجد في الأضابير الرسمية رسائل موجهة الى الخارج ولكنها باللغة المحلية ، انها دون شك نسخ أو مسودات بالأوغاريتية لرسائل بعثت باللغة الآكادية وبالمقابل نجد رسائل قادمة من الخارج ومنسوخة بالأوغاريتية فهي ترجمات لوثائق جاءت من ممالك أخرى ، ورأت الادارة الملكية أن تحفظ عنها نسخاً باللغة المحلية ، ومن مظاهر تمكن كتبة أوغاريت باللغة الآكادية ومهارتهم أنه تم اكتشاف بعض الرقم تحمل نصاً آكادياً ولكنه مكتوب حسب الطريقة الأبجدية •

☐ اللغة السومرية :

لقد بقيت اللغة السومرية على مدى ألف سنة ، أي من ٣٥٠٠ حتى ٢٥٠٠ ، اللغة المكتوبة الوحيدة في بلاد الرافدين وبعد ذلك كانت مقصورة على العلماء والكهنة • في أوغاريت كانت السومرية عبارة عن **لغة ميتة** ، على حد تعبير الغرب ، أي انها لم تكن تستعمل للمكالمة • بل نراها في نصوص ذات طابع علمي ونصوص أدبية ودينية وسحرية • ان وجودها في القواميس والنصوص اللغوية دليل على أنها كانت ضمن برامج التدريس •

☐ اللغة الحورية :

الى جانب الكنعانيين كان يعيش في أوغاريت عدد لا بأس به من الحوريين وهو شعب انحدر من شمالي شرقي سورية وقطن الساحل في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد • انه يكتب ويتكلم اللغة الحورية • وهذه اللغة كما كنا نعرفها قبل اكتشافات رأس الشمرة كانت مكتوبة بالاشارات المسمارية الصوتية كما هو الحال في الآكادية • غير أننا نرى في رأس الشمرة ، علاوة على النصوص المكتوبة بهذه الطريقة ، نصوصاً حورية مكتوبة بالاشارات المسمارية الأبجدية التي ابتكرتها أوغاريت(١٣) • السؤال الذي يطرح : هل أراد كتبة كنعانيون أن يطبقوا على اللغة الحورية هذه الطريقة الأكثر سهولة أم أن كتبة من أصل حوري تعلموها من زملائهم الكتبة الكنعانيين؟ نلاحظ أن الرقم الحورية الأبجدية هي بصورة عامة نصوص طقسية كانت تتلى أو تنشد في المعابد ونصوص هي عبارة عن لوائح بأسماء

الآلهة الحوريين . كما نرى رقماً تتضمن في آن واحد نصاً حورياً أبجدياً ومقطعاً بالأوغاريتية الأبجدية . لذلك نميل الى الاعتقاد بأن هذه النصوص وضعت من قبل كتبة حوريين. غير أن القواميس التي ذكرناها تدل على أن دراسة اللغة والكتابة الحورية كانت هي أيضاً بين الأمور التي يتناولها التعليم في أوغاريت فكان الكتبة المحليون وطلابهم يتدربون على كتابة اللغة الحورية وكانوا حتماً يتكلمونها بسبب الجالية التي تعيش بينهم .

☐ اللغة القبرصية :

هناك دلائل أثرية عديدة أسفر عنها التنقيب وكذلك عدد من الوثائق المكتوبة تشير الى وجود جالية قبرصية ، لا يعرف حجمها بالضبط . كانت تقطن اوغاريت وفي الحي الكائن قرب المرفأ المطابق للخليج المعروف اليوم باسم « مينة البيضا » وكذلك توجد دلائل عديدة عن علاقات وثيقة ومستمرة بين الجزيرة والعاصمة الكنعانية فقد عثر في رأس الشمرة على رسائل ووثائق مختلفة واردة من قبرص وهي مكتوبة طبعاً باللغة الأكادية المستعملة في المراسلة بين الدول .

لم تسفر الحفريات عن وثائق مدرسية أو لغوية تبين أن الكتبة الكنعانيين المحليين أرادوا أن يتعلموا اللغة القبرصية غير أننا نلاحظ أن بعض الوثائق المكتوبة بالقبرصية(١٤) قد اكتشفت في دواوين الأضابير أو في مكتبات، أي في الأماكن التي كان الكتبة الأوغاريتيون يتمركزون فيها ، ومن جهة أخرى يوجد رقيم موضوع بالقبرصية يدل على يد غير معتادة على إشارات هذه اللغة مما جعل بعض العلماء يعتقدون أنها من صنع كاتب كنعاني ، زد على ذلك ان أحد الرقم القبرصية المكتشفة هو عبارة عن قائمة أسماء من النوع الدارج في أوغاريت بعضها أسماء أعلام محلية على الأغلب . كل هذا يدل على أن كتبة أوغاريت كانوا يلمون بعض الشيء بالكتابة القبرصية. ونذكر هنا أنه في موقع هالة سلطان تيكه ، قرب لارنكا ، في قبرص عثر مؤخراً على كأس من الفضة تحمل كتابة بالأوغاريتية . فهل يمكن أن نتصور أن كتبة قبرص تأثروا بالطريقة الأبجدية المستعملة في الساحل السوري المقابل . هذا ما يمكن أن توضحه يوماً الحفريات التي تجري في أوغاريت أو في قبرص .

☐ اللغة المصرية :

ليس لدينا أي برهان على وجود جالية مصرية في أوغاريت(١٥) . ان الحفريات أسفرت عن عدد كبير من القطع الفنية تحمل طابعاً مصرياً انما نرى العلماء متفقين على أنها إما قطع مستوردة أو قطع من صنع فنانين محليين تأثروا بالفن المصري . ومن جهة أخرى عثر في رأس الشمرة على عدد كبير من الكتابات الهيروغليفية المصرية . ومعظمها منقوش اما على هدايا مرسلة من قبل البلاط الفرعوني الى البلاط الأوغاريتي أو على هبات الى معابد أوغاريت . ولدينا بعض الوثائق والأدلة التي تشهد على تواجد مصري

ولو على نطاق محدود • نذكر منها الأمور التالية : نعلم أن ممثلاً للبلاط الفرعوني كان يسكن منزلاً فخماً قريباً من قصر أوغاريت الملكي وأنه كان يتعاطى بعض الأعمال التجارية • النصوص تتحدث عن طبيب مصري استدعاه أحد ملوك أوغاريت وعن مواطن مصري ابتاع منزلاً من الملك وعن مصريين كانوا يتعاطون تجارة منتوجات اوغاريتية من زيت وخمر ، كما أننا نعلم أن احدى أميرات وادي النيل تزوجت من ملك أوغاريتي • بقي أن نتساءل إذا نتج عن هذه التأثيرات وهذه الاتصالات المحدودة انعكاس على نشاط الكتبة الأوغاريتيين • كان هؤلاء يشاهدون النصوص المصرية المحفورة على الهبات المقدسة الى المعابد ، ولا شك أنهم أخذوا بجمال الاشارات الهيروغليفية التي تمتاز بطابع فني • فهل خطر ببالهم أن يحاولوا تقليدها ؟... ان معطيات التنقيب الأثري في هذا المجال قليلة جداً لا بد أن نأتي على ذكرها • هناك ثلاث كتابات هيروغليفية يعتقد العلماء اليوم أنها من صنع كاتب أوغاريتي ، الأولى منقوشة على قاعدة صغيرة اكتشفت في القصر الجنوبي والثانية منقوشة على نصب وجد في معبد الاله بعل ، والثالثة حفرت على سيف ظهر في الحي الممتد شرقي القصر الملكي •

☐ اللغة الحثية :

في الفترة التي نحن بصددها ، أي في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، كانت أوغاريت تحت سيطرة الامبراطورية الحثية ورغم مقاومة بعض ملوكها لهذا النفوذ كان الحثيون يلعبون دوراً هاماً في حياة العاصمة الكنعانية • الغريب والحالة هذه أن يكون التأثير الحضاري قليلاً جداً • لم تسفر الحفريات عن قطع فنية تدل على تأثير حثي يذكر • والعلاقات التجارية كانت مقصورة على بعض القوافل وأحياناً على نقل بعض المواد الغذائية في مراكب من ساحلنا الى سواحل الأناضول • في أوغاريت تم اكتشاف منزل شخص حثي اسمه « باتيلوا » يعتقد أنه كان سفير البلاط الحثي أو أحد ممثليه • الوثائق الرسمية المتبادلة بين العالم الحثي وأوغاريت موضوعة كلها باللغة الأكادية الدولية مع العلم أن الرسائل الواردة تحمل خاتم السلطة الحثية وهو موضوع بالكتابة الهيروغليفية الحثية • يجب الاشارة الى أنه لم يعثر في دواوين الأضابير وفي المكتبات على قواميس أو أية وثائق مدرسية تدل على أن كتبة أوغاريت كانوا يتعلمون اللغة الحثية • نذكر فقط رقيماً يحمل نصاً أدبياً موضوعاً بالكتابة الحثية المسمارية غير أن العلماء يعتقدون أنه رقيم مستورد • على كل حال فليس من المستحيل أن يكون كتبة أوغاريت قد اهتموا بعض الشيء بلغة دولة كانت سلطتها تهيمن على مقدرات العاصمة الكنعانية(١٦) •

☐ الكتابة والثقافة :

لا تشكل الكتابة هدفاً في حد ذاتها ، انها في النهاية ليست غير أداة لنقل الأفكار والمعارف • غير أن الوثائق المكتوبة المكتشفة في أطلال رأس الشمرة لا تقدم لنا بصورة مباشرة وجلية المعلومات التي نريدها عن الثقافة العامة في أوغاريت ونعني بذلك مجمل معارفها في مختلف الميادين وبالتالي لا ندري الدور الفعلي الذي كانت تلعبه الثقافة العامة في مجال التعليم والتدريس • ومن المؤسف أن هذا الموضوع لم يعالج حتى الآن بطريقة

منهجية رغم أن هنالك اليوم آلاف المؤلفات عن مكتشفات رأس الشمرة فمن المرغوب فيه القيام بعمل دؤوب يساعد بين أكداس الرقم المنبوشة حتى الآن ، على اكتشاف كل ما يمكن أن يجلو لنا هذا الموضوع ، وسنقدم هنا لمحة مختصرة عن أهم النواحي التي تبرزها الرقم المكتشفة .

سنتكلم أولاً عن القوائم وقد عثر منها في رأس الشمرة على عدد لا يحصى . يتعلق معظمها بالتنظيم الاداري والحياة الاقتصادية . ولكن هناك قوائم لها أهمية كبرى في موضوعنا هذا فهي تبدو لنا كمفكرات وفيش FICHES شبيهة بالتي يستخدمها اليوم علماؤنا لتؤمن لهم بسرعة المعلومات التي يحتاجونها أثناء دراساتهم . نذكر منها رقيماً يتضمن خمسمئة سطر على غاية من الاهمية لأنه نوع من موسوعة فنجد فيه تعداد الأسماك والطيور والنباتات والمنسوجات والأقمشة والأحجار وما شابه ذلك . هناك أيضاً قوائم تعدد آلهة أوغاريت وقائمة تعداد الآلهة الحورية . ونذكر بنوع خاص رقيماً يتضمن جدولاً بالآلهة السومرية وتجاه كل إله نرى ما يقابله من آلهة عند الأوغاريتيين والحوريين فتلك لعمري وثيقة عن الديانة المقارنة تعود في القدم الى ما ينوف على ثلاثة آلاف سنة . ومن القوائم التي كانت تستعمل كمفكرة نذكر عدة رقم سمحت بوضع جدول بمقاييس الأوزان والاستطاعة والمساحة .

عثر أيضاً بين الأطلال على بعض النصوص الطبية ، علماً أن الطب في ذلك الوقت كان على ارتباط وثيق وتداخل كامل مع السحر ، انما نستطيع أن نتعرف بواسطتها على عدد من الوصفات الطبية وبواسطة نصوص الابتهالات والأدعية السحرية نتعرف أحياناً على بعض الأمراض والأدوية . من بين الأمراض يرد ذكر الصداع والانفلونزا والصرع والزكام والدوار ومرض الأسنان والرئة والبطن والعيون وكذلك اعتلال العضلات والجلد . أما العلاجات فأكثرها نباتية ويمكن أن نطلع من أحد الرقم على المعالجة بواسطة حمام بخار . وهناك نص يذكر بوضوح وجود أطباء في أوغاريت كما نذكر نصاً وجد بأربع نسخ نقشت عليها تعليمات العناية الواجب اتباعها تجاه الخيول المريضة .

النصوص السحرية المتعلقة بعلم الفلك لا تبين لنا بدقة معلومات الأوغاريتيين الفلكية انما يوجد نص فسر كأنه تلميح لكسوف الشمس . أما الموسيقى فلدينا عدة رقم مكتوبة باللغة الحورية تتضمن التنويط (أو التدوين) الموسيقي لبعض التراتيل والأناشيد الدينية(١٧) . أما علم الحقوق في أوغاريت فيمكن التعرف عليه عن طريق عدد كبير من النصوص القانونية تم اكتشافها في جناح من القصر الملكي(١٨) .

المعروف أنه تم اكتشاف عدد من الأساطير والملاحم(١٩) في بناية الكاهن الأكبر ، قرب معبد الاله بعل وكانت كما ذكرنا متوارثة شفوياً من جيل الى جيل فتم تدوينها في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد من قبل كاتب يرد اسمه في بعض الرقم ولا نستطيع بما لدينا من معلومات أن نعرف اذا كان مجرد ناسخ وضع تلك القصائد حرفياً

كما تلقاها أو أنه كان ينظم تلك الملاحم والأساطير بأسلوب أدبي ، وهي بالفعل قصائد ذات قيمة أدبية أكيدة ٠

وأخيراً نذكر الانتاج الأدبي ٠ لقد عثر في رأس الشمرة على عدد لا بأس به من النصوص الأدبية من قصائد وأدعية ومجموعات حكم ونصائح ٠ الا أن معظم هذه النصوص يعود الى الأدب البابلي أو انها ، على أقل تقدير ، تستمد ايحاآتها من بلاد الرافدين ، وقد ذكرنا أنها كانت تستخدم في أعمال الترجمة ٠ انما يوجد نص واحد يمكن حتى اشعار آخر ان نعتبر أنه أوغاريتي اذ لم يكتشف ما يقابله في الأدب البابلي ٠ انه مجموعة من الحكم والأقوال وجدت مكتوبة بثلاث نسخ ويبدو أن هذه النسخ تعود لثلاثة طلاب في صف الانشاء الأدبي طلب اليهم مناقشة الوجود الانساني بالاستناد الى أقوال وأمثال دارجة وهذا مقطع من النص المذكور:

لا تدرك اليد ما بعد السماء ٠

لا يدرك أحد عمق غور الأرض ٠

حياة بلا نور ، فماذا تزيد على الموت ؟...

مقابل سعادة يوم ، أيام من الدموع ٠

وها هي السنة تجري وفيها ألف علة

الناس لا يعلمون بأنفسهم ما يفعلون ٠

معنى أيامهم ولياليهم كامن عند الآلهة ٠

وفي الختام نذكر نصاً تم اكتشافه في رأس الشمرة يبين تماماً أهمية الكتابة والمعرفة في المجتمع الأوغاريتي ٠ انه عبارة عن دعاء كتب بصيغة رسالة موجهة من كاهن الى أحد الآلهة يطلب فيه مساعدة تلميذه ومما جاء في النص المذكورة :

لا تظهر في عظمتك عدم الاهتمام بالقضية التي أستعطفك من أجلها ٠ بهذا التلميذ الفتي الجالس أمامك لا تظهر عدم الاهتمام ٠٠٠ اكشف له أي سر في فن الكتابة، العد ، المحاسبة ، أي حل ، اكشف له ٠٠٠ اكشف له اذن الكتابة السرية ٠٠٠ أعط لهذا التلميذ الفتي، القصب المبرى والجلد والفخار ٠٠٠ اذن لا تهمل شيئاً من كل ما يتصل بفن الكتابة » ٠

* * *

□ الحواشي :

١ ـ حسب آخر جرد تم لرقم ايبلا ، قبل أن توضع في متحفادلب ، انها موزعة على الشكل التالي : ٢٠٠٠ رقيما كاملا ٦٠٠٠ رقيما ناقصا ، ٧٠٠٠٠ كسر رقم ٠

٢ ـ كان يستنتج من المراجع السابقة أن أعمال التنقيب في ماري قد اسفرت على ٢٥٠٠٠ وثيقة مكتوبة بينما نلاحظ أن مدير الحفريات الجديد يذكر ١٥٠٠٠ رقيما (راجع جان مارغرون : « ماري » ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ٣٣ آ ، ١٩٨٣ : ص ٢٤٠ ٠ ان رقم ماري الموجودة حاليا في المتحف الوطني بحلب ستنقل قريبا الى متحف دير الزور الجديد ٠

٣ ـ ان المصادر كانت ، حتى الآن ، تذكر ان هذا الموقع يقع على بعد حوالي عشرة كيلو مترات شمالي اللاذقية ٠ ان هذا الرقم اصبح غير صحيح بعد التعديلات التي طرأت مؤخرا على الحدود الادارية للمدينة ٠ فقد أدت هذه التعديلات الى امتداد اللاذقية شمالا على طول الساحل حتى رأس ابن هاني (راجع كتابنا : « المختصر في تاريخ اللاذقية » ، اللاذقية ١٩٨٤ : ص ٥٨ ـ ٦٠) وهكذا صارت اوغاريت تقوم على مسافة ثلاثة كيلو مترات فقط من الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، وبالتالي نستطيع أن نقول من الآن وصاعدا أن رأس الشمرة تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات شرقي اللاذقية ٠

٤ ـ اذا أردنا معرفة مدى الأهمية التي توليها الأوساط العلمية في العالم لاكتشافات رأس الشمرة ، فيجب أن نعلم :
ـ ان المؤلفات والدراسات حولها تعد بالآلاف ، انظر :
M. DIETRICH, O. LORETZ, P. R. BERGER, J. SANMARTIN : Ugarit-Bibliographie 1928-1966, 4 vol. Kevelaer 1973.
ـ ان مجلة علمية تصدر في مدينة مونستر بألمانيا منذ عام ١٩٦٩ اسمها **Ugarit-Forschungen** وهي مخصصة بأكملها للبحوث الأوغاريتية ، وان نشرة عنوانها **Ugaritic Studies** تصدر عن جامعة كالغاري في كندا منذ سنة ١٩٧٣ وتقدم لقرائها بانتظام لمحة موجزة عن آخر المطبوعات الصادرة حول رأس الشمرة ٠
ـ ان اللغة الأوغاريتية تدرس حاليا في عدد كبير من جامعات العالم ، انظر النشرة السابق ذكرها ، العدد ١١ ، تشرين الأول ١٩٧٦ ٠

٥ ـ حسب آخر جرد للوثائق المكتوبة المكتشفة في رأس الشمرة يبلغ عددها ٢٠٢٤ وثيقة منها ما هو محفوظ كاملا ومنها ما هو ناقص ومنها ما هو عبارة عن كسر صغيرة ٠ خلافا لنصوص ايبلا وماري المنشورة كل منها في مجموعات متسلسلة منظمة ، ان نصوص رأس الشمرة قد نشرت مع الأسف بشكل عشوائي في مؤلفات ومجلات مختلفة ، انما نذكر أن قسما كبيرا منها قد نشر في كتاب :
A. HERDNER: Corpus des textes en cunéiformes alphabétiques de Ras Shamra, (1929-1939), Paris 1963 وفي سلسلة **Palais Royal d'Ugarit** وفي مجموعة **Ugaritica** (المجلد الخامس والمجلد السابع) ٠

٦ ـ راجع مقالنا : « الحياة الثقافية والتعليم في اوغاريت » ضمن كتابنا : أبحاث تاريخية وأثرية ، دمشق ١٩٨٧ ص ٨٣ ـ ١١٦ ٠

٧ ـ بالنسبة لكتبة أوغاريت راجع :
Jean NOUGAYROL : Palais Royal d'Ugarit III, Paris 1955 : p. XXXIV - XXXIX; W. J. HORWITZ : The Ugaritic Scribe, Ugarit-Forschungen 11, 1979 : 389-394.

٨ ـ تفضل استعمال هذه التسمية التي تشير الى أهم مميزات هذه اللغات عوضا عن التسمية الرائجة منذ سنة ١٧٨١ ، أي « اللغات السامية » ، والتي سببت ولا تزال تسبب بعض الالتباسات ٠ راجع :
H. FLEISCH : Introduction à l'étude des langues sémitiques. Paris 1947:20-22

٩ ـ راجـــع :

F. RENFROE : Methological considerations regarding the use of Arabic in Ugaritic Philology. Ugarit-Forschungen 18, 1986 : 33-74.

١٠ـ توصلنا الى هذا الرقم استنادا الى الفهارس المختلفةالموجودة في :

C. H. GORDON : Ugarit Textboox, Rome 1965 : 347-522.

11 — Elias G. BITTAR : A Comparative Semitic Study (with special reference to Arabic, Hebrew and Syriac) of the Linguistic Features of the Ugaritic Texts. University of Wales 1982 : 124-130, 140-153, 193-200.

انظر أيضا جون هيلي : « الأوغاريتية ودراسات اللغاتالسامية » ، مجلة المعرفة العدد ٢١٣ ، تشرين الثاني ص ١٢٠ .

١٢ـ ان رقم الألفباء تحمل ، حسب الترقيم المتبع في نصوصرأس الشمرة ، الأرقام التالية :

RS 10.081, 12.63, 23.492, 24.288, 19.31, 15.71, 19.40, 24.281, 16.265, 20.148+21.69 20.164, 19.159.

ان الرقيم الأول معروض في متحف اللوفـر في باريس ،أما الأحد عشر الباقين فهي موجودة في المتحف الوطني بدمشـق وفي المتحف الوطني بحلب .

١٣ـ النصوص الحورية منشورة في :

E. LAROCHE : « Les textes hourrites », Palais Royal d'Ugarit III, Paris 1955 · 325-385; « Documents en langue hourrite provenant de Ras Shamra » Ugaritica V, Paris 1968 : 447-644.

١٤ـ النصوص المكتوبة باللغـة القبرصية المكتشـفة في رأسالشمرة منشورة في :

E. MASSON : Cyprominoica Göteborg 1974 : 34 et 38.

١٥ـ بالنسبة الى علاقة أوغاريت بمصر راجع :

J. et E. LAGARCE : « Le chantier de la maison aux albâtres » Syria 51, 1974 : 5-24; voir également C. SCHAEFFER : Ugaritica 3, Paris 1956 : 164-178.

١٦ـ بالنسبة للوثائق الحثية ، راجع :

16 — E. LAROCHE : « Textes de Ras Shamra en langue hittite », Ugaritica V, Paris 1968: 769-784; C. SCHAEFFER, Ugaritica III, Paris 1956 : 1-96.

١٧ـ راجع راوول فيتالي : « اللوحة الأوغاريتية ح/٦ . تفسيرتنويطها الموسيقي » ، الحوليات الأثريـة العربية السوريـة ، العدد ٢٩ ـ ٣٠ ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ص ٧٣ ـ ٧٧ .

١٨ـ راجـع :

G. BOYER : La place d'Ugarit dans l'histoire de l'ancien Droit oriendans Palais Royal d'Ugarit III. Paris 1955 : 283-306.

١٩ـ لقد صدر حتى الآن عدد كبير من ترجمات لملاحم وأساطيرراس الشمرة الى لغات أجنبية مختلفـــة ، نكتفي هنا بذكـــر الترجمتين الى اللغة العربية :

ـ نسيب وهيبة الخازن : « أوغاريت ، أجيال ، أديان ،ملاحم ، بيروت ١٩٦١ .

ـ أنيس فريحة : « ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأسالشمرة) » بيروت ١٩٨٠ .

ملامح سورية في القرن التاسع عشر

بقلم : م. لورتيه*
ترجمة: أحمد عبد الكريم

□ تقديم :

« بعد أن تجول الرحالة لورتيه في فلسطين وزار معظم المدن والمواقع التاريخية المقدسة تابع رحلته الى سورية الشمالية (التي كانت في نهاية القرن التاسع عشر تضم سورية ولبنان وكيليكية) وسنحاول اليوم مرافقته في تجواله داخل أراضي الجمهورية العربية السورية في حدودها السياسية الراهنة ، وننقل الى العربية بأقصى ما يمكن من الأمانة ما كتبه خلال هذه الرحلة ، لافتين نظر القارىء الكريم الى أن « الرحالة » رغم ألقابه العلمية وسعيه للظهور بمظهر المراقب الموضوعي المحايد ، لا يمكن أن يتجاوز المهمة الرسمية التي كلف بها ،والخلفيات التي دعت وزارة التربية الفرنسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر للاهتمام بدراسة الأوضاع الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية في هذا الجزء الهام من العام العربي ، في وقت كان الصراع بين دول أوربا الكبرى على أشده لاقتسام الامبراطورية العثمانية (الرجل المريض) ،خاصة بعد أن استطاعت هذه الدول (وخاصة منها الامبراطوريتان الفرنسية والبريطانية) القضاء على أحلام محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا وتحطيم الأسطول المصري في معركة « ناڤارين » ، في الأربعينات ، واخضاع مصر للسيطرة البريطانية ووضع اليد على قنال السويس لتأمين طريق الهند والشرق الأقصى • يضاف الى كل ذلك أن مدينة « ليون » وجامعتها بالذات كانتا المركز الرئيسي في فرنسا الذي يحتضن الاستشراق الفرنسي والتبشير نظراً لعلاقة هذه المدينة التاريخية التجارية مع بلدان آسيا وبلدان الشرق الأوسط بشكل خاص ، لذلك نجد أن الغاية الأساسية من وراء مهمة السيد لورتيه ،والرحلات التي قام بها الكثيرون غيره من المستشرقين والمبشرين هي « التمهيد لاستعمار الشرق الأوسط باعتباره الجسر الحيوي الذي ينطلق منه الاستعمار الأوربي الى قارتي آسيا وافريقيا • واننا نترك للقارىء استشفاف هذه النوايا الخفية التي لم تعد سراً على أحد بعد أن أصبحت في ذمة التاريخ،ولا يهمنا من البحث سوى بعض التحليلات والأوصاف

★ م• لورتيه : عميد كلية الطب في جامعة ليون •

والصور الواقعية لأوضاع المجتمع العربي والحالة الجغرافية التي كانت عليها القرى والمدن والمواقع الأثرية التي تناولها الرحالة في جولاته لأن ذلك في اعتقادنا يعطينا صورة حية عن جزء من بلادنا وأوضاعها الاجتماعية في زمن كانت تعاني فيه مرارة التخلف والطغيان العثماني الذي أخذ يتحول الى استعمار « طوراني » ويتنكر للشعار الذي قامت عليه السلطنة في بداية القرن السادس عشر كوارثة للخلافة الاسلامية ٠

بعد هذه المقدمة العاجلة لا بد من الاشارة الى أن رحلة « السيد لورتيه » الى سورية الحالية ، بدأت من منطقة « الحولة » في فلسطين ، وكانت أول خطوة له في هذا الاتجاه عن طريق قرية « الغجر » السورية التي تقع عند دخول نهر الحاصباني الى الأراضي الفلسطينية في شمال غربي منطقة « الجولان » ٠

« المعرب »

□ يقول الرحالة :

بعد أن اجتزنا « جسر الغجر » توجهنا شرقاً نحو حوض مائي بيضوي الشكل تحيط به الأدغال وأشجار الصبار ، والنباتات ذات الأغصان الغضة العالية ٠ يتغذى هذا الحوض الطبيعي من نبع « فوّار » يمكن مشاهدة جيشانه ومياهه الصافية الباردة في أقصى الحافة الشرقية ، كما يلاحظ فيه كثرة السلاحف التي تتجمع فوق الصخور المنتشرة هنا وهناك ، والتي أخذت تقفز في الماء وتلوذ بالفرار عند اقترابنا منها ٠ ويشرف على الجانب الشرقي للحوض هضبة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن (١٢) متراً تُسمى « تل القاضي » ينبع منها « نهر اللدّان » (أو ما يسمى بنهر دان الذي يتردد اسمه في التوراة) ٠ ويخترق الدغل الكثيف « مسلك » (أو درب)(١) يؤدي الى ذروة الهضبة المذكورة وهي عبارة عن فوهة بركانية مخروطية الشكل طولها (٣٢٠) متر وعرضها (٢٥٠) متر ؛ تكسوها أدغال أشجار السنديان والتين البري والبُطم والعوسج والورود الرائعة والأشواك المختلفة الكثيفة مما يجعلها صعبة الاختراق ٠ ويتفجر من سفح هذه الهضبة نبع قوي بالقرب من « مقام »(٢) أحد الأئمة المسلمين الذي تظلله شجرتان هائلتان من أضخم الأشجار التي شاهدتها في حياتي ٠ واحدى هاتين الشجرتين من السنديان ، والثانية من البطم ، وقد احتمينا في ظلالهما من أشعة الشمس المحرقة وأخذنا تحتهما قسطاً من الراحة وفي الجانب الغربي من الحوض ، تنساب ساقية غزيرة (يبلغ عرضها عشرة أمتار وعمقها قدمان) وسط دغل هائل من أشجار الزعرور وبين الصخور البازلتية اللامعة ، وتنضم مياه هذه الساقية الصافية الى النبع المتفجر في أسفل الهضبة وتشكل معه ما يسمى « بنهر اللدان » ـ أحد روافد « نهر الأردن » ـ وفي رأي السكان العرب المحليين أن هذا النبع هو المصدر الحقيقي لنهر الأردن لأنه يمدّه بما يعادل ثلاثة أمثال المياه التي تأتيه من « نهر الحاصباني » وضعف المياه التي تأتيه من « نهر بانياس » الذي يرفده في نقطة تبعد مسافة كيلو متر واحد الى الجنوب من تل القاضي ٠ ومن المرجح أن مدينة « دان » القديمة كانت تقع حول الهضبة المذكورة ، كما كانت تُعتبر في الماضي أقصى نقطة في الشمال من فلسطين ٠ وقد لاحظنا ، خلال تجوالنا حول تل القاضي ، وجود الكثير من الأحجار المصقولة

على السفح الشرقي من هذا التل ، ويُعتقـدأنها من بقايا مدينة « دان » ٠ ويبلغ ارتفاع نبع تل القاضي الرئيسي عـن سطح البحـر(١٦٥) متراً ٠

بعد أن استكشفنا بعناية شديدة الفوهة البركانية ، هبطنا عبر الأشواك وتابعنا السير على الدرب الذي يمر في سهل قليل التموجات يصعد تدريجياً نحو الشرق تتخلله غابة كثيفة من شجر العناب والسنديان وتنساب فيه مئات السواقي الصغـيرة ٠ وبعـد مسـيرة سـريعة استغرقت حوالي ثلاثة أرباع الساعة وصلنـا الى قرية « بانياس » ، وكنا منهكين من التعب بسبب الحرارة والرطوبة الشديدة التي تذكرنا بالمناخ الاستوائي ٠

☐ قريـة بانيـاس :

تقع قرية بانياس في مكان جميل جداً ،ويمكن أن تُسمى بحق « تيفولي سورية »(٣) فحيثما يجلس المرء في أطـراف هذه القريـة يستمتع بخرير مياه السواقي والشلالات التي تسقط مياهها وسط شجيرات الورد ، ويتقي الحرارة تحت ظلال أشجار الصفصاف الضخمة وأشجار التين والدلب الوارفة ٠ ويحيط بالقرية العديد من البساتين المروية التي تنتج أجود أنواع الفواكه المختلفة ٠

تتكون القرية من خمسين منزلا حجرياً حسنة البناء ، وترتفع عن سطح البحر بحوالي (٣٥٣) متراً ، كما يزيد ارتفاعها عن ذروة تل القاضي بحوالي (١٧٨) متراً ٠

وقد لاحظنا كثرة « العرائش »(٤) فوق أسطح منازل القرية ، وهي عبارة عن أعشاش يبنيها السكان من أغصان الأشجار ويستخدمونهـا للنوم أثناء الليالي القائظة في فصـل الصيف بسبب رطوبتهـا ٠ والواقع أن الحـر شديد في بانياس لأن الجبال المجاورة المرتفعة تحول دون وصول ريـاح البحر المنعشـة الى القريـة ٠

وفي القرية العديد من الآثار وبقايا أسوار وأبراج المدينة القديمة التي كانت المكان المفضل لحكام سورية الرومان(٥) مما يدل على أهميتها وروعتها ٠ وبعض أجـزاء الأسـوار القديمة مبنية من الأحجار المكعبة المنحوتة وتتداخـل بعضها في بعض ، وهي تشير الى عصر مزدهر بالحضارة ، ويرجح أنه القرن الأول ق٠م٠

وفي الجهة الشمالية من بانياس ، وفوق أول منحدر من جبل حرمون (جبل الشيخ) ، ترتفـع بقايا قصـر صبيبيبـح (Soubeibih) الذي يُشرف على القرية من ارتفـاع (٣٥٠) متـراً ٠

وقرية بانيـاس الحاليـة ، حافظت على اسمها اليوناني القديم كما هو تقريبـاً(٦) ٠ وقد ضمت المدينـة القديمة معبـداً مشـهوراً يسمى البانيون (Le Panéion) شيد لعبـادة الالـه (بـان PAN) ؛ كما بنى الحـاكم الروماني فيها معبداً على شرف ابنه أوغست وابنه فيليب ، وأدخل اصلاحات على المدينـة ثم أطلق عليها اسم « قيصرية » (Cécarée) ، ومن هنا أتى اسم « قيصرية فيليب التي ذكـراسمها في الأناجيل وهي أقصى نقطـة وصـل اليها السيد المسيح في الأراضي السورية ٠

ونظراً لما عُرف عن السيد المسيح من حب وتقدير لجمال الطبيعة ، فقد توقف في مدينة بانياس فترة طويلة يستمتع بمناظرها ومياهها العذبة الصافية وظلال أشجارها المنعشة ، وهذه الصفات تجعلها مختلفة عن مناظر جبال يهوذا الجرداء ٠

وعندما انتهى حصار مدينة القدس ، قدم الحاكم الروماني تيتوس(٧) (Titus) الى بانياس وأقام فيها احتفالات عظيمة وأعدم بهذه المناسبة العديد من المساجين بواسطة المصارعين الرومان أو بواسطة الوحوش المفترسة ٠

وفي ١١٣٠ م سقطت مدينة بانياس وقلعتها الشهيرة بيد الصليبيين وتحولت الى اقطاعية للفارس رينيه بروس (Reinier Brus) ،

ومع ذلك بقي المسلمون والصليبيون يتبادلون احتلال هذه المدينة طول قرن كامل الى أن سقطت نهائياً بيد المسلمين عام ١٢١٩م على يد السلطان المعظم ٠ وفي عام ١٢٥٣ م حاول أحد نبلاء الصليبيين المدعو سيردوجوانفيل (Sire de Joinville) احتلال بانياس من جديد ولكنه فشل واضطر للانسحاب بعد سلسلة من المعارك الدامية الى مقره في مدينة صيدا ٠

وفي قرية بانياس نصبنا خيامنا الى جانب الصخور حيث توجد مغارة الاله « بان » ، تحت ظلال أشجار الدلب والصفصاف ٠ وكانت تحيط بنا السواقي ذات المياه المنعشة الباردة ٠ وقد لاحظنا عدم وجود أثر للأسماك في هذه السواقي بل تعج فيها الضفادع والسلاحف المائية التي كانت تصطف بالعشرات فوق الأوحال خارج الماء ٠ أما على سفح جبل الشيخ فتكثر السلاحف البرية الضخمة التي لا تكف عن الحركة ٠

أما معبد بانياس القديم فهو قريب الشبه من مغارة فوكلوز (Vaucluse) (٨) ؛ وقد تهدمت جدرانها الداخلية منذ زمن بعيد وتراكمت الأنقاض داخلها الى درجة لم تعد تسمح بتفجير المياه من تجويفها ، بل أصبحت تنبجس على مسافة عدة أمتار خارج فوهة المغارة وسط الكثير من الصخور والأشجار ، ثم ما تلبث هذه الساقية الرقراقة أن تتحول بسرعة الى نهر حقيقي لكثرة الينابيع التي ترفدها ، ويطلق على هذا النهر اسم « نهر بانياس » ٠

يجري نهر بانياس المذكور نحو الجنوب الغربي عبر سهل الغور ليلتقي بنهر اللدان القادم من تل القاضي عند « تل يوسف » تحت قرية جونين(٩) ٠٠

والمغارة أو المعبد القديم مليء بالصخور والأنقاض كما ذكرنا أعلاه ويستخدمها البدو حالياً لايواء مواشيهم في فصل الشتاء ٠ وقد لاحظنا أن جدرانها الداخلية مغلفة بقشرة كثيفة من الكلس في أقسامها العلوية ، ذلك أن المياه أزالت هذه القشرة في الأجزاء السفلى مع مرور الزمن ٠ والى يمين المغارة توجد ثلاثة أعشاش أنيقة (تشبه المحاريب) محفورة في الصخور ، ويبدو أنها كانت مخصصة لوضع بعض التماثيل الصغيرة ٠

والى جانب مدخل المغارة توجد آثار لصورة تشبه ذيل طير الخطاف (السنونو) ، وقد

كتب فوقها العبارة التالية باللغة اليونانية :« هذه الالهة كرست للاله « بان » ، حبيب الصدى ، من قبل فيكتور بن ليزيماك »وعلى مسافة عدة أمتار الى الشرق من المعبد ، وفوق تجويف محفور في الصخور يوجد ضريح لأحد القديسين ، ويبدو أنه كان في الماضي كنيسة وهو على شكل مزار ، وداخل هذه الكنيسة يوجد حوض معمودية جميل وبعض الأعمدة الصغيرة • ويطلق سكان بانياس على هذا المكان اسم « قبر مار جريس » أو قبر القديس جريس • ويشرف هذا المكان على سهل أخضر رائع الجمال •

ومن هذه الكنيسة القديمة تابعنا الصعود بين الصخور والأشواك باتجاه قلعة الصبيحية ، فبلغناها بعد مسيرة ساعة • وتعتبر هذه القلعة من بين أهم الآثار الموجودة في سورية •

وللقلعة شكل بيضوي ، ويبلغ طولها (٣٠٠) وعرضها (٨٠) متراً ، ولكنها تضيق قليلا في طرفها الجنوبي • وأسوار القلعة ترتفع على حافة منحدرات جبلية سحيقة وبعض أجزاء هذه الأسوار قديمة جداً ، أما الأجزاء الأخرى فهي حديثة وترجع الى القرون الوسطى أو أيام الصليبيين ، وأحجار هذه الأسوار منحوتة ومتشابكة تتداخل بعضها في بعض بواسطة أخاديد ومسننات ، وتشبه الى حد بعيد « برج هيبكوس (Hippicus) في مدينة القدس • وفي داخل القلعة يمكن مشاهدة بعض القاعات المقنطرة ، وخزانات المياه الضخمة التي كانت توزع المياه الضرورية لحامية القلعة الكثيرة العدد • أما أسوار القلعة من الجهة الشمالية الغربية فقد تهدمت وتساقطت أحجارها في الوادي السحيق الذي كان يطلق عليه في القديم اسم « وادي الكشيبة (Es. Kaschébé) • وبين أنقاض هذه القلعة يسكن حاليا بعض الفلاحين الفقراء في حجرقديمة تشبه الكهوف ، وهم يعملون بزراعة أشجار الزيتون في المدرجات المحيطة بالقلعة

أما سفوح جبل حرمون (جبل الشيخ) المغطاة بأشجار السنديان الجميلة ، فتشرف على وادي الأردن الممتد الى ما وراء « بحيرة الحولة »(١٠) ، ومرتفعات الجليل ومدينة صفد ، ومن الجهة الشمالية الغربية يمكن بوضوح رؤية « قلعة الشقيف » الحصينة (وهي احدى قلاع الصليبيين) التي يمكن الاتصال بينها وبين قلعة بانياس بواسطة الاشارات الضوئية والنيران •

وفي احدى الأمسيات صعدنا الدرب المؤدي الى دمشق ، بعد أن خفت حرارة الشمس ، هذا الدرب المتعرج الذي يخترق الحقول المزروعة ، وأدغال شجر الريحان الشامي (الآس) (الذي صادفناه لأول مرة خلال رحلتنا) ••وبعد نزهة لطيفة استغرقت حوالي ساعتين شاهدنا في طريقنا الى الجنوب الشرقي من بانياس بحيرة صغيرة (بركة) دائرية الشكل مليئة بالماء النقي ذي اللون الأزرق اللازوردي، ولم تكن هذه البحيرة ملحوظة على خريطتنا كما لم نتعرف على اسمها ، كما لاحظنا كثرة الوديان التي تتعانق مع الهضاب الخضراء فتشبه بذلك الى حد بعيد بعض أجزاء منطقة الدوفينيه الفرنسية (Dauphiné) (١١) ، وكانت ترعى فيها قطعان الخيول والأبقار •

قرية مجدل شمس :

وفي الساعة السادسة مساء بلغنا قمة احدى التلال التي يبلغ ارتفاعها (١١٣٠) متر عن سطح البحر ، فاذا بنا فجأة نطل على منخفض دائري الشكل من الصخور البيضاء ، يستند في طرفه الشمالي الى كتف جبل حرمون (جبل الشيخ) كما يستند الى الجنوب على تلة محدودبة تحجب عنها مناظر هضبة الجولان . وبعد مسيرة بضع دقائق وصلنا الى « قرية مجدل شمس » الجميلة التي تقع في الطرف الشمالي من هذا المنخفض الصخري .

ويبلغ عدد سكان هذه القرية حوالي الف نسمة معظمهم من الدروز وبعضهم من المسيحيين ، وهي غنية جداً ، وجيدة البناء ، ويملك سكانها العديد من قطعان المواشي ، التي ترعى في المرتفعات المحيطة وتعود الى القرية في المساء وعند عودة هذه القطعان كنا نسمع أجراسها ترن حول خيامنا التي نصبناها فوق ساحة خضراء مزدانة بالأعشاب الفضة الناعمة ، وهي شبيهة بتلك الهضاب الموجودة في مراعي جبال الألب العالية ، وقد كنا نشعر في هذا المخيم كأننا نقيم في احدى الوديان السويسرية .

كانت خيامنا فوق مرتفع يعلو عن سطح البحر (١١٣٠) متر ، لذلك كان الليل شديد البرودة ، والرياح العنيفة تداعب هذه الخيام وتهزها بشكل أصبح من الصعب علينا اتقاء البرد . ومع ذلك فقد أحسسنا بالمتعة والنشاط فوق هذه المرتفعات ذات الهواء المنعش ، بعد أن أنهكتنا روائح مستنقعات الحولة النتنة وحرارة بانياس الشديدة ، وهكذا استعدنا نشاطنا وأصبحنا نرغب في مزيد من التعرف على المنطقة . ولكي نملأ فراغنا قررنا القيام بجولة سريعة الى « بركة الرام » التي كنا نشاهد مياهها الزرقاء بين ثنايا المرتفعات الجبلية الى الجنوب من موقعنا .

بركة رام :(١٢)

والجدير بالذكر أن هذا الخزان المائي هو نفس البحيرة التي كانت تسمى في الماضي « بحيرة فيالا » Le lac Phiala ، التي اعتبرها المؤرخ « جوزيف » احدى ينابيع نهر الأردن .

تقع بركة رام على مسيرة (٣٥) دقيقة من قرية مجدل شمس (وهي أقرب الى هذه القرية مما هو مذكور في خرائط ستيلر (Stieler) وفان دوفولد(١٣) (Van de Velde) في منخفض أرضي مغلق من جميع الجهات وهذا المنخفض عبارة عن فوهة بركانية قديمة تحيط بها الصخور البازلتية والحمم البركانية ، ولها شكل بيضوي ، ويبلغ محيطها حوالي ستة كيلومترات .

أما مياه هذه البحيرة فكانت أثناء زيارتنا لها بلون أزرق غامق ، غير أنها غالباً ما تكون عكرة موحلة في فصلي الشتاء وبداية الربيع . وتجدر الاشارة هنا الى أننا لم نلاحظ وجود أي نبع ظاهر في جوار البحيرة ، ولذلك نرجح أنها تتشكل من تجمع مياه الأمطار والسيول التي تصب فيها من المرتفعات المحيطة . وحول هذه البحيرة حزام أخضر يمتد الى داخلها بعرض

عدة أمتار وهو مؤلف من « القصب » والخص (السعادى) • والجزء المركزي من البحرة خال تماماً من النباتات لأن المياه في قلب البحيرة عميقة جداً ؛ والشاطىء الجنوبي الغربي للبحيرة شديد الانحدار بل يكاد يكون عمودياً ، بينما بقية أطرافها فهي صلصالية قليلة الانحدار ، وتمتاز الحمم البركانية المنتشرة حول البحيرة بأنها تحتوي على بللورات جميلة من نوع الهونبلند (Honblende) (١٤) •

ترتفع بركة الرام بحوالي (١٠٢٠) م عن سطح البحر ، ولا تحتوي مياهها على أي نوع من الأسماك ولا يعيش فيها سوى الضفادع العادية والعلق الذي يصطاده سكان مجدل شمس والقرى المجاورة لأغراض طبية عن طريق الخوض في مياه البحيرة فيعلق في سيقانهم(١٥) أما الأراضي المنبسطة المحيطة بالبحيرة فيستخدمها سكان القرى للزراعة •

لقد سبق أن ذكرنا بأن أكثرية سكان مجدل شمس من الدروز ، وهم رجال أشداء معروفون بشجاعتهم ، ويقطنون في بيوت جميلة مبنية من الحجر المنحوت تزدان بالشرفات ولها مظهر خارجي لطيف • ويحيط بالقرية مراع حقيقية خصبة ، رائعة الجمال ، ويشاهد في هذه المراعي قطعان من الخيول والأبقار التي تعطي كميات كبيرة من الحليب •

وهواء مجدل شمس منعش رطب ونقي جداً ، لهذا فانني أنصح الرحالة الأوربيين الذين يزورون سورية ويعانون من مناخ السهول ذات الغبار ورياح غور الأردن الساخنة بأن يعرجوا على منطقة مجدل شمس ويقيموا فيها الفترة ما لاستعادة صحتهم ويستأنفوا نشاطهم !!•••

أقمنا في مجدل شمس ثلاثة أيام ، ثم استأنفنا رحلتنا نحو الشمال الشرقي ، فكنا نصعد أحياناً فوق الصخور الحوارية والجوراسية(١٦) ، وأحياناً أخرى وسط مناطق واسعة منطاة بالحمم البركانية الكثيرة المسام (الخشنة جداً) والمائلة للاحمرار ، الى أن بلغنا ممراً جبلياً يبلغ ارتفاعه حوالي (١٢٩٠)م عن سطح البحر ، يؤدي الى منخفض دائري تكثر فيه المستنقعات يسمى « مرج الحَضَر »، والى يسار هذا الممر شاهدنا بقعة واسعة من الثلج فوق خاصرة جبل الشيخ ، والى اليمين مررنا بالقرب من قرية « حَضَر » التي ليس لها وجود على خرائطنا • وتهيمن على هذه القرية تلة قليلة الارتفاع في ذروتها شجرة هائلة الحجم ، وأثناء سيرنا التقينا ببعض قوافل الابل التي تحمل الحطب الى دمشق ، كما صادفنا بعض المسافرين القرويين ، وتجدر الملاحظة هنا أن قطع الأشجار واستخدامها للتدفئة هو السبب الأساسي لتدمير الغابات في جبال ومرتفعات هذه المنطقة ، **وقد قيل لنا أن الحطابين يعمدون الى قطع الأشجار ودفنها في التراب ثم حرقها ببطء ليصنعوا منها الفحم الخشبي الذي يكثر استخدامه في سورية •**

وبعد اجتياز سهل « مجدل حَضَر » وصلنا الى ذروة احدى الشعاف الجبلية التي يبلغ ارتفاعها (١٣٨٠) م ، حيث كان بصرنا يمتد الى مسافات بعيدة وتمكنا من مشاهدة

« جبل حوران » البازلتي ، كما كنا نشاهد بنفس الوقت قمم جبل الشيخ التي لا تزال مكللة بالثلوج • كان هذا المرتفع مغطى كلياً بأشجار السنديان المشوكة ، وأشجار الزعرور الضخمة التي تنمو بقوة بين صخور الحمم البركانية والبازلتية • وبعد انحدار سريع وصلنا الى قرية « المزرعة »(١٧) التي تقبع بالقرب من أحد الينابيع الثره ذات المياه الصافية المثلجة التي تنحدر من جبل الشيخ ،ويطلق السكان على هذا التيار اسم « نهر الخباني » • وقرية المزرعة مبنية على سفح الوادي ، ومظهرها يدل على البؤس والفقر ، وهي محاطة بغابة حقيقية كثيفة من شجر الصفصاف الذي يغرس هنا باعتباره شجراً صناعياً • وعلى مسافة قصيرة من القرية ،وقفنا فوق احدى المرتفعات وشاهدنا « قرية حينه » التي أعطتنا لأول مرة مظهر القرى الدمشقية: فأسطحتها الترابية منبسطة،وجدران بيوتها من الصلصال المضغوط والمخلوط بالتبن(١٨) • وهذه البيوت تبدو عن بعد بلون أصفر مما يجعلها تختلط تماماً مع ألوان الأرض المحيطة بها ، وهنا لا بد من التساؤل عن أسباب استخدام هذا النوع من المواد الصلصالية رغم كثرة الأحجار ؟! •

والمنطقة التي اجتزناها بين قرية حضر والمزرعة ، تبدو شديدة الخصوبة أحياناً ، وأحياناً تكون الأرض كلسية جرداء ، وفي بعض الأحيان يتشكل الطمي من تراب أحمر يحتوي على كميات كبيرة من الحصى والأحجار الصغيرة ، وغالباً ما تكون هذه الأرض عقيمة قليلة الخصوبة • أما السهل المحيط بهذه القرى فهو قليل التعاريج له مظهر مخيب للآمال ، بالرغم من مجاورته لجبل حرمون العظيم (جبل الشيخ) الذي يشمخ بذراه الرمادية المتوجة بالثلوج ، ويشكل مصدراً لا ينضب من المياه والى اليمين (نحو الشرق) تمتد الى ما لانهاية سهول حوران الخصبة •

تابعنا سيرنا باتجاه الشرق فوصلنا الى احدى السواقي الغزيرة فوجدنا على ضفتها بعض الفقراء الذين يغسلون أسمالهم في مياهها وينشرونها على الصخور المجاورة لتجففها أشعة الشمس ، كان هؤلاء الدراويش ناحلي الأجسام وعيونهم غائرة في محاجرها ، وشعورهم طويلة مسدلة على أعناقهم بشكل مشوش ، وقد وضع أحدهم قدميه في الماء وراح يستسلم للتأمل العميق ، بينما كان الثاني يحاول اشعال غليونه دون أن يعيرنا أي اهتمام• وما ان تجاوزنا هذه الساقية حتى تبدلت أمامنا الصورة تماماً ، وخلت القرى المزدهرة محل القرى البائسة ، والأراضي الخصبة التي ترويها السواقي بدل الأراضي الصخرية والكلسية الجرداء •

قررنا الراحة بعد هذه المسيرة الصعبة ، فجلسنا في احدى الحقول المزروعة ، تحت ظلال شجرة جوز ضخمة ، وما هي الا دقائق حتى انضم الينا أربعة أو خمسة رجال ، جاؤوا الينا يتضاحكون ويراقبون تصرفاتنا ويقدمون لنا كل ما كنا نحتاج من خدمات • كانت بين هؤلاء الرجال فتاة تبلغ من العمر حوالي ثمانية عشر عاماً ، وكانت تبدو مرحة وساخرة وأبدت اهتماماً شديداً بكل شيء وأخذت تتفحص بذكاء كل أمتعتنا وأدواتنا ومقياس الحرارة والارتفاع عن سطح البحر والكتب والخرائط ، كما أخذت تذكر لنا أسماء القرى المجاورة لكي تبرهن لنا على اتقانها لجغرافية المنطقة •

والواقع أن الشعب السوري جذاب جداً ،وهو معروف بلطفه وذكائه الشديد وميله للدعابة ، خاصة عندما لا يكون مسحوقاً من الأنظمة المتوحشة كالنظام العثماني • واذا ما أتيح لسورية في المستقبل ادارة نزيهة وطرق مواصلات جيدة فانها ستصبح ولا شك بلداً عظيماً بالاضافة الى جمالها الطبيعي •

وفي وقت الظهيرة هبت رياح خماسينية عنيفة ، وكنا لا نزال نرتاح في ظل شجرة الجوز ، وقد بلغت درجة الحرارة آنذاك(٣٨°) درجة سنتيغراد ، وبين حين وآخر كانت تصفعنا الرياح الساخنة وكأنها تخرج من فم أحد الأفران • كانت الى جوارنا قريتان هما : « كفر حَوَر » و « بيت تيما » ويفصلهما عن بعضهما واد سحيق يجري فيه « نهر عُرْفَه » • وتحيط بهاتين القريتين أشجار الجوز الجميلة وأشجار الجوز الجميلة وأشجار الحور العالية • وقد لاحظنا وجود بعض الأبراج فوق المرتفعات المطلة على هاتين القريتين يستخدمها سكان القرى لمراقبة تحركات البدو الرحل الذين يؤمون المنطقة أحياناً لرعي قطعانهم في حقول القمح ، ووسط الحقول المزروعة توجد « عرائش » عالية مغطاة بأغصان الأشجار والأعشاب اليابسة ، يقيم فيها الحراس المسؤولون عن حماية المحاصيل ، وحوالي الساعة الثالثة بعد الظهر اجتزنا « نهر عرنة »وكانت قريتي « كفر حور » و « بيت تيما » الى يسارنا ، وتابعنا السير في أرض جرداء تكثر فيها الصخور والطمي الصلصالي الأحمر وبقايا الحمم البركانية ، كما تتخللها حقول القمح في الأماكن المنبسطة السهلة ، أما الأجزاء غير المزروعة فهي مغطاة غالباً بأجمات من شوك « البلان » والـوزال(١٩) ، والصَّر(٢٠) ، ونباتات أخرى ذات أزهار صفراء وبيضاء ،وبين هذه النباتات تسرح العديد من السلاحف البرية • بعد ذلك مررنا بحقول واسعة جداً مزروعة بالحنطة والشعير ، وفي تمام الساعة السابعة والنصف مساء وصلنا الى قرية « عرطوز » ، ونحن في غاية التعب ، وقد وجدنا مخيمنا منصوباً الى جانب احدى السواقي ذات المياه العذبة الباردة تحت ظلال أشجار الحور وبالقرب من حقول الحنطة •

كان الحصادون حولنا يتابعون عملهم الشاق حتى حلول الظلام ، ولاحظنا أن « الشعير » قصير جداً لا يمكن حصاده بالمنجل لذلك يقوم الحصادون باقتلاعه بأيديهم •

قرية عرطوز :

عرطوز قرية هامة ، وبيوتها حسنة البناء ومحاطة بالبساتين من كل الجهات • والقرى المجاورة لها غنية وخصبة وتكثر فيها الأشجار المثمرة بسبب توفر المياه • ومما لا شك فيه أن أراضي القرية تنتج محاصيل جيدة يمكن أن تسبب السعادة للفلاحين لولا الضرائب الفاحشة التي تثقل بها الدولة العثمانية كواهلهم وتدمر اقتصادياتهم • كانت الليلة التي قضيناها في عرطوز شديدة الحرارة بحيث لم نتمكن من النوم الا عند بزوغ الفجر على الرغم من أننا تركنا خيامنا مفتوحة للرياح • ولحسن الحظ أننا أصبحنا على مقربة من دمشق « جنة الله على الأرض » • وبعد ليل مضطرب لم نذق خلاله طعم الراحة تقريباً بسبب كثرة الناموس الذي أقض مضاجعنا ،وضجيج الحصادين الذين يحيطون بنا ، قررنا

الرحيل باكراً باتجاه دمشق · تابعنا السير عبر سهل فسيح ترويه السواقي وتنمو فيه الأشجار والمزروعات المختلفة ، وتنتشر فيه القرى والمزارع هنا وهناك ، غير أن السهل الذي على يسار الطريق كان أقل خصوبة تغطيه تربة مائلة للاحمرار لا ينبت فيها سوى أنواع من نبات الشيح الرمادي الذي يدل على عدم خصوبة هذه التربة ·

الرحيل باكراً باتجاه دمشق · تابعنا السير عبر سهل فسيح ترويه السواقي وتنمو فيه الأشجار والمزروعات المختلفة ، وتنتشر فيه القرى والمزارع هنا وهناك ، غير أن السهل الذي على يسار الطريق كان أقل خصوبة تغطيه تربة مائلة للاحمرار لا ينبت فيها سوى أنواع من نبات الشيح الرمادي الذي يدل على عدم خصوبة هذه التربة ·

وأخيراً وحوالي الساعة العاشرة صباحاً بدت لنا بعض مآذن مدينة دمشق العالية ، وقبابها الأنيقة التي تلمع مع أشعة الشمس · دخلنا مدينة دمشق عبر البساتين الغناء المليئة بأشجار المشمش الضخمة والتي تنمو في ظلالها الأعشاب الناعمة الكثيفة ·

أنه لحدث في منتهى الأهمية أن يصل المرء الى هذه المدينة الساحرة التي لا مثيل لها · كان الطريق الذي سلكناه يتلوى مسايراً ضفاف نهر بردى ، تظللنا أشجار باسقة من الحور ذي الجذوع الفضية ، وتحيط بنا الأعشاب الخضراء التي تبعث الرطوبة في الجو · والى يمين ويسار النهر تمتد بعض الحقول المستنقعية التي ينشر فوقها الصباغون المحليون أقمشتهم بعد صباغتها وسط شجيرات الليلكي ذات السنابل البيضاء والليكية التي تداعب عناقيدها الرياح اللطيفة فتفوح عنها روائح منعشة ·

☐ مدينة دمشق :

كان أول ما شاهدناه في دمشق هو «الدرويشية» وهو بناء ضخم من « اللّبن » يعلوه عدد من المآذن ، يستخدم لايواء المسافرين الغرباء وكبار السن والعجزة الذين لا مورد لهم . والى يسار الطريق شاهدنا ثكنة عسكرية مبنية على طراز هندسي محلي ، والى مسافة بعيدة وراء هذه الثكنة يُشاهد «حي الصالحية» الذي يقطن فيه عدد قليل من الأوربيين المقيمين في دمشق للاتقاء من حرارة المدينة القديمة أثناء الصيف ·

وعلى جوانب النهر توجد العديد من المقاهي في الهواء الطلق التي يتردد عليها العاطلون عن العمل في المدينة لتناول الشاي والمبردات وتدخين الأراكيل · وكان رواد هذه المقاهي متربعون أو جالسون على أرائك خشبية بسيطة مصنوعة من أغصان الحور ، وترتفع عن سطح الأرض بحوالي ثلاثة أقدام · وفوق نهر بردى عدد من الجسور التي تسمح بالانتقال من ضفة الى أخرى ، وهي عادة تزدحم بالمتنزهين عند المساء ، لأنهم يأتون الى ضفاف النهر للاستجمام بعد عناء النار ، واستنشاق عبير نسيم النهر المنعش ·

ويبلغ عرض نهر بردى داخل مدينة دمشق حوالي عشرين متراً وهو سريع الجريان ومياهه رمادية شديدة البرودة كالجليد !! ··

يا الهي ما أروع رؤية الأشجار والمياه الباردة وتيار النهر · ! ··· والنسائم المشبعة بالرطوبة ، والانصات الى تغريد العصافير ··· اننا نفهم الآن بعد أن وصلنا الى دمشق لماذا تُعتبر هذه المدينة «جنة حقيقية» بالنسبة للبائسين القادمين من الصحراء الذين تصفعهم أشعة الشمس المحرقة ويقاسون الأمرين من العطش ·

وفي مكان داخل المدينة يقع بالقرب من الأبنية الادارية الرسمية غير بعيد عن طريق بيروت ، استقبلنا بكل ترحاب السيد سافوا ، قنصل فرنسا في مدينة « حماه » وقادنا الى منزله حيث لقينا من السيدة حرمه أيضاً أفضل الضيافة واننا لنحفظ لهذا الصديق وزوجته الكريمة أجمل الذكريات .

□ جبل حرمون (جبل الشيخ) :

بعد استراحة عدة أيام في دمشق عدنا بنفس الطريق الذي سبق وسلكناه الى أن بلغنا « مزرعة بيت جن » ، وقد قررنا اجتياز جبل الشيخ للوصول الى وادي الأردن الأعلى(٢١) وذلك بهدف التجوال والدوران حول هذا « الجبل المقدس » ! انطلقنا بعد ذلك من قرية المزرعة وسرنا في أراض شديدة التعرجات ، باتجاه جبل الشيخ واستغرقت مسيرتنا أربعة ساعات الى أن وصلنا الى قاعدة الجبل . كان المشهد رائعاً يأخذ اللب : فأمامنا واد جميل تحيط به السفوح الخضراء من جميع الجهات وفوق احدى هذه المنحدرات تقع « قرية عرنه » الصغيرة الجميلة التي تهيمن عليها قمة جبل الشيخ الجليلة . أما الوادي الذي يفصلنا عن القرية فهو شديد الخصوبة تظلله أشجار الجوز الهائلة من جميع النواحي، وتأتي اليه السواقي الغزيرة من جميع الجهات لتغوص في عدد من اللجج والحفر ثم تضيع في الأفق لتتدفق بالنهاية في تيار واحد يتجه نحو دمشق ..(٢٢) . وقد لاحظنا كثرة الأشجار المثمرة في بساتين عرنة ومن بينها أشجار التوت الشامي .

وسكان « عرنه » من الدروز وقد لمسنا منهم منتهى الكرم واللطف ، ومما يدعو للدهشة أن أحد رجال القرية أكد لنا بأنه لم يشاهد قبل هذا التاريخ أي أجنبي ينصب خيامه فوق المرتفعات الجاورة لقريته .

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي بدأنا بصعود السفح يرافقنا أحد الأدلاء ، فاجتزنا العديد من الوديان الصغيرة الغنية بالنباتات المختلفة التي تتعانق بشكل جميل ، وكانت المياه النقية الباردة تنساب في كل النواحي وتشكل أكثر من ألف ساقية صغيرة ، بل وتشكل أحياناً بحيرات صغيرة لازوردية اللون تعكس بروعة زرقة السماء وظلال الأشجار القائمة على جوانبها . وعلى ارتفاع ألفي متر عن سطح البحر أخذنا نشعر بالبرد الشديد ، وأصبحنا نلاحظ وجود نباتات مشابهة لتلك المعروفة في جبال الألب ، وكانت الأرض شديدة التعرج بسبب الحمم البركانية المتراكمة والصخور البازلتية الضخمة التي تبرز من خلال الطبقات الحوارية الجوراسية ، أما المراعي في هذه السفوح فكانت شديدة الخصوبة ولكنها وعرة .

يبلغ ارتفاع قمة جبل الشيخ (٢٩٠٠) متر ، وهي مشطورة الى شطرين بفتحة بركانية ، واحدى هاتين الذروتين تحمل بقايا معبد دائري الشكل يطلق عليه السكان المحليون اسم

« قصر عنتر » ، وهو مهدم تماماً ويرجح بأنه بقايا معبد لتكريس عبادة الاله « بعل » حرمون أو اله الجبل الذي كان يعبده سكان سورية القدماء والفينيقيون ·

وفي أسفل القمة على مسافة عدة أمتار توجد مغارة محفورة في الصخور يمكن استخدامها للراحة أو للتنسك عندما يضطر المرء لقضاء الليل فوق هذا المرتفع : ونحن لا ننصح بالقيام بمثل هذه المغامرة الا بكثير من الحذر لأن « الدببة » موجودة بكثرة في هذه المناطق الموحشة(٢٣) ، وكثيراً ما يُعثر عليها في المغاور حيث تلجأ اليها عندما يشتد البرد في فصل الشتاء · وقد شاهدنا بعض الحشرات فوق بقع الثلج من الأنواع التي تتغذى بها الطيور كالبليق والبوم والقُبَّرات ، وهي الوحيدة التي تعيش في هذه الصحراء المتجمدة ؛ كما توجد بعض النباتات الرشيقة كاللولبيات ذات الزهر الأصفر ، والتوليب ذي الوردة البنفسجية الذي ينمو بكثرة بين صفائح الثلج.

وقد شاهدنا قمة عالية باتجاه سهل البقاع تبدو وكأنها أكثر ارتفاعاً من القمة التي نقف عليها ، وتجدر الاشارة الى أن المناظر التي رأيناها فوق قمة جبل الشيخ لا مثيل لها وهي تشمل جزءاً كبيراً من سورية عندما يكون الجو صافياً ، وهو الوضع الطبيعي في هذا الفصل من السنة (أي في فصل الصيف) · فالى الجنوب تشاهد بلاد موآب وبحيرة طبريا وبحيرة الحولة ، ووادي الأردن الأخضر الذي يجري فيه نهر الأردن ويرتسم فيه كالأفعى الفضية الطويلة ، والى الغرب تُشاهد جبال السامرة وجبال الجليل وشاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ابتداء من جبل الكرمل حتى شمالي مدينة صور ، ثم سلسلة جبال لبنان الغربية التي تهيمن عليها قمتا المكمل وصنين المغطاة بالثلوج · وعلى مسافة قريبة منا كنا نشاهد المضيق المظلم الذي يجري فيه نهر الليطاني كما نشاهد سهل البقاع الخصيب وسلسلة جبال لبنان الشرقية ، والى الشمال والشمال الغربي تمتد بادية دمشق كالبحر وهي تغرق في الغبار الذهبي ، ثم تأخذ لوناً بنفسجياً عند نهاية الأفق البعيد ويشرف عليها جبل الأسود(٢٤) وجبل المانع الذي يمتد الى الجنوب ليتصل بكتلة الجولان وجبل حوران(٢٥) الذي تُشاهد قمته الهرمية البركانية بكل وضوح ·

وبعد أن مكثنا مدة طويلة نتمتع ونتأمل تلك المشاهد الرائعة ، بدأنا الهبوط نحو الغرب ، وكنا نسير بصعوبة شديدة ونضطر للقيام بدورات واسعة جداً لكي نقطع مسافة بضع أمتار ، وأخيراً وصلنا الى قرية « شُبعا » الواقعة في الحافة القصوى لاحدى الانهدامات العميقة في كتف الجبل · وأثناء سيرنا تجاوزنا الكثير من غابات شجر السنديان الذي تحمل ثماره (المرة) كؤيسات كبيرة ذات أشواك ، ومجموعات من شجر العرعر الذي يرتفع هنا كالأشجار بينما العرعر الموجود في بلادنا (فرنسا) يكون على شكل أدغال من الشجيرات الصغيرة ، وفي أسفل الوادي المجاور لشبعا ينساب سيل قوي يتغذى من ذوبان الثلوج بشكل خاص ·

□ **قريــة شُبعا :**

هي احدى القرى المرتفعة في جبل الشيخ، ويقطنها فلاحون جبليون يعيشون أساساً على تربية الماعز وهم يملكون أعداداً كبيرة من هذا النوع من الماشية ، ويصدرون كميات كبيرة من اللبن والجبن الى دمشق •

□ **قرية الهبارية :**

وبعد أن اجتزنا قرية شُبعا ، سرنا بمحاذاة الوادي ، وبعد نصف ساعة وصلنا الى موقع صخري دائري يحتوي على العديد من أشجار الزيتون الضخمـة ، وفي أقصـاه تقع قريـة « الهبارية » الجميلة • والى جوار هذه القرية وفي وسط الحقول تُشاهد بقايا معبد فينيقي لا تزال جدرانه قائمـة حتى الآن ، باستثناء الجدار الشمالي المهدم ، أما الجدران الأخرى فقد خربتهـا الزلازل الأرضيـة نسبياً عبـر القـرون •

وجدران المعبد سميكة جداً ومبنيـة بالأحجار الضخمة المنحوتة بكل مهارة واعتنـاء ، وحول المدخل الرئيسي يوجد طاقات منقوشة ، ودرج محفور ضمن الجدران السميكة يساعد على الوصول الى ذروة البناء •

وقد لاحظنا أن هذا النوع من المعابد موجودة بكثرة على جميع سفوح جبـل الشيخ ، ولا يعــرف منهـا حتى الآن الا القليـل ، وكثير منها لم يسبق لأي رحالة أوربي زيارتها وهي تستحق الدراسة الدقيقة من قبل رجـال مختصين أكفاء لأنها جميعها مبنية بأسلوب فني رفيـع •

ولا يُعرف حتى الآن أصل الرجال الذين بنوا هذه الأوابد ، فهل كانوا من السوريين في العصر اليوناني ؟ أم من الفينيقيين ؟ أم مـن غيرهم ؟ •• ! والواقع أن هذه المعابد تمتـاز بصفات خاصة مختلفة تماماً عن المعابد اليونانية ، وفي اعتقادي أيضاً أن هذه الأبنية ترجـع الى عصر أقدم بكثير من عصر الاسكندر المكدوني • وتجدر الاشارة أخيراً الى أن « معبـد الهبارية » مبني في نقطة ترتفع حوالي (٧٥٤) متر عن سطح البحر •

□ **قرية عين جرفا :**

بعد أن غادرنا منطقة الهبارية اتجهنا نحو الشمال الغربي وسرنا عبر « درب » عمـودي علـى وادي شُبعـا ، ومررنـا الى جـانب « قرية جرفا » الدرزية التي يبلغ ارتفاعهـا عن سطح البحر (٧٩١) متر •

□ **قرية « حاصبيا » :**

وبعد ثلاثة أرباع الساعة ـ من قرية جرفا ـ اجتزنا السهل الذي يحيط بحاصبيا وهو عبارة عن كروم من العنب ، ثم نصبنا خيامنا وسط مرج أخضر تحيط به أشجار الزيتـون الجميلة ، ويقع هذا المرج بين نهر الحاصباني وقرية حاصبيا • ونظراً لأننا كنا منهكين مـن التعب فضلنا المبيت في المخيم قبل زيارة القرية •

ترتفع قرية حاصبيا عن سطح البحر بحوالي (٦٧٠) متراً ، وتحتل موقعاً جذاباً له شكل المسرح المطل على « وادي التيّم » وهو الاسم الذي يطلقه السكان هنا على مجرى نهر الحاصباني (ويسميه الكاتب نهر الأردن الأعلى) ويجتاز القرية ساقية ذات مياه صافية عذبة تصب في نهر الحاصباني ٠ ويحيط بهـا العديد من المدرجات المغروسة بأشجار الزيتون والتين والعنب الذي يوفر كميات كبيرة من الزبيب والدبس والشراب الذي يستخدمه الفلاحون أحياناً بدلا من السكر ٠ يبلغ عـددسكان القرية حوالي خمسة آلاف نسمة ٠

كان بقرب المكان الذي خيمنا فيه ، جسرقديم من الحجر مبني فوق نهـر الحاصباني ، وعلى مسافة مائتي متر هناك « سد صناعي » يحجز مياه احدى الينابيـع التي تتفجر مـن قاعدة صخرية ضخمة ويطلق على هذه النقطةاسم « رأس النبـع » وهو أحـد روافد نهـر الحاصباني ، ويحيط بحوض النهر الذي يرتفع عن سطح البحر حوالي (٥٠٠) متر ، أدغال كثيفة من الشجيرات والورود البرية ، وقـاع الحوض مغطى تقريباً بأوراق عرائس النيل العريضة الصفراء ٠ وعلى مسافة قريبة الى الغرب تقع الآبار (المنـاجم) التي يستخرج السكان منها كميات كبيرة من القار الأحمـر النقي ، وتحيط بهذه الآبار الصخور الحوارية.

وتجدر الاشارة الى أن استخراج هذه المادةالمذكورة ، كان قد ألغي أثناء زيارتي الأولى لسورية(٢٦) ولكنه استؤنف الآن ٠ ويستخرج القار حالياً من حوالي (٣٠ الى ٤٠) بئـراً يتراوح أعماقهـا بين (٢٥ الى ٣٠) متـراً ويمارس هذه المهنة عدد كبير من سكان القرية. ومن الملاحظ أن هـذه المناجم بدائية جـداًويهبط العمال اليهـا بواسـطة خشبة معلقـة بالحبال ، وعندما يصلون الى مستوى طبقات القار ، يعمدون الى حفر طاقات صغيرة داخل طبقة القـار ويضعون الكميـات المستخرجـة بالسلال التي يرفعها العمال خارج المنجم الى السطح ٠٠ وهكذا دواليك ٠٠٠

وبعد عملية الاستخراج يُصار الى غسل القار في النهر لكي يُنقى من المواد الغريبة ، وبعد تنقيته يصار الى « صهره » لتنقيته من البحص ثم يطحن ليتحول الى قطـع صغيرة ، ويوضع في صناديق خشبيـة وينقـل علـى ظهور البغال الى مرفأ مدينة صيدا حيث يصدر منه الآن كميات هائلة ٠ والقار المستخرج من آبار حاصبيا يشبه القـار الموجـود في « النبي موسى » ٠ ويُطلق العرب على هذه المادة اسم « المُغره » أو « الحُمَّره » ٠ ومنذ زمن بعيـد كانت تستخدم هذه المادة لمكافحة الحشـرات ،وذلك بصهرهـا بواسـطة الحـرارة ثم تُمزج بالزيت وتُطلى بها جذوع الأشجار (الكرمة بشكل خاص) بالقرب من الجذور لوقايتها من الحشرات ٠ وقد انتقل هذا الأسلوب القديم الى فرنسا لمكافحة حشرة الفلوكسيرا بناء على توصية من السيد (M. Babbiani) بابيـاني ،كما سبق أن أشـار اليـه السـيد (Seetzen) ستيزن في عام ١٨٠٥ م ٠

تمتاز المناطق المجاورة لقرية حاصبيـا بجمال أخاذ ، فالحقـول المزروعة منتشـرة في جميع الجهات ، والهضاب المحيطة بهـا تبعث السرور في النفس وجميعها مغروسة بالأشجار،

ومياه السواقي العذبة لا تتوقف عن الخرير ،ورطوبة الجبل المنعشة ورياحه العطرة تريح الأعصاب ، خاصة أعصابنا التي أنهكها جفاف جبال السامرة ٠

وفي المساء أخذت فتيات القرية الجميلات، ذوات العيون السود الساحرة ، التي تزينها الأهداب الكحيلة ، بدأت هذه الصبايا يتوافدن الى مخيمنا لبيع بعض الأقمشة الجميلة المطرزة ، وأكياس النقود المصنوعة من الحرير البلدي الملون ، وكان بعضهن يتكلمن اللغة الانكليزية ٠ وقد فوجئنا بجمال هذه الفتيات الساحر وألوان البستهن الزاهية على الرغم مما لاحظناه من آثار مرض الملاريا الواسع الانتشار في هذه المناطق ٠

وفي صباح اليوم التالي ، استأنفنا رحلتنا حوالي الساعة الثامنة ، وكانت الشمس قد اعتلت في الأفق تزيد قمم حرمون البيضاء فتنة وجمالا ، فينعكس ضياؤها على الوديان المتوحشة التي تتخلل هذا الجبل المقدس ٠

كان « الدرب » الذي سلكناه يحاذي نهر الحاصباني ثم ما لبثنا أن اجتزنا النهر فوق « جسر حجري » وتابعنا السير على الضفة الغربية للوادي ، وبعد مسيرة (٣٥) دقيقة دخلنا ممراً جبلياً يُطل على « وادي التيم » ، ثم انحدرنا مسافة قصيرة لكي نعود فنصعد من جديد عبر سلسلة من الهضاب الحوارية المتعرجة ، التي تكثر فيها السيول وتنتشر فيها الصخور البازلتية ، تتخللها طبقات من التربة الرملية المائلة للاحمرار مشابهة لمثيلاتها من التربة الموجودة في معظم مناطق سورية(٢٧) ٠ والى اليسار سور جبلي مرتفع ، أجرد ، وممزق ، ويشكل جزءاً من الجبل المسمى بـ« جبل الظهر » الذي يفصلنا عن وادي الليطاني السحيق (غرباً) ٠ كان الطريق هنا صعباً منهكاً شديد الرتابة ، والأرض حوارية مائلة للبياض ، تنتشر فيها الحمم البركانية ، أما النباتات الهزيلة الموجودة في هذه الأرض فتقتصر على بعض شجيرات السنديان القميئة وقليل من أشجار الزيتون ٠

☐ قرية راشيا :

مررنا بمزرعة تسمى « مزرعة النبي » ثم اجتزنا الوادي ، وصعدنا صعوداً قوياً نحو الشرق ميممين شطر جبل الشيخ ، وكان المنظر هائلا يخلب الألباب ٠ وبعد صعود سريع آخر وسط أرض رملية مليئة بالأحجار البازلتية ، وصلنا في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر الى « قرية راشيا » الرائعة المعلقة فوق قمم هضاب ثلاث ٠ كانت منازل راشيا مبنية بالحجر « الغشيم » ومناظرها بائسة ٠ لا تتلاءم مع المناظر الطبيعية المحيطة بها ٠ نصبنا مخيمنا في احدى الحقول الواقعة في الجهة الشمالية من القرية ، وكان برفقتنا أسرتان انكليزيتان ٠ وبعد فترة قصيرة أخذت فتيات راشيا ذوات العيون الساحرة يتوافدن الى مخيمنا بأعداد كبيرة لبيع أقمشتهن المزركشة التي يصنعنها بأيديهن ٠ كما أخذ الكثير من المرضى يأتون الينا للاستشارة الطبية ٠ وقد دهشت عندما لاحظت الكثير من الاصابات بالديزانتاريا الحادة (الهيضة) وحمى الملاريا ، على الرغم من أن القرية ترتفع عن سطح البحر بما يزيد عن (١٣٣٠) متراً ٠

وفي المساء ألح عليّ السكان لزيارة بعض المرضى في بيوتهم لأنهم لا يستطيعون الحركة من شدة المرض ، وكانت فرصة لي للاطلاع على بيوت القرية من الداخل • وقد لاحظت أن معظمها يتألف من ثلاثة أو أربعة غرف تطل على نوع من الشرفة (المسطبة) المقنطرة المخصصة لاستنشاق الهواء والوقاية من أشعة الشمس المحرقة في الصيف •

وراشيا هي المدينة الأكثر أهمية في أعالي « وادي التيم » ويبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة آلاف نسمة يعمل جميعهم بزراعة الكرمة وأشجار الجوز والتوت الشامي ، وتغرس هذه الأشجار فوق مدرجات تعانق سفوح الهضاب المحيطة •

وفي صباح اليوم التالي قمنا بجولة في جبل الشيخ لزيارة قرية « رخلة » حيث توجد آثار معبد (سوري – فينيقي)(٢٨) ، ومن المحتمل أنه شيد لعبادة الاله « بعل حرمون » •

تابعنا مسيرتنا بعد ذلك فاجتزنا عدداً من الوديان الوعرة ، وأخرى مغروسة بالأشجار الى أن بلغنا نهاية احدى الوهاد العميقة ، حيث عثرنا على بقايا المعبد الذي تحيط به العشش والمنازل البائسة ••

كان منظر سلسلة جبال حرمون رائعاً ، لأننا كنا نراها بكاملها من هذا الموقع ، كما كنا نشاهد الوديان الموحشة التي تشلّمها • كما كانت الينابيع والسواقي العديدة تبعث الرطوبة والخصب في الأراضي المحيطة بالمعبد. أما المعبد فهو عبارة عن أنقاض ، تتبعثر أعمدته على الأرض بين الأحجار الضخمة المنحوتة مما يدل على أهمية هذا البناء • ويرجح أن تكون أفاريز الأعمدة من الهندسة الايونية • وتظهر على بقايا الجدار الجنوبي رصيعة رسم عليها وجه رجل يمثل الاله فوبوس وهذه الرصيعة منحوتة بشكل دائري بارز ، ويشكل قطرها حوالي متر ، ويبدو الرجل وكأنه ينظر الى قمة الجبل المقدس • وقد علمنا من السكان ، أن هناك عدداً آخر من المعابد المماثلة موجودة في الوديان المجاورة على جبل حرمون • ومن المؤسف أنه لم يكن لدينا متسع من الوقت لزيارة هذه المعابد ودراستها ، واننا لنوصي بأن يقوم أحد الخبراء الأكفاء بهذه المهمة •

بعد ذلك عدنا الى « قرية راشيا » وسنغادرها في الغد عند الساعة السابعة صباحاً لكي نتجه الى دمشق •

□ بحيرة كفر قوق :

غادرنا في الصباح الباكر راشيا ، سالكين طريقاً ينحدر مباشرة الى أسفل أحد الوديان باتجاه « بحيرة كفر قوق » الصغيرة ، التي تتغذى بمياه الأمطار ، ومن شلال هائل ينبع من أحد الصخور الواقعة شمال غربي هذه البحيرة • وقد علمنا أن البحيرة تجف غالباً في نهاية فصل الربيع ، وعندها يقوم الفلاحون بزراعة حوضها بالحنطة ، وفي بعض السنين الكثيرة الأمطار يبقى الحوض مليئاً بالمياه طوال فصل الصيف •

وفي وقت زيارتنا كانت مياه البحيرة عكرة وعميقة · ويدعي سكان « كفر قوق » أن نهر الحاصباني يستمد مياهه من هذه البحيرة ، غير أن هذه النظرية غير مؤكدة ، واذا صح ذلك يكون النبع الرئيسي لنهر الأردن الأعلى (أي نهر الحاصباني) من هذا المكان ·

يرتفع سطح بحيرة قوق حوالي (١٠٧٠) متر عن سطح البحر · وقد قمنا بجولة على شاطىء هذه البحيرة الشرقي ، ومررنا بالقرب من « قرية كفر قوق » ·

□ قرية كفر قوق :

تقع هذه القرية على قمة هضبتين متجاورتين تطلان على مدينة راشيا والجبال المتفرعة عن جبل حرمون ، كما تطلان على جبل حرمون نفسه ، الذي تناطح قمته الناصعة البياض عنان السماء · وقرية كفر قوق تحبوها الطبيعة بالمياه الغزيرة وتحيط بها أشجار الجوز الضخمة من كل جهاتها ·

وبعد أن تجاوزنا القرية المذكورة أخذنا بالصعود الى الشمال الشرقي عبر مسيل صخري جاف وأجرد ، وعلى جوانبه بعض شجيرات الشوك ذات الورود البنفسجية التي تنبت عادة بين الصخور ، وهي نوع من الكوزالبري القميء ، الذي لا يزيد ارتفاعه عن عشرات السنتيمترات ·

وينفتح الوادي المذكور على هضبة مفتتة تنتشر فوقها الصخور المسننة وبين هذه الصخور توجد بعض البقع الثلجية · وقد لاحظنا كثرة طيور الحجل على السفوح المغطاة بشجر السنديان والصنوبر والنباتات الشبيهة بنباتات جبال الألب · وعلى جوانب الطريق الضيق الذي سلكناه تنتشر الورود من كل الألوان ومن بينها شقائق النعمان ، والصليبيات التي تغطي الصخور بفروعها الفضية الكثيفة · كما شاهدنا نوعاً من أشجار « الدفلة » ذات الزهور الزرقاء ، وهي تشكل بساطاً ملوناً تحت أشجار السنديان ، والى جانبها ينمو النبات الغريب الذي يُسمى « لسان الثور » وهو بلون بني يشبه لون « الشوكولاته » وله رائحة نبات الفانيلا الذي ينمو في أماكن تراكم الثلوج بعد ذوبانها · كما شاهدنا النبات المسمى ب « أذن الفأر » الجميل (Myasatis) ، وهو أكثر رشاقة وجمالاً من نفس النبات الذي ينمو في مستنقعات بلادنا (أي فرنسا) · ووسط الصخور وحول بقع الثلج وجدنا أنواعاً من التوليب الأحمر يثير الدهشة كما شاهدنا نوعاً من القنصل الأزرق الجميل ·

أما بالنسبة للطيور فلم نشاهد منها سوى الحجل ، بل ولم نصادف أي نوع من الحشرات ، وكان السكون يخيم بكل رهبة ووقار على هذه المرتفعات التي تعيش فيها « الدببة » و « الفهود » ·

عبرنا بعد هذه المسيرة في مضيق موحش بين منحدرات عنيفة تتفجر منها العديد من الينابيع ، وينفتح هذا المضيق الطويل على السفوح الجبلية المشرفة على قرية « دير العشائر » ·

قرية دير العشائر :

تقع قرية دير العشائر فوق هضبة تسيطر على احدى المنخفضات الدائرية التي تحتوي في أسفلها بحيرة صغيرة تتشكل في الشتاء من مياه الأمطار · ووسط هذه القرية يوجد معبد فينيقي قديم ·

تحيط بقرية دير العشائر الكثير من المراعي الخصبة المشابهة لمراعي جبال الألب · وسكان دير العشائر من الفلاحين والرعاة ، وهم خليط من الدروز والمسيحيين ، وقد لقينا من سكان القرية الترحاب ولطف المعاملة ·

أما المعبد الكائن في منتصف القرية فلايزال بحالة حسنة وهو مبني على « تلة » مرتفعة صلبة ، ولا يُعرف شيء عن تاريخه · غير أن جمال الحجارة المنحوتة تدل على أهميته في الأزمنة الغابرة · وبعض بيوت القرية البائسة تستند الى أساسات المعبد المذكور وعندما تجولنا حول ضفاف بحيرة دير العشائر شاهدنا بعض طيور النورس البيضاء وهي تلهو مرحاً ·

☐ قرية ميسلون :

غادرنا قرية دير العشائر باتجاه الشمال الشرقي عبر واد فسيح ، وبعد مسيرة استغرقت ساعة تقريباً وصلنا الى « عين ميسلون » ، وهي احدى محطات البريد بين دمشق وبيروت · قضينا فترة من الراحة على حافة أحد الينابيع الغزيرة التي تروي وادي ميسلون ، ثم صعدنا على حافة الجبل الأجرد من الجهة الشمالية وتابعنا السير الى أن أطلت علينا « قرية الديماس » ·

☐ قرية الديماس :

تقع هذه القرية الصغيرة فوق هضبة جميلة يمتد البصر منها الى مسافة بعيدة فيعانق سلسلة من الجبال الجرداء ·

قضينا الليل بالقرب من هذه القرية ، وفي صباح اليوم التالي استأنفنا رحلتنا في وقت مبكر جداً لكي نجتاز السهل المسمى « صحراء دمشق »(٢٩) قبل اشتداد أشعة الشمس · وهذا السهل عبارة عن صحراء وعرة جرداء ومعزولة وبائسة لا شجر فيها ولا ماء ، بل ولا نبات · ومع ذلك فقد شاهدنا الكثير من زهر « المنثور » الذي يزين بألوانه البنفسجية هذه البقعة الكئيبة ويشكل في بعض الأماكن بساطاً رائع الجمال ·

☐ نهر بردى :

بعد أن اجتزنا هذه الصحراء اتجهنا نحو الشرق وأخذنا نصعد بعض المرتفعات الشديدة الانحدار ، ثم هبطنا فجأة الى الوادي العميق حيث يهدر « نهر بردى » الذي يغص بالمياه الباردة القادمة من سلسلة جبال لبنان الشرقية ·

كم كانت فرحتنا بهذا المنظر وما أجمل أن يستنشق المرء هذا الهواء المنعش ، ويتمتع بالرطوبة ويستمع الى هدير المياه الفضيـة بعد أن يقضي أسابيع وسط السهول القاحلـة والجبال الجرداء .

وتجدر الاشارة الى أن عرض النهر في هذه النقطة التي هبطنا اليها يكاد يكون مساوياً لعرض نهر « الرون »(٣٠) عند قلعة « اكلوز » (Ecluse) ، ومياهـه تفيض عـلى جوانبـه وتحيط به الأشجار التي تتألف في معظمها من « الحـور » والاثل .

☐ قريـة دمـر :

تابعنا السير بمحاذاة بردى الى أن وصلنا الى « قرية دمر » الضاحكة ، حيث يوجد أحد « الخانات » الكبيرة(٣١) التي تغطي جدرانهـا الخارجية خطوط عريضة ملونة ورسوم غريبة تمثل سفناً تجارية تمخر وسط قوافل من الابل تذكرنا بالرسوم « الباروك » التي ترجع للقرن السابع عشر .

اجتزنا نهر بردى فـوق أحـد الجسـور ودخلنا القرية ، بينما تابع النهر مجراه ضمن مجموعة من الهضاب الحوارية الصفراء ، ثـم سلكنا « درباً » مهجوراً يمر وسط مضيق صاعد الى أن وصلنا أحـد المرتفعات التي يعلوهـا « مقام » لأحد الأولياء المسلمين(٣٢) . وعندما صعدنا الى زروة هذا المرتفع ووقفنا الى جانب « الضريح » ظهرت علينا فجـأة مدينة دمشـق الرائعة يحيط بها حـزام واسع من البسـاتـين الغناء التي تفصلها عـن البادية ذات اللـون الأصفر الذهبي ، كما ظهـرت أمامنا سـهول وجبل حوران ، ومنطقـة الجيـدور(٣٣) ذات الأمجاد الغابرة ، والى يميننا ينتصب جبل حرمون (وقد بدا لنا من هذه النقطة قريباً جداً من دمشق ، بل يكاد يكون متصلا بالتلال الواقعة الى الجنوب الغربي من هـذه المدينـة) وترتفع قمته البيضاء وكأنها تلامس السماء اللازوردية ، وتمتد الى شمالنا سلسلة جبلية بنفسجية بمحاذاة طرق القوافل المتجهـة الى حمص وتدمر وبغداد وبـلاد فارس . وتحت أقدامنا مباشرة يربض « حي الصالحية » على سفح جبل قاسيون ، ويحيط بهذا الحي العديد من البساتين المسورة بجدران من « الدك الترابي » كبقية بساتين دمشـق . وعلى مسافـة قصيرة من حي الصالحية تقع « مدينة دمشـق القديمة » أو « مدينة ألف ليلة وليلة » بمآذنها وقبابها الأنيقة وسط بحر هائل من الخضرة ، ومن وراء هذا البحر الهائل من البساتين تبدو الصحراء والرمال وكأنها تمتد الى ما لا نهاية .

وتجدر الاشـارة الى أن بيوت دمشـق القديمة مبنية مـن « اللِّبن » المجفف وهـي مطلية من الخارج بطبقة ناعمة من الطين ذات لون أصفر ذهبي جميل . وتتألف معظم هـذه المنازل غالباً من طابق واحد ومظهرها الخارجي بسيط غير أنها من الداخل في منتهى البـذخ والجمال . والأخشاب المستعملة في بناء هـذه البيوت تؤخذ من أشجار الحور المنتشرة بكثرة في حوض بردى وعلى ضفاف السواقي المتفرعة عنه . أما البساتين المحيطة بالمدينة فيفصلها عن الطرق والشـوارع جـدران من اللّبـن المضغوط والمخلوط بالتبن . وهذه البساتين أشـبه بالرياض والحـدائق الغناء التي تعج بأشجار المشمش واللوز والتـين والرمـان .

وتمتاز أشجار المشمش بضخامتها وجمال شكلها ، ونظراً لعدم لجوء الفلاحين الى تقليمها فانها تأخذ شكلا خاصاً بها ، وثمار المشمش صغيرة الحجم (بالنسبة للمشمش المعروف في أوروبا) وقشرتها رقيقة ناعمة ذات لون أصفر ذهبي وطعمها لذيذ جداً . ويصنع سكان دمشق من المشمش صفائح ذات شهرة واسعة في كافة بلدان المشرق وتسمى بـ « قمر الدين » .

وتكثر الكرمة في دمشق ، وهي من الأنواع الممتازة ، وأشجارها على نوعين ، بعضها ينمو ويمتد أفقياً بمستوى سطح الأرض ، والبعض الآخر ينصب على « عرائش » من أعواد خشب الحور ، ويعلق أحياناً على أغصان الأشجار العالية . ويؤكل العنب غضاً بعد قطافه أو جافاً طوال فصول السنة على شكل « زبيب » ، أو يحول الى عصير يسمى « الدبس » ويستخدمه السكان أحياناً بدلا من السكر عندما يفقد من الأسواق بسبب الرسوم الجمركية الباهظة التي تفرضها السلطات التركية على المواد الأساسية المستوردة من الخارج .

والعنب الدمشقي يختلف تماماً عن العنب الفرنسي المسمى شاسلا(٣٤) (Le Chasselas) ولكنه يشبه الى حد بعيد الأنواع الجيدة ذات الحبة الكبيرة التي تنتج في منطقة البروفانس La Pravence (٣٥) ، ويعرف هذا النوع باسم « الغمزة » أو « نظرة الذام » وحباته مستطيلة ذات قشرة سميكة نوعاً ما وطعمه لذيذ جداً وشديد الحلاوة عندما يتم نضجه .

وتسقى بساتين وحدائق دمشق من السواقي التي توزع مياه بردى في جميع أنحاء الغوطة ولهذه السواقي خرير يطرب السمع ويمتع البصر ويبعث الرطوبة في الجو .

وفي أحياء دمشق حدائق عامة جميلة تتخللها السواقي ، وتستخدم أحيانا كمقاه يؤمها الناس في النهار ليستريحوا في ظلال أشجارها الباسقة من حرارة الشمس . وفي اعتقادنا أن الجلوس لمدة طويلة في هذه المقاهي الرطبة قد يضر بالصحة .

وتزود المقاهي عادة بمصاطب حجرية أو أرائك خشبية ترتفع عن الأرض بحوالي قدمين (٦٠ سم) تقريباً ، يجلس عليها الدمشقيون أو يتمددون بارتخاء لتناول القهوة والشاي أو للتدخين ، أو استنشاق النسيم المنعش الرطب في ليالي الصيف الحارة الخانقة أحياناً .

ومن عادات أهل دمشق أنهم يغلقون مخازنهم عند غروب الشمس ، ويخرجون زرافات ووحداناً للنزهة في البساتين والحدائق ويجلسون على ضفاف النهر الخالد يستنشقون نسيمه العليل المضمخ بعبير أشجار الغوطة . والملاحظ أن الرجال وحدهم هم الذين يخرجون من المدينة الى البساتين ، أما النساء فيبقين غالباً في البيوت للقيام بالأعمال المنزلية ولا يخرجن منها الا نادراً وهن محجبات .

وفي فصل الصيف تكون منازل دمشق حارة لأن جدرانها الطينية الرقيقة لا تكفي لامتصاص حرارة الشمس الشديدة(٣٦) .

وفي شوارع دمشق العديد من النوافير ، وأحياناً نشاهد بعض السواقي بمحاذاة هذه

الشوارع ، وهي تتغذى من مياه « بردى » أو « نهر الذهب » كما كان يسميه اليونان في الماضي .

والواقع أن الكثير من التعديلات أجريت على « النهر » منذ أقدم العصور ، الى أن تم توزيع مياهه على أكمل وجه ، بشكل يمكن معه ارواء « غوطة دمشق » وتموين المدينة بالمياه الغزيرة الباردة .

وبفضل هذه الأعمال الفنية الرائعة نشأت واحة دمشق الغناء وسط صحراء رملية ، واليها يرجع الفضل في خصوبة التربة ونضارة الأشجار .

ويُنظم توزيع المياه بموجب تشريعات دقيقة تستند الى قوانين العُرف والعادة العريقة بالقدم . وفي حالة نشوب أي خلافات بين الأشخاص الذين يستفيدون من ساقية أو مصدر مائي ما ، يصار الى حلها بشكل عادل بالرجوع الى هذه النصوص ، ويقوم بهذه المهمة عادة نوع من المحاكم الأهلية المتخصصة والتي لا تفصل بأي نوع آخر من الخلافات .

ومياه بردى وفروعه تتجمع كلها في النهاية شرقي المدينة فيشكل نهراً هائلا يصب على مسير يوم واحد تقريباً ، في بحيرة مستنقعية تُسمى « بحيرة العتيبة » . وتستقر المياه في هذه البحيرة غالباً طوال أيام السنة وتصل الى أقصى اتساعها في أوائل الربيع عند ذوبان الثلوج ، ثم تبدأ بالتناقص تدريجياً مع تقدم فصل الصيف ، وتكثر الأسماك في هذه البحيرة المغلقة التي تفقد مياهها بالتبخر فقط .

يبلغ طول بحيرة العتيبة حوالي (٢٥) كم ويتراوح عرضها بين (٤ ـ ٥) كيلو مترات ، وهي مقسومة الى جزئين بواسطة واد ضيق يمر في وسطها . ويطلق على الجزء الشمالي من البحيرة اسم « البحيرة الشرقية » أما الحوض الجنوبي فيسمى « بحيرة العتيبة » .

والبحيرة عموماً قليلة العمق ، وهي أقرب الى المستنقع الهائل الذي تتخلله بعض الحقول الصغيرة ، والبرك المائية والحفر العميقة أما في الربيع والشتاء فتغطي المياه حوض البحيرة بكامله .

وعلى مسافة عدة كيلو مترات الى الجنوب من العتيبة ، توجد بحيرة أخرى أصغر منها تسمى « بحيرة الهيجانة » ، وتتغذى من مياه « نهر الأعوج الذي ينبع من جبل الشيخ ، ويطلق على هذا النهر في جزئه الأعلى اسم « نهر عرنة » . والى جوار بحيرة الهيجانة ، يوجد بركة مائية واسعة متصلة بها وتسمى « بحيرة باله » وعلى مسافة بعيدة الى الجنوب من بحيرة الهيجانة توجد بحيرة رابعة تسمى « مسطح براق »(٣٧) . ويتغذى مسطح براق من مصدرين أساسيين : الأول السيول الموسمية القادمة من « تل أبو عباية »(٣٨) (وهو تل بركاني في شمالي سهول حوران) ، والثاني السيول القادمة من جبل حوران « جبل العرب الحالي » وتسمى « بوادي اللواء » .

وجميع هذه البحيرات أو المستنقعات محاطة بأدغال كثيفة من القصب والأسل الأمر الذي يجعل الاقتراب منها شديد الصعوبة . وقد سبق للسيد (M. Mac Gregor)

ماك غريغور أن استكشف جميع هذه المستنقعات واستعمل لانجاز عمله زورقاً خفيفاً •
ويشاهد بين أدغال القصب أعداد هائلة من الطيور التي تلجأ اليها نظراً لتوفر الحشرات التي تتغذى بها •

أما الأسماك الموجودة في هذه المستنقعات فهي من الأنواع التالية : سمك البطريخ (Cyprinodos) واللوسيكوس (Leuciscus) ، والرودوس (Rhdeus) ، والكابوتيا (Capoeta) والألبورنوس (Alburnus) ، كما يعثر في مياهها على الكثير من الأفاعي وسلاحف الماء ، وسلطعان المياه الحلوة الذي تباع الأنواع الكبيرة منها في أسواق دمشق ؟.

ويشاهد في هذه البحيرات طيور البجع الوحشي والبيليكان والدجاج البري (أو الشنقب) وأنواع مختلفة من طير « مالك الحزين » والبط والوقواق ، وفي فصل الشتاء تؤم المنطقة أنواع من البجع الأصلي(٣٩) •

أما الأشجار فهي نادرة حول هذه المستنقعات بل وأحياناً لا وجود لها اطلاقاً ، ولا يوجد سوى بعض الأجمات المتباعدة من « شجر الطرفة » ذو الورد الأبيض ، وأشجارها في هذه المناطق عالية جداً •

ولا بد من الاشارة الى أن معظم هذه « البُرك » تجف في فصل الصيف وتصبح نتنة في الخريف تنبعث منها روائح كريهة تصل أحياناً الى مسافة بعيدة • وتسبب الكثير من الاصابات بالحمى القاتلة بين سكان القرى المجاورة لها • ولهذا يُستحسن عدم زيارتها أو الاقامة في المناطق القريبة منها خلال فصلي الصيف والخريف •

تمتد الغوطة بين مدينة دمشق وبحيرة العتيبة شرقاً ، وهي تتألف من البساتين المغروسة بأشجار المشمش والجوز والزيتون والتفاح والكمثرى والسفرجل والدراق ، والعنب وغير ذلك •••

وتقع دمشق على هضبة ترتفع عن سطح البحر بحوالي (٨٠٠) متر وهي باردة في الشتاء وحارة محرقة في الصيف خاصة عندما تهب عليها الرياح الجافة القادمة من صحارى بلاد الرافدين والجزيرة العربية •

ويرتدي سكان دمشق في الشتاء ، عباءة مبطنة أو مزينة بالفرو كما هي الحال في مدينة اسطمبول •

وفي هذا الفصل من السنة وجزء من فصل الخريف تغطي سماء دمشق سحب كثيفة تحملها الرياح الغربية ، ويتعلق بعضها على جوانب الجبال المحيطة ، وتبدأ الأمطار بالهطول في منتصف شهر تشرين الأول ، ولكنها في أغلب الأحيان تتأخر حتى بداية شهر تشرين الثاني ، وعندها تتغطى قمة جبل الشيخ بعمامة بيضاء من الثلج • غير أن السماء في دمشق تبقى صافية زرقاء بشكل عام طوال تسعة شهور وكل عام •

وبالرغم من ارتفاع هضبة دمشق النسبي الا أن متوسط درجة الحرارة السنوي مرتفع ، لذلك تنمو في بساتينها أشجار البرتقال والنخيل خاصة في الأماكن المحمية من الرياح

والصقيع ، لذا تجد أن معظم منازل دمشق تحتوي على أشجار البرتقال والليمون والأنواع الأخرى من الحمضيات · وتجدر الاشارة بهذه المناسبة الى أن التمور التي تنتج في بساتين دمشق من النوع الرديء ولكن الحمضيات ممتازة ·

وتنتج دمشق كميات كبيرة من المشمش ، ويجفف نصف محصوله تحت أشعة الشمس ويصنع منه عجينة تشكل نوعاً من الصفائح اللدنة تسمى « قمر الدين » (كما سبق أن ذكرنا في مكان آخر) · وهذه الصفائح يسهل نقلها الى أماكن بعيدة ، ولهذا نجد أن القوافل تحمله الى مكة وبغداد ، كما تصدر منه كميات الى تركيا ومصر والجزيرة العربية · وفي بعض الأحيان تطعم لفائف القمر الدين ببذور اللوز · أما الأرمن المقيمين في دمشق فيصنعون من اللوز نوعاً من « الزيت المقدس » !!!··· يستخدم في بعض الطقوس الدينية ·

وأشجار المشمش مشهورة جداً في دمشق لدرجة أن بعض العلماء يعتقدون بأن موطن هذه الشجرة الأصلي هو سورية · ويدعي الكولونيل بريجيفالسكي Le Colonel Prejevalsky أنه عثر على غابات كاملة من هذه الشجرة في أواسط آسيا ·

أما تين الهند (أو ما يسمى بتين الصبار) فتوجد منه بعض الحواكير في مناطق مختلفة حول دمشق ، ويستعمل أحياناً كاسيجة كثيفة لحماية الحروم والبساتين في الأماكن المتطرفة والقرى المجاورة لدمشق · وتعطي شجرة الصبار محصولا هائلا ، وهو مرغوب من قبل العامة ، غير أن ثمرتها عسيرة الهضم ، ولا أنصح بأكلها الا بكثير من الحذر ·

وتزرع في بساتين دمشق مساحات من « التبغ » ولكنه لا يقارن بالتبغ الذي يزرع عادة على الساحل كما يزرع أيضاً أنواع أخرى من الحبوب كالحمص والعدس الذي يرغبه سكان دمشق كثيراً ويحضرونه على أشكال مختلفة · وهناك نوع آخر من نبات الخبازيات مثل : الخبيزة والملوخية ونبات الذرة البيضاء التي يصنع من حبوبها نوع من الطحين الرديء هذا بالاضافة الى الفول والكوسا والبطيخ ·

كما يزرع في الغوطة كميات من القنب الذي تستخرج منه الألياف لصنع الحبال ، ويُستفاد من جذوعه اليابسة كوقود للأفران التقليدية ، وهناك أخيراً حقول واسعة تزرع فيها الذرة الصفراء والقمح والشعير ·

ووراء غوطة دمشق الى الشرق من البحيرات التي أتينا على ذكرها تمتد السهول الصحراوية التي يرتادها البدو الرحل لرعي مواشيهم وابلهم · وينبت في هذه السهول نوع من النبات يسمى « الشنان » أو « الأشنة » ، وهو عبارة عن شجيرات قميئة تقطع بواسطة بلطة حادة ، ويكدس على شكل أكوام ضخمة فوق حفرة داخل الرمال ، ثم يحرق وينتج عن ذلك « مادة صلبة سوداء تسمى « القلي الحجري » وهي عبارة عن «كاربونات الصودا النقية» وتستخدم في صناعة الصابون ·

كما يحتفظ سكان البادية بزهرة هذا النبات ويستخدمونها في غسل أمتعتهم وألبستهم بدلا عن الصابون ·

ويحمل سكان البادية الى المدينة أيضاً قطعاً من الكبريت الذي يستخرجونه من بعض الأماكن في سهل حوران ، ويستخدم لصنع نوع من « البارود » ٠

أما « ملح البارود » فيجمع عادة من الأراضي المالحة في المناطق المجاورة القريبة من دمشق ٠

ويحمل البدو الرحل الى أسواق دمشق « الصقور الكبيرة المدربة على صيد الغزلان ويطلقون عليها اسم « الطير الحُر » ، ويبيعونه بأسعار عالية جداً للأغنياء ٠ أما الصقور الصغيرة وتسمى « الطير المقري » فهي أقل أهمية من « الحُر » وأرخص ثمناً ، وتستخدم لصيد الأرانب والطيور » ٠

□ الحواشي : ـ للبحث صلة ـ

★ م٠ لورتيه : عميد كلية الطب في جامعة ليون ٠

١ ـ المسلك : هو الطريق الضيق الذي يستخدمه المشاة وهولا يتسع لأكثر من رجل أو راحلة ويسميه الريفيون « دربا » كما يطلقون عليه أحيانا اسم « شريك » ٠

٢ ـ المقام : هو الاصطلاح الذي يطلق على قبور المشايخ والاتقياء وأحيانا بعض الدجالين الذين تكاثروا في العالم الاسلامي في عصور الانحطاط ٠

ملاحظة : جميع الملاحظات التي ترد في الهامش هي للمعرب ٠

٣ ـ تيفولي : هي حديقة غناء في روما مشهورة بنوافيرها الخلابة واشجارها وزهورها وهندستها الرائعة ٠

٤ ـ العرائش : جمع عريشة ، وتسمى أحيانا « العرزال » ويستخدمها الفلاحون لحراسة مواسم الغضرة والفاكهة ولاتقاء حرارة الشمس والحر في ليالي الصيف ٠

٥ ـ هيرود انتياس (٢٠ ق٠م ـ ٣٩ م) وهو حاكم الجليل الذي بنى مدينة طبريا ؛ وقد ذكر اسمه في الانجيل اثناء محاكمة السيد المسيح عليه السلام ، وهو نفسه الذي قطع راس القديس يوحنا المعمداني ٠

٦ ـ بانياس : واسمها باليونانية Panias ٠

٧ ـ تيتوس : Titus ابن فيسباسيان (٣٩ ـ ٨١ م) ،أحد اباطرة روما ، الذي تميز عهده بالليبرالية ، وكثرة الانشاءات ٠ ومن بينها (الكوليزيه ، والتيرم Thérmes ، وقوس نينوى) وقد انفجر في زمنه بركان فيزوف عام ٧٩ م ودمر بومبيي ، وهركولا وستابي) ٠

٨ ـ فوكلوز Vaucluse : مقاطعة فرنسية في جبال الألب البحرية المطلة على الكوت دازور (عن لاروس)

٩ ـ جونين : قرية فلسطينية تقع شمال غرب الحولة فوق هضبة تشرف على نهر الاردن ٠

١٠ـ بحيرة الحولة : هي خزان مائي عظيم تتجمع فيه مياه أنهر اللدان والحاصباني وبانياس والينابيع والسواقي المختلفة التي تنساب من سفوح الجولان وجبال الجليل ، ويبلغ طول هذه البحيرة ١٢ كم وعرضها يتراوح بين ٦ ـ ٨ كم ٠ غير ان الاسرائيليين أزالوا هذه البحيرة ، وهم يستغلون الأرض وقاعها للزراعة بعد أن حولوا مياه الأردن الى صحراء النقب ٠

١١ـ الدوفينيه La Douphiné : منطقة فرنسية تقع بالقرب من الحدود الايطالية في جبال الألب ، وعاصمتها مدينة غرونوبل ٠

١٢ـ بركة رام : هي البحيرة الدائرية الواقعة في هضبة الجولان ويسميها السكان « بحيرة مسعدة » ٠

١٣ـ ستيلروفان دوفيلد : من الرحالة الاوربيين الذين زاروا منطقة الجولان في النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠

١٤ـ الهونبلند Honblende : بللورات معدنية ذات لون أسود أو أخضر غامق ٠

١٥ـ من المعروف ان هذا النوع من الحيوانات الماصة للدماء ، كانت تستعمل الى وقت قريب لامتصاص الدم ممن يشكون من ارتفاع الضغط ٠

١٦ـ الصخور الجوراسية : هي صخور حوارية تنسب الىصخور جبال الجورا في شرقي فرنسا •

١٧ـ المزرعة : المقصود بها هنا مزرعة بيت جن •

١٨ـ يسمى هذا النوع من مواد البناء ب « اللبْن » وهو عبارةعن جبلة من التراب والتبن ، يصب بقوالب خشبية حتى يجف، على شكل مضلع مستطيل ، ويستخدم للبناء في كثير من القرى والمدن السورية قديما ، بدل الأحجار ، ويمتاز بامتصاصه للحرارة في فصل الصيف •

١٩ـ الوزال نبات جبلي من فصيلة القرنيات •

٢٠ـ الصر : نبات كثير الشوك ينمو غالبا في التلال •

٢١ـ وادي الأردن الأعلى : يقصد به الرحالة وادي نهر الحاصباني الذي يقع في الأراضي اللبنانية ثم ينحدر ليرفد نهر الأردن في غور الحولة •

٢٢ـ الواقع أن المياه التي تاتي من عرنة يتجه بعضها الىنهر الأعوج والبعض الآخر يستمر بالجريان حتى الغوطة الغربية •

٢٣ـ منذ فترة طويلة لم يعد يشاهد السكان في القرى المجاورةلجبل الشيخ أي أثر لهذا النوع من الدببة غير أن بعض المسنين يذكرون الحكايات عنها بشكل يقرب للأساطير ، غير ان من المعروف وجود الضباع والذئاب وابن آوى والهر البري ، والفهد السوري •

٢٤ـ جبل الأسود : جمع أسد ولا أدري من أين أتت هذهالتسمية ، وأرجح أن الرحالة يعني بها جبال القلمون وجبال البلعاس •

٢٥ـ جبل حوران : هو الجبل الذي أطلق عليه في السنين الأخيرة اسم « جبل الدروز » نظرا لوجود أكثر المواطنين الدروز حول هذا الجبل ، علما بانه كان منذ الجاهلية يحمل اسمه القديم •

٢٦ـ كانت اول رحلة قام بها الرحالة لسورية عام ١٨٨٠ م•

٢٧ـ يرجى الانتباه بان الرحالة عندما يتكلم عن سورية فانه يعني بها سورية الطبيعية التي تضم سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، بين جبال طوروس وخليج العقبة •

٢٨ـ لعل الكاتب عندما وصف المعبد بانه (سوري ـ فينيقي)لم يخطر على باله أن الفينيقيين لم يكونوا معزولين على شاطىء سورية فقط كما يحاول بعض المستشرقين أنيؤكدوا ذلك لكي يعطوا للبنان هوية خاصة لا علاقة لها بالداخل ••

٢٩ـ الواقع أن هذا السهل يسمى بصحراء الديماس وليس صحراء دمشق ، وقد تحول الآن الى منتزه رائع •

٣٠ـ نهر الرون : أحد أنهار فرنسا الكبيرة الذي يبلغ طولهحوالي ٨١٢ كم ، منها (٢٩٠) كم في الأراضي السويسرية حيث يصب في بحيرة جنيف (ليمان) ثم يجتاز الحدود الفرنسيةعند جبال الجورا ، ويتجه جنابا الى مدينة ليون ، ثم يلتقي بنهر الصون عند الكتلة المركزية وينتهي في البحر المتوسط •

٣١ـ من المؤسف أن الزائر لهذه الضاحية الجميلة لا يعثر على أي أثر لهذا الخان في هذه الأيام •

٣٢ـ من الواضح أن الرحالة سلك طريق دمر متجها الى الجنوب الشرقي صعودا الى المرتفع الذي تقع عليه « قبة السيار » وهي ذلك الضريح الذي يشير اليه •

٣٣ـ منطقة الجيدور : هي المنطقة الواقعة بين سهل حورانوجبل الشيخ •

٣٤ـ Le Chasselas : نوع من العنب يعرف في فرنساباسم المنطقة التي تنتجه •

٣٥ـ La Provence منطقة لها شهرة بالكرمة وتقع فيجنوب فرنسا الى الشمال من مدينة مارسيليا •

٣٦ـ يبدو أن الرحالة يتكلم على غير تجربة ، لان جدران اللبن الطينية تشتهر بامتصاص الحرارة والبيوت الشامية معروفة برطوبتها في الصيف ودفئها في الشتاء •

٣٧ـ مسطخ براق : نسبة الى القرية الشركسية الواقعة فيالزاوية الشمالية الشرقية من « اللجاه » ويطلق عليها السكان المحليون اسم « مسطخ الجملان » نسبة الى العشيرة التيتخيم حولها •

٣٨ـ الواقع ان المصدر الأول ياتي من مستنقعات سقحب الواقعةشمال قرية غباغب والتي تتغذى بمياه جبل الشيخ •

٣٩ـ رحم الله هذه الانواع من الطيور التي لم يعد يراها الناس الا في الكتب الأجنبية والمصورة بعد ان قضى عليها الصيادون الذين لا يتقيدون باي قاعدة او نظام للصيد •

رحلة في البحر المقتضب

مصطفى الحدري

من الناس من يركب متن السفينة ويزور الجزر البعيدة والشواطىء الغريبة · فما رأيك أيها القارىء الكريم في أن تصحبنا في هـذه الرحلـة التـي نركب فيها سفينة بلا محرك أو شراع ، ونرود بها بحراً ما فيه قطرة ماء، ، انه البحر المقتضب الذي سنحاول في هذه المقالة أن نعرف من الذي اقتضبه وما معنى الاقتضاب ·

ذكروا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول مـن فكـر في أوزان الشعر العربي فاستنبط منها خمسة عشر بحراً · وقد يكون البحر الواحد من هذه الأبحر الخمسة عشر على عدة تفريعات · وجاء من بعد الخليـل فزادوا في أبحر الشعـر العربـي ما زادوا ، وأوجدوا مـن التفريعات الجديدة في الأبحر القديمة ما أوجدوا ·

ومن أساليب التفريغ أن يؤخذ من البحر التـام مجزوء ، وذلـك باسقاط التفعيلـة الأخيرة من صدره وعجزه · وعلى هذا كان لمعظم البحور التي استنبطها الخليل مجزوءات· ولكن هناك أسلوباً آخر من أساليب التفريع هو اسقاط التفعيلة الأولى من الصدر والعجز، وليس لهذه العملية اسم محدد ، وقد مارسها الخليـل بن أحمد على بحرين هما الخفيف والمنسرح ، فخرج من الخفيف نموذج نغمي جعله بحراً هو المجتث · وخرج مـن المنسرح نموذج نغمي دعـاه المقتضب · والاجتثـاث والاقتضاب جميعاً بمعنى الاقتطاع ·

ووزن الشطر من المنسرح هو : مستفعلن مفعولات مستعلن · فاذا سقطت التفعيلة الأولى خرج معنا : مفعولات مستعلن · وهذا وزن الشطر مـن البحر المقتضب(١) · وقد وجدنا السالفين من العرب يقولون أبياتاً على المجتث، ولكنهم لم يقولوا أبياتاً على المقتضب· وهو فيما يبدو مما استنبطه الخليل بعقليته الجبارة ·

غير أن الأخفش قد زعم أن السالفين قد نظموا عليه(٢) ، ودليله بيت واحد قيل : انه سمع في عهد النبي محمد ﷺ ، وهو :

هـــل علـــي ويحكمـــا ان لهـــوت مـــن حـــرج

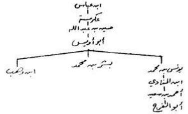
ولهذا البيت قصة أوردها أيها القارىء عليك لتسير معي في أزقة البرهان ونصل الى نتيجة في هذه المسألة • قال أبو الفرج الأصفهاني • « مر النبي ﷺ على حسان بن ثابت ، وهو في ظل فارع ، وحوله أصحابه وجاريته سيرين تغنيه بمزهرها :

هـــل علـــي ويحكمـــا ان لهـــوت مـــن حـــرج

فضحك النبي ﷺ ثم قال : لا حرج ان شاء الله »(٣) وفارع الذي في هـذا الحديث هو أطم أو حصن لحسان بن ثابت في المدينة المنورة ، وسنـد هـذا الحديث عنـد أبي الفرج قـوله : « حدثني بـه أحمد بـن سعيد قال : حدثني محمد بن عبيد الله المنادي قال : حدثني يونس بن محمد قال : حدثنا أبو أويس ، عن حسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس ، عن عكرمة ، عن ابن عباس » •

وقد ورد هذا الحديث بصورة أخرى ، فقد أخرجه أبو نعيم من طريق بسر بن محمد المؤدب ، عن أبي أويس ، عن حسين بن عبدالله ، عن عكرمة ، عن ابن عباس • قال : مر رسول الله ﷺ بحسان ومعه أصحابه سماطين وجارية له يقال لها سيرين • فجعل بين السماطين وهي تغنيهم ، فلم يأمرهم ولم ينههم • ورواه ابن وهب عن أبي أويس كما تقدم ، ولكن فيـه قوله : وجارية طربة تغني لهم(٤)

واذا أردت أن أرسم لسند هذا الحديث شجرة كشجرة النسب فانها هكذا :



ويفهم من هذا أن الأخفش قد استدرك على الخليل بهذا البيت ، فبين أن المقتضب مسموع من عهد النبوة ، وأن ذلك لم يصل الى علم الخليل • وفي هذا الحديث علة قادحة ، فكأنه قصة مختلقة تسوغ لبعض المغرمين بالغناء أن يستمتعوا به • وقد جـاء ذلك في قوله : لا حرج ان شاء الله • وفي قول الراوي : فلم يأمرهم ولم ينههم • ولست هنا في مجال

مناقشة هذا الحديث من الناحية الفقهية ٠ وانما أقدم من الأدلة أو من وجهات النظر ما يقوي هذه العلة القادحة في هذا الحديث ٠ فنحن ان اعتقدنا صحة هذا الحديث بكل ما فيه وجب علينا أن نعتقد أن البيت الذي فيه قديم، وليس من نظم الخالفين وهو ان لم يكن من نظم سيرين فانه من محفوظها ٠ وسيرين هذه أخت مارية القبطية زوج النبي الأعظم محمد ﷺ ٠

واذا أردنا أن نناقش كل الوجوه المحتملة، فان منها أن يكون هذا البيت من محفوظ سيرين وأنه من نظم شاعر عربي مجهول ٠ وهذا غريب لأنه لم يرد عن طريق غيرها من حفظة الشعر القديم ٠ ومن هذه الوجوه المحتملة أن يكون من نظمها ، وهذا أغرب ٠ وذلك لأن سيرين وأختها مارية رضي الله عنهما من قرية حفن بمصر(٥) القبطية ٠ وقد وصلتا المدينة المنورة سنة سبع للهجرة(٦) ٠ وعلى اثر حديث الافك أهدى النبي ﷺ سيرين الى حسان بن ثابت ٠ واذا كان الحديث الذي فيه البيت الذي نحن بصدده صحيحاً فلا بد أن يكون قد حدث قبل وفاة الرسول في السنة الحادية عشرة للهجرة ٠ فالمدة التي قضتها سيرين بين العرب أربع سنوات أو خمس منذ أن بارحت مصر الى أن توفي النبي الأعظم ﷺ وان كان هذا الحديث صحيحاً فانه قد جرى في احدى هذه السنوات الخمس ، ولنقل جدلا انه حصل في الأخيرة من تلك السنين ، فهل خمس سنوات من العيش بين العرب قادرة على أن تحول لسانها من الأعجمية الى العربية ، فتكون ذات أسلوب مبين ؟ ونحن اذا تجاوزنا عقدة اتقان اللغة العربية فهل نتجاوز عقدة أخرى وهي أنها تمكنت في هذه السنوات القليلة أن تنظم شعراً عربياً ؟ والعقدة الكأداء التي يفترض أنها تجاوزتها هي التمكن من نظم الشعر والابداع في أحد أوزانه ، وذلك باستنباط بحر من بحر ، أي باستخراج المقتضب من المنسرح والنظم عليه ٠ أنا لا أتوقع أن تكون قد تجاوزت كل هذه العقد وأميل الى أن هذا الحديث موضوع ، أو اذا أردت الدقة أميل الى أن هذا البيت الذي في هذا الحديث موضوع، والذي وضعه في رأيي شاعر ذو حس موسيقي ممتاز قادر على الابداع ٠ وربما كان مغرماً بالغناء وما اليه ، فلذلك حاول أن يختلق من الحديث ما يبيح له ذلك الاستماع ٠

ونعود الى سند الحديث فنجد أنه حديث آحاد من ابن عباس الى أبي أويس ، وبعد ذلك انشعب في ثلاث طرق ٠ ولا يمكن أن يتهم أحد رجال هذه الشعب الثلاث بوضع هذا الحديث ، لأنه لم يتفرد بروايته ٠ فالوضع اذن ما بين ابن عباس وأبي أويس ٠

ولا يعقل أن يكون ابن عباس ممن يضع الحديث ، ويستبعد أن يكون مولاه عكرمة قد فعل ذلك ــ وان كان مغرماً بالغناء(٧) وذلك لأنه من وفيات سنة ١٠٥ هـ أي قبل الخليل بأمد طويل ، لأن الخليل قد توفي سنة ١٧٠ هـ أي بعد عكرمة بخمس وستين سنة ٠ وهذا وقت كاف لشيع هذا الحديث لو كان من عنديات عكرمة ، وكاف لأن يصل البيت الذي فيه الى مسامع الخليل ٠ هذا بالاضافة الى أن عكرمة لم يكن شاعراً ٠ فواضع الحديث اذن حسين أو أبو أويس ٠

وأبو أويس هو عبدالله بن عبدالله المدني المتوفى سنة ١٦٧ هـ(٨) وهو عند أبي داود وغيره : صالح الحديث(٩) . وقد اختلف قول يحيى بن معين فيه ، ويبدو أنه كان سيء الرأي فيه أولا ثم حسن رأيه(١٠) ومهما تكن منزلة هذا الرجل في سلم درجات التوثيق فاني أبعد أن يكون قد وضع البيت لأنه ليس شاعراً .

أما حسين فقد كان شاعراً ، وكان فقيهاً(١١) مغرماً بالغناء ، وقد ترجم له أبو الفرج في أغانيه . وذكر المحدثون أن له أشياء منكرة فأنا أرجح أن يكون هذا الحديث ـ أو البيت الذي فيه على الأقل ـ من هذه الأشياء المنكرة التي ذكروها . ولا يبعد أن يكون هو الذي تأثر بصنيع الخليل ، واخترع هذا البيت بناء عليه ، فتلقفه الأخفش الذي توفي سنة ٢١٥هـ أي بعد الخليل بخمس وأربعين سنة فزعم أن المقتضب قد سمع في عهد النبي ﷺ .

* * *

☐ المصادر :

١ ـ الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي تح الحساني عبدالله ط بيروت ص ١٢٠ .

٢ ـ الفصول والغايات لأبي العلاء المعري ص ١٣٢ .

٣ ـ الأغاني ط دار الكتب ١٢ / ٦٧ .

٤ ـ الاصابة ٤ / ٣٣٩

٥ ـ معجم البلدان ٢ / ٢٧٦ .

٦ ـ سيرة ابن هشام ٤ / ٦٠٦ .

٧ ـ شذرات الذهب ١/١٣٠ .

٨ ـ تهذيب التهذيب ٥/٢٨٠ .

٩ ـ ديوان الضعفاء والمتروكين للذهبي ١٧٠ .

١٠ـ التاريخ لابن معين ١/١٢٢ ـ ١٢٣ وتاريخ الدارمي ١٩٠ .

١١ـ جمهرة النسب لابن الكلبي ١٤٠ وقد تحرف اسمه الى حسن .

* * *

أبو العبر الهاشمي

دادائي من زمن بني العباس!

عادل العامل

ظهرت في المجتمع العربي الاسلامي في زمن بني العباس ، نتيجة للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بنية ذلك المجتمع ، ظواهر عدة ، واتسعت غيرها لتشمل دائرة أوسع ولتتخذ سمات أكثر وضوحاً مما كانت عليه في السابق ، مثل اللصوص والموسوسين والمجانين والسكارى والظرفاء والحمقى والمتحامقين .

وقد برزت ظاهرة الحمقى والمتحامقين ، شكلا من أشكال الاحتراف في القرن الثالث الهجري ، وأصبحت تعبيراً صريحاً عن التصدع الذي حدث في قوام الدولة والمفاهيم الاجتماعية الموروثة وانقلابها رأساً على عقب . فاذا ما أراد المرء ، المثقف على وجه خاص، العيش بعافية وسلامة، مع الحفاظ على موقفه الرافض أو المتحفظ من السلطة ، ادّعى الجنون والوسوسة أو الصرع . واذا ما أراد لعقله المعايشة السلمية مع أسباب الخلل في البنية الاجتماعية ، انصرف الى معاقرة الخمرة والمجون ، أما اذا أراد الكسب السريع والحظوة والشهرة ، تحامق وجعل من موهبته شاعراً ، مثلا ، مصدراً للاشتهار والاثراء وجسراً للوصول الى الطبقة المنحلة من الأعيان .

وهذا ما حدث ، بالضبط ، لأبي العِبر الهاشمي ، الذي لم تقف قرابته للخليفة الحاكم حائلا دون انحداره الى مستوى السخف والتجاهل والحمق الذي انحدر اليه ، بل واستثمر تلك القرابة الى أقصى حد ، ليصبح في الأخير أحمق البلاط الأول ونقيباً رسمياً للحمقى ، آنذاك !

كان أبو العبر ، اذن ، واعياً لقراره ومدركاً لطبيعة ذلك العصر ، الذي لن يستطيع اختصار طريق الشهرة والحظوة فيه ، مع وجود شعراء كبار كالبحتري وأبي تمام ودعبل

الخزاعي ، الا بسلوك الطريق المضاد ، الأقصروالأقل عناء . فلن يكلفه ذلك كثيراً : ماء وجهه ، وليس شيئاً آخر سواه ! ولم تكن التجربة جديدة عليه ، بالرغم من أنه كان ، لفترة من حياته ، أديباً صالحاً ، كما يذكر الرواة . فقد اختلف، أيام صباه ، مع غيره من الأحداث، الى رجل يعلمهم الهزل . فكان هذا يقول لهم(١) : « أول ما تريدون هو قلب الأشياء » . وقد أثبت أبو العبر ، حقاً ، أنه تلميذ «نجيب» في تلك المدرسة ، وبقي مخلصاً لهذه الطريقة في ممارسة السخف والتحامق حتى النهاية ، متفوقاً في ذلك على أساتذته وعلى زملائه في الحرفة مثل أبي العنبس الصيمري وأبي البغل وغيرهم .

اسمه ونسبه

يختلف رواة المصادر المترجمة له في اسمه . فبعضهم يقول : أحمد بن محمد ، وبعضهم الآخر يقول محمد بن أحمد . فقد ذكر المرزباني(٢) انه : أبو العبر أحمد بن محمد بن عبدالله بن عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، وهذا ما ذكره أيضاً ابن ماكولا وابن شاكر الكتبي ، والزبيدي والعسقلاني . أما الأصفهاني(٣) ، فقد ذكر انه : أبو العباس محمد بن أحمد ، ويلقب بالحامض ، ابن عبدالله بن عبد الصمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب . وكذلك الحال مع ياقوت الحموي ومحمد بن داود والبكري والزركلي .

كنيته

واذا لم يستطع أبو العبر أن يتلاعب باسمه ونسبه أيضاً ، فانه استطاع ذلك بكنيته . فقد ذكر انه غيّر كنيته من (أبي العباس) الى (أبي العبر) . ولم يكتف بذلك بل أخذ يزيد فيها كل عام حرفاً حتى مات ، وكنيته ، كما يوردها ، الأصفهاني(٤): أبو العبر طرد طبل طيري بك بك بك ! وفي مخطوط(٥) انها : طر طيطليري بك بكبك ! وذكر البكري(٦) انها : أبو العبر طر طيل طليري بك بك بك ! أما ابن شاكر الكتبي(٧)، فقد ذكرها كالتالي : أبو العبر طزد طبك طنبلدي بك بك بك ! وذكرها كل من صاحب (كنى النزهة) وصاحب (كتاب الألقاب) انها(٨) : أبو العبر طزد !

ويضبطها بعضهم : أبو العِبر ، بكسرة ثم فتحة ، كالمرزباني وياقوت الحموي والزبيدي . أما لدى ابن ماكولا والعسقلاني والبكري والبغدادي ، فهي : أبو العَبَر ، بفتحتين . وربما أوردها بعضهم : أبو عَبَرة أو أبو العَبَرة ، بفتحتين .

☐ حياته :

ولد أبو العبَر ، كما يذكر أبوه(٩) ، بعد خمس سنين خلت من خلافة الرشيد . واذا علمنا أن الرشيد تولى الخلافة سنة سبعين ومائة ، فهذا يعني أنه ولد سنة خمس وسبعين ومائة . وكان يختلف مع غيره من الأحداث الى رجل يعلمهم الهزل ، وقد أظهر أبو العبر براعة وتفوقاً في دروسه تلك ، حتى طلب منه أستاذه ذلك الا يصحبه أكثر من ذلك ، فقد أصبح أستاذ الأستاذين(١٠) ! .

الا أن أبا العبر ، كما يبدو ، سلك فيمابعد مسلك غيره من الناس الذين يقولون الشعر ، مع توسطه • وكان ، على حد قول الصيمري له ، « أديباً ظريفاً ، مليح الشعر ، يسلك في شعره الجد ، الى أن ولي المتوكل العباسي الخلافة ، فترك الجد وعدل الى الحمق والشهرة به ، وقد نيف على الخمسين ، بعدأن رأى أن شعره لا ينفق مع مشاهدته أبا تمام والبحتري وأبا السمط بن أبي حفصة ونظراءهم(٩١) •

وكان يعلم جيداً أن بضاعة العصر النافقة هي الحمق ، ووجد في نفسه الاستعداد والميزات التي تؤهله للتفوق في هذا المجال المفتوح أمام كل خائب في مجالات الحياة الأخرى وكل راغب في الشهرة والكسب ،فعندما لامه أبو العنبس الصيمري ، وهو أحد متحامقي ذلك العصر ، على ذلك السخف الذيملأ به الأرض شعراً وقصصاً وخطباً ، قال له: يا كشخان ، أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت؟أنت أيضاً أديب شاعر فهم متكلم قد تركت العلم وصنعت في الرقاعة نيفاً وثلاثين كتاباً(١٢) » •••

وكما قالوا قديماً : « الجاهل ينال أغراضه ويظفر بآرائه ويطيع قلبه ويجري في عنان هواه وهو بريء من اللوم سليم من العيب ، تُغفر زلاته وتُتعمد هفواته(١٣) »، فقد جرى أبو العبر هذا المجرى السهل المفيد، وسار على هدي القائل(١٤) :

ما لي وللعقل لا استصحبته أبداً   فالعقل يُنزل دار الذل والهون
لقد تعاقلت دهراً لا أرى فرجاً   ومذ تحامقت صار الناس يُدنوني

فكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر في عصره بالجد ، ونفق نفاقاً عظيماً ، وكسب في أيام المتوكل مالا جليلا ، بل وأصبح نقيب الحمقى في ذلك العصر •

فقد تميز أبو العبر عن غيره من المتحامقين بميزات جعلته يتقدم على غيره ويكسب أكثر • أولا ، لأنه كان من أسرة الخليفة الحاكم ، الأمر الذي مهد له طريق الصعود السريع الى بلاطه وجعل له وضعاً خاصاً ، سواء كانذلك وسط حاشية البلاط أم في الحياة العامة خارجه • ثانياً ، للجرأة الذاتية التي جعلتهيضرب عرض الحائط بكل الاعتباراتالقائمة آنذاك ، وينحو المنحى الذي يريد ، مما فتحلديه كل امكانات التفوق والبروز • وثالثاً ، ونتيجة لذلك ، أن أساليبه في التحامق جاءتعلى نحو يتسم بالتنوع والغرابة المثيرين للعجب وأسباب الشهرة السريعة • فهو لم يعتمد طريقة التحامق التقليدية المتمثلة في استخدام المحالات ومقلوبات الكلام وفحشه فقط ، بل وأضاف اليها ما يشبه طريقة دادائيي عصرنا هذا في تكوين قصائد شعر منترتيب مزق أوراق مكتوبة ، على غير انتظام• فقد « كان ، كما يقول ، يبكّر فيجلس علىالجسر ومعه دواة ويكتب كل شيء يسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين،حتى يملأ الدرج من الوجهين ، ثم يقطعه عرضاً ، ويلصقه مخالفاً ، فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه !(١٥) كما استخدم التعري في غير وقته وموضعه المعتاد • فكان ،على سبيل المثال ، يتصيد عارياً من كل شيء، بكل ما يخطر وما لا يخطر في البال من وسائل الصيد ، وبكل جوارحه،علىحد قوله(١٦) » !

أو يستخدم الأشياء عكس استخداماتها التي خلقت لها ، كان يضع خفاً على رأسه بدل القلنسوة ، ويضع قلنسوتين في رجليه بدلاً من الخف ، أو يدع المتوكل يلقي به من زلاقة الى البركة ثم يخرجه السبّاح منها بشبكة لصيد السمك ! » .

أي أنه كان مجدداً في ذلك المجال الذي زج بنفسه كلها فيه . ولم يكن سلوكه ذاك خالياً من الموقف الفلسفي تجاه الحياة ومجرياتها آنذاك ، وفقاً للأسلوب الذي وجد أنه سينجح فيه ، وقد نيف على الخمسين من عمره . وهي سن التعقل بالنسبة للأسوياء من الناس . ولكن أبا العبر كان استثناء ، ويا له من استثناء ! .

لقد عاش أبو العبر حياة سوية ، حتى الخمسين من عمره ، اذن . وكان يجيد الشعر منذ عهد الأمين الى أيام المتوكل ، ثم أخذ في الحمق والمجون في الشعر والكلام المختلف .

أي أنه كان اختياراً واعياً وقراراً ومدروساً ، ذلك الذي اتخذه أبو العبر ، بعد زمن طويل ، حتى أصبح لا يوصف الا بالماجن ، الخليع ، الهازل ، الأحمق ، المتحامق ، الجاهل والمتجاهل وصاحب الشعر الأحمق . وراح يتكسب بالمجون والخلاعة « فيكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره بالجد ، ونفق نفاقاً عظيماً ... » (١٧) ، وانصرف الى المتوكل ، وولي نعمته ، الذي أجزل له العطاء فأجزل له أبو العبر التحامق والشعر ، فله فيه ، كما يذكر الأصفهاني (١٨) « أشعار حميدة يمدحه بها ، ويصف قصره ، وبرج الحمام والبركة ، كثيرة المحال ، مفرطة السقوط لا معنى لذكرها لا سيما وقد شهرت في الناس » . ترى ، ما الذي جعل أبا العبر ، حقاً ، يتجه هذا الاتجاه فيختار الحمق على العقل ؟ وما الذي جعله ينفق نفاقاً عظيماً ويكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره ؟

واذا ماعتبرنا السؤال الثاني يصح جواباً للأول ، فما هو الجواب على السؤال الثاني ، الذي يمكن طرحه بصيغة أخرى : ما الذي يجعل انساناً ، كأبي العبر ، يختار السقوط على الارتفاع بنفسه ، أو الحمق على العقل ، ولماذا ينجح في اختياره هذا ؟ .

ان الاجابة ستقتضي منا ، بالتأكيد ، تفسير الظاهرة عن طريق معرفة مسبباتها . والظاهرة ، هنا ، أبو العبر أو صرعة الحماقة في ذلك العهد . فهناك ، بالطبع ، مسببات موضوعية هي الوضع القائم آنذاك ، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، أي الخلل الذي طرأ على جوانب من البنية الاجتماعية والرسمية التي كانت تحيط المداحين والمهرجين والحمقى بأسباب النعمة والرخاء بينما تحجبها عن غيرهم . أما المسببات الذاتية ، فهي الاستعداد النفسي لأبي العبر وميله للدعابة والسخرية ومخالفة ماهو سائد وعادي ، اضافة الى الوضع الشاذ لأسرته ، التي تربطها ، من جانب ، علاقة القربى بالخليفة والبيت الحاكم ، وتعيش ، من جانب آخر ، وضعاً معيشياً يدفعها الى استجداء المال من القاضي ، كما فعل أبوه وأخوه الصغير ، وربما هو أيضاً ، في مثل هذا الجو ، الذي يمكن أن يقال فيه : شر البلية ما يضحك نشأ أبو العبر وعانى حتى هزلت لديه الحياة ، فداواها بالتي كانت هي الداء ! .

مع هذا كله ، فان أبا العبر كان أديباً فهماً وعالماً خبيراً بالنفس الانسانية والحياة ومجاهل الشعر ، لا يستعصي عليه حل مسألة بينما يحدث ذلك لمن أرادوا الاستهزاء به • وله مؤلفات مثل(١٩) (كتاب جامع الحماقات وحاوي الرقاعات) ، (كتاب المنادمة وأخلاق الرؤساء) وغيرهما • وقال جحظة(٢٠) عنه : « لم أر قط أحفظ منه لكل عين ولا أجود شعراً ، ولم يكن في الدنيا صناعة الا ويعملها بيده حتى لقد رأيته يعجن ويخبز » • الا انه أضر بنفسه بتحامقه ، وجلب المنية اليه باظهاره لمعاداته الطالبيين ، التي كانت ، مع ذلك ، سياسة الخليفة المتوكل وسلطته الحاكمة آنذاك •

فقد كانت نهايته ، كما تذكر الروايات المختلفة(٢١) في تفصيلاتها على يد أحد الشيعة في الكوفة بعد أن سمعه « يقول في علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قولا قبيحاً استحل به دمه فقتله في بعض الآجام وغرّقه فيها » •

□ شعره :

لم يكن أبو العبر ، وكان يعرف أنه لا يمكن أن يكون ، بوجود البحتري وأبي تمام ودعبل الخزاعي وابن الرومي وغيرهم ، شاعراً متالقاً بارزاً • ولذلك سلك طريقه ذاك • الا انه وكما يذكر رواة ونقاد ذلك العصر ، « كان صالح الشعر مطبوعاً يقول الشعر المستوي »(٢٢) ، « وأن له أدباً صالحاً وشعراً طيباً »(٢٣) • بل ان الاعجاب بأبيات له دفع أحدهم الى القول انه لو أراد دعبل ، وهو أهجى أهل زمانه أن يقول في معناها ما قدر على أن يزيد على ما قاله أبو العبر من أبيات ، وهي :(٢٤)

رأيت من العجائب قاضيين ... هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين قدّاً ... كما اقتسما قضاء الجانبين
هما فال الزمان بهلك يحيى ... اذ افتتح القضاء بأعورين
وتحسب منهما من هزّ رأساً ... لينظر في مواريث ودين
كانك قد جعلت عليه دنّاً ... فتحت بزاله من فرد عين

وربما بلغ التعبير عن الاعجاب حد المبالغة ، كما جاء في وصف جحظة لأبي العبر بقوله(٢٥) : لم أر قط أحفظ منه لكل عين ولا أجود شعراً ••

وما من شك في أن لأبي العبر شعراً صالحاً وسليماً ، كما يذكر الرواة • منه قوله متغزلاً(٢٦) :

هوى دفين وهوىً باد ... أظلم فجازيك بمرصاد
يا واحد الأمة في حسنه ... أسرفتَ في هجري وابعادي

قد كدت مما نالني في الهوى | أخفى على أعين عُوّادي
عبدك يحيي موته قُبلة | تجعلها خاتمة الزاد

وقوله(٢٧) :

وفي ساعدي ممن تعلقت عضّة | تذكّرني ذاك الشنيب المفلّجا
وآثار خدش في يدي مليحة | أقام عليها القلب منّي وعرّجا
أمّا والذي أمسيتُ أرجو ثوابه | لقد حلّ ما أخشاه وانقطع الرجا

وقوله(٢٨) يصف نفسه وعلوّ همته ، وهي أبيات يتكرر استحسان الرواة والمؤلفين لها واستشهادهم بها في أكثر من مصدر :

ليس لي مالٌ سوى كرمي | فيه أمنٌ لي من العدم
لا أقول الله يظلمني | كيف أشكو غير متّهم
قنعت نفسي بما رزقت | وتمطّت في العلى هِمَمي
ولبستُ الصبرَ سابغةً | فهي من قرني الى قدمي
فاذا ما الدهر عاتبني | لم يجدني كافر النعم

فهل وجده الدهر هكذا ، حقاً ، بعدما تحامق فبلغ من الاسفاف والسخف والاستهزاء الحد الذي استحق معه قول محمد بن داود ، وهو يصفه(٢٩) : « انه صاحب الشعر الأحمق والكلام المختلق ، وهو أبرد الناس غير مدافع ... » ؟ !

لننظر اليه في قوله(٣٠) ، والمتوكل يدفعه من زلاقة ليقع في البركة ثم يخرجونه منها بشبك الصيد :

ويأمر بي الملك | فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك | كأني من السمك
ويضحك كك ككك | ككك كك ككك !

وقوله(٣١) :

أنا أنا أنت أنا | أنا أبو العبرنّه
أنا الغني الحمقوقو | أنا أخو المجنّه

أنـــا أحـــرر شعـــري وقـــد يجـــي بردنـّــه
فلـــو سمعـت بشعـــري في الـــدس ّ والوترنـّـــه
لسقـــرِ قَرِ سقـــرِ نفـــر ٠٠ ومـــا تارنـّـــه
لكنـــك تضحـــك حتـــى تمســـك البطـَطـَنـّـــه٠

وغير ذلك من المحالات التي كانت تعبيراً عن سخريته بكل شيء٠٠ نفسه وبعض الأوساط التي بلغ بها السخف حد الارتياح لمثل هـذه الحماقات والتشجيع عليهـا وتنصيب نقيب للحمقى تحت ظلها ٠ فما كان أبو العبر وغيره من المتحامقين الا الصورة المعلنة لجوهر أوساط في المجتمع آنذاك ارتاحت لهذا اللون أو وجهها الذي فقد ماءه ! ٠

الحواشـــي :

١ ـ جمع الجواهر ٨١ ٠ وقلب الأشياء اي عكسها ٠
٢ ـ معجم الشعراء ١٨٤ ٠
٣ ـ الأغاني ٧٦/٢٣ ٠
٤ ـ الأغاني ٨٠/٢٣ ٠
٥ ـ هامش المصدر نفسه ٠
٦ ـ سمط اللآلي ٨٧ ٠
٧ ـ عيون التواريخ / مخطوط ١٧٧ ظ ٠
٨ ـ تبصير المنتبه ٠
٩ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٦ ٠
١٠ ـ جمع الجواهر ٨١ ٠
١١ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٧ ٠
١٢ ـ المصدر نفسه ٠
١٣ ـ غرر الخصائص الواضحة ١٣٥ ٠
١٤ ـ المصدر نفسه ٠
١٥ ـ الأغاني ٢٣ / ٨١ ٠
١٦ ـ المصدر نفسه ٠
١٧ ـ الأغاني ٧٦/٢٣ ٠
١٨ ـ المصدر نفسه ٠
١٩ ـ معجم الأدباء ١١٤/١٧ ٠
٢٠ ـ معجم الأدباء ١٧ / ١٢٢ ٠
٢١ ـ الأغاني ٨٦/٢٣ ومعجم الأدباء ١٢٣/١٧ ، ١٢٦ ٠
٢٢ ـ الأغاني ٧٦/٢٣ ٠
٢٣ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٧ ٠
٢٤ ـ أشعار أولاد الخلفاء ٣٣٠ ، الأغاني ٨٥/٢٣ وفوات الوفيات ٣٥٥/٢ مع بعض الاختلاف ٠
٢٥ ـ معجم الأدباء ١٢٢/١٧ ٠
٢٦ ـ أشعار أولاد الخلفاء ٣٣٢ والأغاني ٨٤/٢٣ مع بعض الاختلاف ٠
٢٧ ـ ذيل الأمالي ٨٧ ٠
٢٨ ـ الزهرة ٢ / ١٩٥ ٠
٢٩ ـ معجم الأدباء ١٧ / ١٢٥ ٠
٣٠ ـ الأغاني ٨٢/٢٣ ٠
٣١ ـ طبقات الشعراء ٣٤٣ ٠